على خُطى هيمنجواي
في كـوبــا

هايدي عبد اللطيف

- المؤلف: هايدي عبد اللطيف
- العنوان : على خُطى هيمنجواي في كوبا
- الطبعة الأولى 2021
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٣١٩٦
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 288 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

على خُطى هيمنجواي في كـوبـا

هايدي عبد اللطيف

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

عبد اللطيف، هايدي.

هايدي عبد اللطيف : على خُطى هيمنجواي في كوبا

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2021

288 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 3196 / 2021

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 288 – 9

1 – سيرة ذاتية

2 – عبد اللطيف، هايدي

إلى

أكرم

شقيقي الأكبر

أبي الثاني و معلمي الأول

الذي رسم ملامح مستقبل أوصلني إلى كوبا.

هايدي

في هذا الكتاب

اعتراف	٩
القسم الأول: كوبا الساحرة	١١
- في البداية	١٣
- الوصول	٢٣
- نصف كوبي	٣٣
- لقاء نادر	٤٩
القسم الثاني: في أثر هيمنجواي	٥٧
- أسطورة لا بوديجيتا	٥٩
- أمبوس موندوس.. بين عالمين	٧١
- فينكا بيهيا.. مستودع الأسرار	٨٦
- كوهيمَر.. البحر من دون العجوز	١٥٣
- فلوريديتا.. ملتقى الأصحاب	١٦٤
- دوس إرمانوس..المخبأ المثالي	١٧٩

- سلوبي جوز.. الحانة المنسية ١٩٠
- مارينا هيمنجواي.. رحلات وحكايات ٢٠٤
- أستا لويجو.. إلى لقاء قريب ٢١٥
- من القلب ٢٢٣
- ملحـق الصـــور ٢٢٥
- المصادر ٢٧٩

اعتراف

هذا الكتاب لم يكن ليوجد لولا تشجيع وحماس الصديقة سوسن بشير التي أدين لها بالفضل الكبير في اقتراح تدوين رحلتي اقتفاءً لأثر هيمنجواي في كوبا وتحويلها من مقال، كما كنت أنوي، إلى كتاب يتناول حياة الروائي الأمريكي في لؤلؤة الكاريبي.

وأعترف أنني توقعت في البداية أن يضم هذا الكتاب مشاهداتي خلال زيارتي لهافانا ووصف الأماكن التي ارتبطت بالكاتب الشهير، وعلى رأسها بيته، مع بعض المعلومات عنها. ولكن ما إن شرعت في كتابة يوميات الرحلة، والبحث والقراءة في سيرته، وتدقيق المعلومات الخاصة بعلاقته بكل مكان، حتى وجدتني أدخل عالمًا سحريًّا تنفتح أبوابه على مصاريعها يومًا بعد يوم، مقالات وكتب لا نهائية عن إرنست هيمنجواي باللغتين الإنجليزية والإسبانية اللتين أجيدهما[1]؛ لأعثر على كنز من الحكايات عن حياته في الجزيرة الكاريبية، وعدد من الحوارات الصحفية التي أُجريت معه خلال سنواته فيها، ومع آخرين تقاطعت سبلهم معًا، بالإضافة إلى رسائله تلك التي كتبها من بيته في

(١) الفقرات والاستشهادات المأخوذة من كتاباته أو أي مقالات وكتب عنه من ترجمة المؤلفة. كما أن أسماء الأعلام والأماكن كتبت بالعربية وفقًا لنطقها في لغاتها الأصلية أو بطريقة النطق في كوبا.

كوبا أو غيرها وقد تُرجمت مختارات منها إلى العربية[٢]، ومقالاته، ما صنع إلى جوار ما شاهدتُه هناك هذا الكتاب الذي آمل أن يكون إضافة تثري المكتبة العربية وتلقي مزيدًا من الضوء على جوانب مغمورة من حياة أشهر الأدباء الأمريكيين في القرن العشرين.

ولا يسعني إلا أن أقدم هذا الاعتراف والشكر والتقدير لسوسن بشير، ولزوجي الروائي إبراهيم فرغلي الذي لم يدخر جهدًا في مساعدتي بدءًا من رعايته لبناتي، متيحًا لي الفرصة لتحقيق حلمي بالسفر إلى كوبا، ثم تشجيعه المتواصل خلال مرحلة الكتابة وحثه على الانتهاء منها، وحرصه على عدم انقيادي وراء مئات الكتب التي كُتبت عن هيمنجواي والتي كدت أغرق فيها، وصولًا إلى قراءته ومراجعته الدقيقة لمخطوطة الكتاب في كل مراحلها.

(٢) «الرسائل» ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، صدرت في جزئين عن دار « آفاق للنشر والتوزيع»، القاهرة.

القسم الأول
كوبا الساحرة

في البداية

يقول إرنست هيمنجواي: «***كل كتاب يكتبه الكاتب الحقيقي هو بداية جديدة***»[٣]، وهذا الكتاب الذي تبع خطاه في شوارع هافانا ومطاعمها وحاناتها وأقدم فنادقها، واقتفى أثره وحاول أن يتلمس رائحته في بيته بمزرعة «فينكا بيهيا»، أتمنى أن يشكل بداية حقيقية لي في عالم الكتابة، وبالأخص في أدب الرحلات. فاستكشاف الآخر والاطلاع على ثقافات متعددة، عالم دخلته منذ نعومة أظفاري من خلال الكتب وأسفار والدي وحكاياته عما شاهده، وتذكاراته من كل رحلة، والتي ملأ بها خزانة عرض بضلف وأرفف زجاجية في غرفة الجلوس، احتوت على دُمى الماتريوشكا الروسية، كؤوس عليها صور وأسماء عواصم العالم، تماثيل لوجوه صينية، وأكواب خزفية بماصة جانبية من كارلوفيفاري مدينة الينابيع الساخنة التشيكية، إلى جوارها تتراص أوانٍ كريستالية، فخر صناعة مملكة بوهيميا، الاسم القديم للجزء الشمالي من التشيك؛ وغيرها الكثير من تذكارات حُفِرت صورها في ذاكرتي، فَرُحت أبحث عنها بعد أكثر من ٤٠ عامًا، في بلاد زارها والدي وامتلكنا منها قطعة صغيرة في بيتنا، وبلاد أخرى ارتبطت بها ثقافيًّا ودراسيًّا، إلى أن جاءت رحلتي إلى كوبا.

---

(٣) من كلمته في حفل تسلم جائزة نوبل في عام ١٩٥٤، والتي ألقاها نيابة عنه السفير الأمريكي في السويد، وسجلها هيمنجواي بصوته في وقت لاحق.

لم تكن رحلتي في بدايتها بغرض اقتفاء أثر هيمنجواي أو سعيًا وراءه فقط، ولكن تعددت أسبابها. فهذه الجزيرة النائية التي تستقر في مدخل خليج المكسيك وتعتبر أكبر جزر منطقة الكاريبي، كانت بالنسبة لجيلي، من مواليد سبعينيات القرن العشرين، دومًا بلدًا مثيرًا، بوصفها آخر نماذج الدول الشيوعية، خصوصًا لمن نشأوا وسط خضم أحداث الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا، وعاصروا سقوط الاتحاد السوفيتي وما ترتب عليه من انهيار وتفتت للكتلة الشرقية في أوروبا وانقسام دولها مثل يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا.

وفي التسعينيات، حيث بداية تكون الوعي السياسي والثقافي لجيلنا، كانت مواقف الرئيس الكوبي فيديل كاسترو في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، وخطبه وأحاديثه تمثل ثورية رومانسية تجذب المرء في سنوات شبابه، ورغم أنني لم أنضم لحزب سياسي في حياتي، ولا أنتمي لليسار أو اليمين، لكنني تأثرت بكل هذه الأحداث، وأحببت كوبا وانجذبت إليها.

وكانت صورة الثوري العالمي تشي جيفارا بلحيته وشعره الأسود الطويل، تزين غرفة شقيقي الأكبر الذي يشبهه قليلًا. وجيفارا، الذي كُتبت من أجله الأغنيات، وأُنتجت المسلسلات والأفلام، كان يعكس بثوريته وحلمه في التغيير حلم أجيال كاملة. بالإضافة إلى الموسيقى الكوبية التي ملأت أسماعنا، بعد الانتشار العالمي لفريق «بوينا فيستا سوشيال كلوب»، منذ منتصف التسعينيات وتخطيه حدود موطنه، وتمرده فنيًّا على القمقم الذي فرضته سياسات كاسترو وخلافاته مع

أمريكا، والتي تسببت في عزل الجزيرة وأهلها عن العالم لسنوات، وإن بقيت السيارات الأمريكية من موديلات الأربعينيات والخمسينيات الوحيدة المنتشرة في شوارعها حتى وقت قريب، وقد حرص الكوبيون على صيانتها والاعتناء بها لتصبح صورها تتجول وسط المباني القديمة، الصورة النمطية للترويج لهذا البلد سياحيًّا، فيما يشبه وعدًا برحلة عبر الزمن إلى النصف الأول من القرن العشرين.

كل هذه الأسباب وضعت كوبًا على قائمة البلاد التي يحلم بزيارتها الكثيرون، تلك الجزيرة المتفردة في خصوصيتها، نتيجة انصهار الثقافتين: الإسبانية التي جاءت مع المستعمر، والأفريقية التي حملها العبيد إليها، فخلقت كمعظم دول أمريكا اللاتينية- أجواء ساحرة.

تلك الجزيرة المليئة بالحكايات والأساطير، لعل أشهرها عن السيجار الذي يلفونه على أفخاذ العذراوات، وهي معلومة غير حقيقية كانت تُستخدم للدعاية، وربما لها أصول تاريخية لم يعد أحد يتذكرها اليوم، وقصة الكفاح المسلح لحركة «٢٦ يوليو» التي قادها فيديل كاسترو على رأس مجموعة من الثوريين، وجذبت الأرجنتيني تشي جيفارا لينضم إليها ويقود الشباب المتمرد عبر جبالها وأحراشها، بعدما هبط إليها في شاطئ لاس كولورادس قادمًا من المكسيك على متن قارب الجدة أو «غران-ما» الذي حمله وكاسترو و٨٢ ثوريًّا، جاءوا يحلمون بالحرية والتخلص من الحكم الديكتاتوري المسيطر لعقود منذ انتهاء الاحتلال الإسباني، ومن النفوذ الأمريكي على البلاد. ومن لاس كولورادس في أقصى الجنوب الغربي إلى هافانا في أقصى الشمال

الشرقي، سارت المجموعة الثورية قليلة العدد في طريق نضالها، ينضم إليهم الحالمون بالتغيير وبوطن أفضل، حتى دخلوا العاصمة منتصرين في ٨ يناير ١٩٥٩، لتبدأ كوبا عهدًا جديدًا وتظل محط أنظار العالم لعقود طويلة.

ولا تنتهي حكايات ذلك البلد النائي، فهو أيضًا موطن صياد عجوز طافت سيرته أرجاء العالم منذ الخمسينيات وحتى اليوم، الصياد الذي صارع سمكة المارلين الضخمة ونجح في أسرها ثم أكلتها منه القروش، حكاية سطرها بأسلوبه الأدبي المتميز الكاتب الأمريكي إرنست هيمنجواي في روايته «العجوز والبحر» لينال عنها جائزة البوليتزر في عام ١٩٥٣، ثم جائزة نوبل للآداب[٤] في عام ١٩٥٤. تلك الرواية التي قرأتها في زمن بعيد، فسحرني وصفه للبحر والسماء، وأحببت موطن هذا الصياد، ما دفعني لتتبع أخبار الأديب الأمريكي أثناء عملي في الصحافة، لأعرف أنه أيضًا وقع في غرام لؤلؤة الكاريبي قبل ظهور كاسترو وجيفارا بسنوات طويلة، وأقام فيها ثلث عمره تقريبًا، وأنَّ اضطراره للرحيل منها، قد أصابه باكتئاب دفعه للانتحار بعد مغادرته إياها بعام واحد.

ظلت كوبا الحلم الذي يراودني من آن إلى آخر، خصوصًا كلما زارها أحد الأصدقاء وتحدث عنها سواء في مقالة تُنشر في إحدى الصحف العربية أو عبر منشوراته على مواقع التواصل الاجتماعي.

(٤) «مُنح إرنست ميلر هيمنجواي جائزة نوبل في الآداب للعام ١٩٥٤، لإتقانه فن السرد كما ظهر أخيرًا في (العجوز والبحر) ولتأثيره على الأدب المعاصر». من شهادة لجنة نوبل.

وفي فبراير ٢٠٢٠ تحقق الحلم بوصفه هديتي لنفسي في عيد ميلادي الخمسين، ولظروف شخصية، لا مجال لسردها هنا، كانت رحلة قصيرة إلى هافانا مدتها خمسة أيام، حيث سافرت إليها من المكسيك مثل جيفارا وكاسترو لكن ليس على متن يخت وإنما جوًّا. فالوصول إلى العاصمة الكوبية أسهل من جارتها، أيًّا كانت المدينة التي تسافر منها. فمثلًا مدة الرحلة من مكسيكو سيتي بالطائرة نحو ثلاث ساعات أو ما يزيد قليلًا، في حين السفر من أي عاصمة أوروبية يستغرق من ١٠ إلى ١٢ ساعة متواصلة، وقد تزيد وفقًا للعاصمة التي تنطلق منها، أو تحتوي الرحلة على أكثر من محطة توقف، وإن كانت باريس هي الأفضل من ناحية ساعات الطيران ووجود رحلات مباشرة تنطلق منها بصفة دورية وذلك لانتشار السياح الفرنسيين في أنحاء الجزيرة.

بالنسبة إليَّ، كان الأمر في جميع الأحوال صعبًا لانطلاق رحلتي من الكويت حيث أقيم، لذا اخترت السفر إلى المكسيك ومنها إلى كوبا، واستغرقتني الرحلة أكثر من ٢٥ ساعة من الطيران شبه المتصل تقريبًا، كانت أولى محطاتها دبي، ثم برشلونة، وأخيرًا مكسيكو سيتي التي سافرت منها إلى العاصمة الكوبية.

قبل سفري، قرأت عن سنوات هيمنجواي فيها وعن تشي جيفارا، ووضعتُ برنامجًا مكثفًا للأيام الخمسة، يشمل أنشطة عدة من بينها التمتع بأحد شواطئ الكاريبي برماله النقية ومياهه التركوازية الرقراقة، وزيارة مصنع للسيجار، ومتحف الثورة، وبيت جيفارا في هافانا، ومتحفه في سانتا كلارا التي تبعد نحو ٣ أو ٤ ساعات عن العاصمة،

وبالطبع منزل هيمنجواي الذي عاش فيه نحو ٢٠ عامًا، والمطاعم والحانات التي كان يتردد عليها، وغرفته في أول فندق استقبله.

لكن الغريب أنني بمجرد زيارتي لأول الأماكن التي ارتبطت بالروائي الأمريكي، وجدتني أقتفي أثره فقط ولم أَسْعَ لرؤية آثار جيفارا أو غيرها من تفاصيل برنامجي، فقد تحول تركيزي إلى صاحب (العجوز والبحر) وعلاقته بهذه الجزيرة التي أهدى مواطنيها ميدالية جائزة نوبل بعد حصوله عليها، وأهداه أهلُها تكريمًا باهرًا لذكراه.

ولا تُقاس المعلومات التي قرأتها قبل سفري عن هيمنجواي في لؤلؤة الكاريبي، بما شعرت به خلال وجودي في كل مكان ارتاده، واكتمل الشعور وبلغ أوجه في منزله. فقد كان مفاجئًا لي خلال رحلتي أن أرى كوبا تحتفي بالروائي الأمريكي كواحد من أبنائها؛ فبالإضافة لانتشار صوره في كل مكان زاره أو كان من رواده، حولت الحكومة بيته إلى متحف، وأطلقت اسمه على أكبر موانئها للصيد. أما الفندق الذي نزل فيه كلما زار هافانا منذ عام ١٩٢٨ وحتى انتقاله إلى بيته في عام ١٩٤٠، فقد جعل غرفته متحفًا مصغرًا لأغراضه وكتبه.

صار الكاتب الشهير جزءًا لا يتجزأ من أهم المزارات السياحية في العاصمة الكوبية. لكن لم يكن هذا فقط ما جعلني أقتفي أثره، بل حالة لا أعرف تفسيرًا لها، كأن شيئًا خفيًّا يدفعني لتخصيص أيامي كلها في هافانا سعيًا وراءه، وشعور يتنامى بأن هناك المزيد سيتكشف لي.

فهيمنجواي الذي عاش حياة حافلة، تزوج فيها أربع مرات وأنجب ثلاثة أبناء، وعاصر حربين عالميتين أُصيب بشظايا قذيفة في إحداهما،

وقام بتغطية حروب وصراعات أخرى في مناطق متفرقة من العالم، وصارع الثيران، واصطاد الأسماك والقروش في عرض المحيطات، وطارد وقنص الوحوش في غابات وأحراش أفريقيا، وصعد قمم أعلى جبالها «كليمنجارو»، ونجا من حادث طائرة مرتين ليقرأ بنفسه نعي وفاته في الجرائد. وخامس أمريكي يفوز بجائزة نوبل في الآداب، ثم صار أشهر الكتاب الأمريكيين في عصره وأيقونة وطنية، بل وأحد أشهر أدباء العالم حتى اليوم؛ وقع في غرام كوبا وأسّس فيها حياة وأصدقاء، واختارها وطنًا ثانيًا، وخلّف فيها حكايات ومآثر تكشف جوانب كثيرة من شخصيته. ومع ذلك، وبرغم تلك الحياة الصاخبة الممتلئة بالأحداث، كان في حاجة إلى حياة العزلة، التي منحتها له تلك الجزيرة. وكما ذكر في كلمته عند تلقي جائزة نوبل: «***الكتابة في أفضل حالاتها هي حياة في العزلة***»، أدركت المعنى الحقيقي لتلك الجملة التي طالما قرأتها عند زيارتي إلى بيته في فينكا بيهيا، وتعني مزرعة المطل[٥]، على تخوم العاصمة الكوبية. وتساءلت هل هذه هي العزلة التي كان يسعى إليها، ليمارس الكتابة في أفضل حالاتها ويكتب أروع أعماله «العجوز والبحر» و«وليمة متنقلة»[٦]؟!

ففي ذلك الموقع البعيد عن ضجيج العاصمة كان يستطيع أن يعزل نفسه كيفما ووقتما أراد؛ ليكتب أو ليقرأ. ولم يكن مسموحًا لأحد بالزيارة من دون موعد سابق كما أشار خادمه الأمين ومستودع أسراره

(٥) كلمة «فينكا» بالإسبانية تعني مزرعة و«بيهيا» تعني المراقبة أو المطل.

(٦) تتناول رواية «وليمة متنقلة»، التي كتبها في الخمسينيات خلال إقامته في كوبا، يومياته في باريس التي عاش فيها خلال العشرينيات. وقد نُشرت بعد وفاته بعامين ووصفها النقاد بأنها أفضل أعماله.

رينيه فياريال في كتابه عنه[٧]، وفي الوقت نفسه كان يمكنه في أقل من ساعة بالسيارة أن يذهب إلى هافانا حيث كل شيء يفيض بالحيوية، وذبذبات الطاقة الإيجابية المنتشرة في الأجواء والتي تشعر بها حتى اليوم برغم ملامح الفقر الواضحة.

استأجر هيمنجواي المزرعة لمدة عام واحد، قبل أن يقرر شراءها في عام ١٩٤٠، بقيمة ١٨ ألف دولار، بعد حصوله على شيك بمبلغ ١٠٠ ألف دولار نظير تحويل روايته «لمن تُدق الأجراس؟» إلى فيلم سينمائي. عندما قرأت تلك المعلومة فكرت: هل كانت كوبا بمثابة وجه الخير والسعد على الكاتب الأمريكي منذ أن وصلها؟! ولا أقصد بذلك فقط فوزه بجائزة نوبل في الآداب عن رواية استغل فيها كل خبراته خلال رحلات الصيد في مياهها لأكثر من ٢٠ عامًا، ومعلوماته عن أشهر أسماكها. ولكنني لاحظت أن هيمنجواي يوم أن وطئت قدماه أرضها للمرة الأولى في عام ١٩٢٨ كان مجرد مراسل حربي يخطو أولى خطواته في عالم الأدب، نشر تقريبًا ثلاث مجموعات قصصية وروايتين، وبعد زياراته المتكررة إلى هافانا (١٩٣٢ -١٩٣٩) نرى أنها أغزر فتراته الإبداعية، كتب خلالها روايتين أخريين، هما «أن تملك وألا تملك» و«لمن تُدق الأجراس؟»، وكتاب «التلال الخضراء لأفريقيا»، الذي تناول فيه تفاصيل ويوميات رحلات السافاري التي قام بها في كينيا وعددًا من المقالات والقصص القصيرة.

---

(٧) «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة»، رينيه وراؤول فياريال، منشورات جامعة ولاية «كنت».

كأن حياته في تلك البلاد الساحرة هي طاقة الخير التي انفتحت له، ليختلف مسارها بشكل كبير وتزيد شهرته ونجاحاته وموارده المالية، فبعد ما أشار إليه من حياة بسيطة زاهدة ومتقشفة في باريس، وسكنه في غرفة صغيرة مع زوجته الأولى وابنهما، وحرصه في اختيار الطعام والشراب بحيث يتناسب مع دخلهم المحدود، صار يسافر كثيرًا ويكتب كثيرًا، كما تمكن من شراء قاربه الخاص في عام ١٩٣٤، مما قربه أكثر من كوبا. ورغم أنه لا يمكن إغفال أن زواجه الثاني ببولين فايفر التي تنتمي لعائلة ثرية، ربما وفر له الاستقرار المادي بصورة ما، لكن علاقتهما المضطربة هي ما دفعه للهروب بعيدًا إلى هافانا القريبة من بيته في فلوريدا. وكانت رواية «لمن تُدق الأجراس؟»، التي كتب معظمها فيها كما سبق وأشرت، سببًا في أن يستقر في الجزيرة الكاريبية لعشرين عامًا وأكثر، إذ مكنته المبالغ التي حصل عليها بعد تحولها إلى فيلم من شراء «فينكا بيهيا» في نهاية عام ١٩٤٠. وفي العام التالي كسب ١٤١ ألف دولار[٨]، أي أنه في عامين فقط حصد ثروة ساعدته على أن ينقل حياته إلى كوبا؛ ليتفرغ للكتابة وللصيد، وينغمس في مجتمعها ووسط ناسها مكونًا صداقات وعلاقات ممتدة.

وكان لوجوده فيها أثرٌ إيجابيٌّ ونفسيٌّ عليه، كما شعرت خلال زيارتي لها، وبعد قراءتي عنه فيها، ولهذا أيضًا تأثر كثيرًا برحيله الاضطراري عنها، وانتابته اضطرابات وهلاوس تفاقمت حتى أنهى حياته بطلقة رصاص من بندقيته، بعد أقل من عام واحد من ابتعاده عن

(٨) معلومات ما كسبه من كتاب ديف شيفر «الإبحار إلى هيمنجواي كوبا».

بيته في فينكا. وكان يردد خلال إقامته فيها، أنه يعتبر نفسه نصف كوبي ومواطنًا من كوهيمَر (البلدة التي كان يخرج منها للصيد) بل أن كوبا نفسها منحته المواطنة الشرفية بتخليد ذكراه إلى اليوم.

كانت خطواتي في أثره، وما مررت به خلال تتبعي خطاه، والذي سأرويه تفصيليًّا في هذا الكتاب، وكل المعلومات التي جمعتها عنه بعد عودتي، تضاعف حماسي للاقتراب منه أكثر، واستكشاف خفايا حياته، وتسليط الضوء عليها، للقارئ العربي الذي أدعوه أن يسير معي في شوارع هافانا وأزقتها، يتذوق أطباقها ومشروباتها وموسيقاها، كما فعل الأديب الشهير، لنُؤخذ مثله بسحر المكان الذي أنتج (العجوز والبحر) وروايات أخرى.

* * *

الوصول

خرجت من مطار هافانا الدولي الذي يحمل اسم أشهر مناضليها «خوسيه مارتي» في الثامنة مساء السبت ٢٢ فبراير ٢٠٢٠، فاستقبلتني العاصمة الكوبية برذاذ خفيف كأنها تلقي عليَّ تحيتها الخاصة. أما أمواج محيطها الهادرة ومياهها فقد أغرقت السيارة التي كانت تقلني إلى محل إقامتي في وسط المدينة، ومنعتني تلك الأمواج الغاضبة ليلتها من السير على الماليكون، طريق الكورنيش الشهير. كما منعت أهالي المدينة من الجلوس على حافته الأسمنتية، كعادتهم، للاستمتاع بسهرة فنية مجانية في عطلة نهاية الأسبوع، يستمعون فيها لموسيقى يعزفها فنان أو هاوٍ على آلته، يقدم لهم ألحانًا تناسب مزاجه ومزاج الجالسين حوله، وربما أغنية من أغنيات الصون[٩]، أو يشعل المكان بأنغام السالسا والرومبا، فترى الجميع، باختلاف أعمارهم، وقد دبت فيهم الحيوية، وشرعوا يرقصونها على الرصيف فيملأونه بالبهجة والمرح. وقد ترى رسامًا يعرض مجموعة من اللوحات الزيتية التي تصور وجوهًا من كوبا بملامح حفر عليها الزمن آثاره، أو صورًا أخرى لنسائها الفاتنات ذوات البشرة الخلاسية، أو عازفي موسيقى على آلاتهم.

(٩) الصون El son وتعني بالإسبانية الصوت، وهي أصل الموسيقى الكوبية وتجمع بين بنية الغناء والجيتار الإسبانيين، والإيقاعات الأفريقية من جهة أخرى. ويمكن القول بأن الصون تمثل لكوبا ما يمثله التانجو للأرجنتين، والسامبا للبرازيل.

ولطالما حلمت أن أعيش هذه اللحظات التي كثيرًا ما قرأت عنها، لأكتشف أن أجواء الشتاء لا تسمح بتلك السهرات والأمسيات. لكن هافانا الكريمة لم تضنَّ عليَّ بموسيقاها الحية الفاتنة، فقد جذبتني ألحان كوبية أصيلة، صادرة من مكان قريب لسكني. اخترت في زيارتي للعاصمة أن أعيش وسط أهلها وأن أحتفظ بخصوصيتي في الوقت ذاته، فلم أستأجر غرفة في فندق أو لدى أسرة كوبية فيما يُعرف باسم «كازا بارتيكولاري»، وهي عائلات تؤجر غرفًا في بيوتها للسياح بأسعار زهيدة، لكنني استعنت بموقع الإنترنت «إير بي أند بي» المعروف بتأجير الشقق كي أحصل على شقة صغيرة في إحدى البنايات التي يسكنها أبناء المدينة.

فبعد دخولي الشقة التي تقع في الدور الثالث، بفترة وجيزة، تناهت لأذني أنغام موسيقى راقصة تصدح في الجوار، مما شجعني على التفكير في الخروج برغم تأخر الوقت، فقد كانت الساعة قد تخطت التاسعة مساء بقليل. كنت أود استكشاف مصدر الألحان المبهجة، وخطر لي أنها ربما تصدر من مطعم قريب وبالتالي تكون فرصة لأتناول فيه عشائي، لكن بمجرد أن فتحت باب الشقة ونزلت الدرج بدأت تتصاعد تدريجيًّا لأكتشف أن مصدرها شقة جيراني في الدور الثاني. واصلت هبوطي على السلالم العريضة التي ذكرتني ببيوت القاهرة القديمة المبنية في مطلع القرن العشرين، بمتكئها (الدرابزين) الحديدي المزخرف وسطحه الخشبي، خرجت إلى الشارع وكانت إضاءته شاحبة، ففي شوارع هافانا -خصوصًا الداخلية منها- لن تجد إضاءة

ساطعة، وربما في المدينة بأكملها التي اختفت منها مظاهر المدنية الحديثة.

كان المطر قد توقف، تاركًا عبقه في الأثير ليتسلل إليَّ من نسمة باردة لطيفة، داعبت شعري، وبينما تتوزع أعمدة الإنارة على مساحات متباعدة، تنتشر الموسيقى في كل شارع وناصية، صادرة من البيوت والمحال الصغيرة، ففي كوبا تصدح نغمات الصون بنجومها وأغنياتها طوال الوقت وفي كل مكان، كما نستمع نحن في بلادنا العربية إلى أم كلثوم أو فيروز. تتبعت أصوات الموسيقى التي تبدو مثل لفحات هواء لا يمكن للمرء أن يحدد مصدرًا وحيدًا لها، حتى وصلت إلى الطريق الرئيس لوسط المدينة، «باسيو دي مارتي»، ويبعد مسافة شارعين بالتوازي عن بنايتي رقم ١٦٦ في شارع إندوستريا.

ويفصل هذا الطريق بين «هابانا بييخا»[١٠]، أو العاصمة القديمة التي بناها الإسبان في القرن السادس عشر، و«هابانا ثنترو» التي بناها الكوبيون خلال القرن العشرين. ويبدأ من الكابيتوليو (مقر الحكومة الكوبية) وينتهي عند مدخل خليج هافانا حيث يتقاطع مع كورنيش الماليكون، وهي طريق عريض، يتوسط جزءًا منها ممرٌ واسعٌ للمشاة، يُسمَّى «باسيو دِل برادو»، أرضيته من الرخام الملون، تتناثر على جانبيه الدكك الرخامية، بينما تحده من المدخلين الشمالي والجنوبي تماثيل لأربعة أسود ذكرتني بمثيلاتها التي تزين كوبري قصر النيل بالقاهرة،

(١٠) يُنطق حرف الـ V في اللغة الإسبانية باء، حتى إن الكوبيين يكتبون اسم مدينتهم بحرف الـ B ويسمونها (La Habana).

لكن الأسود الكوبية كانت تقف على قوائمها الأربع تفتح أفواهها لتطلق صيحة زهو وانتصار، في حين تتحلى أسودنا المصرية بالوقار جالسة على قدميها الخلفيتين.

احتميت من رذاذ الأمطار -الذي عاود على استحياء- أسفل بوائك[١١] بنايات متوسطة الارتفاع، بدت ألوانها الباهتة أكثر جمالًا في العتمة. وبالرغم من أنها ليلة السبت والشوارع خالية إلا أن المطاعم والحانات كانت ممتلئة عن آخرها، تصدح منها ألحان الموسيقى الحية التي تقدمها فرق موسيقية صغيرة، وعلى أنغامها يرقص السياح أو أهالي المدينة.

مررتُ بمقهى من مقاهي الرصيف، يحتل ناصية ممر للمشاة يتوسط بنايتين ضخمتين على الطراز الأوروبي، لأكتشف أن الأولى لفندق «إنجلاتيرا»، أقدم فنادق العاصمة، والثانية هي الـ«جران تياترو» أو المسرح الكبير (دار الأوبرا الهافانية). ومن بعيد لمحت قبة الكابيتوليو الذهبية التي يقال إنها بُنيت لتنافس قبة الكونجرس الأمريكي في العاصمة واشنطن، بل وتعلوها بمتر واحد، كما يمكن رؤيتها من جميع الأحياء في هافانا. كانت الإضاءة المحيطة بالمبنى تزيده بهاء وألقًا.

عبرت الطريق العريض، حيث اختفى الممشى وصار الشارع مخصصًا للسيارات، لأقف في مواجهة البناء المهيب بقبته الشاهقة،

(١١) جمع بائكة وهي مجموعة الأعمدة المتتابعة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف. وينتشر هذا الطراز المعماري في أغلب شوارع وسط المدينة ويميز العاصمة الكوبية بمبانيها زاهية الألوان.

وألتقط عددًا من الصور للمبنى وللجالسين على درجات سلالمه الكبيرة العديدة. عاودت نغمات الموسيقى الكوبية صخبها المحبب، فتتبعت مصدرها في شارع متفرع من باسيو دي مارتي، لأجد في نهايته مطعمًا صغيرًا، تقف النادلات على بابه بملابسهن الضيقة، موليات ظهورهنَّ للطريق يحركن أجسامهن على الأنغام الصادرة عن فرقة تعزف في الداخل، بهرتني رشاقتهن وانسياب خطواتهن الراقصة، حتى خطر لي أن الفتيات الكوبيات لا بد أنهنَّ يرضعن موسيقى السالسا في المهد، فيتقنَّ بالفطرة حركات رقصتها التي قضيت شهورًا لأتعلمها ولا أزال إلى اليوم لا يمكنني أن أرقص مثلهن.

قررت تناول عشائي في ذلك المطعم لأستمتع بالموسيقى الحية ورقصات النادلات معًا أو مع الزبائن، وقضيت ليلتي الأولى في العاصمة الساحرة بعدما أسرتني بموسيقاها التي سترافقني طوال رحلتي.

في الصباح التالي، أول نهاراتي في هافانا، صحوت مبكرة كعادتي، وخرجت لتناول فطور تقليدي واستكشاف المدينة، كانت السماء الرمادية تنذر بيوم مطير، لكنني قد تسلحت بمظلة في يدي. وعلى العكس من الليلة الماضية اتجهت يسارًا في الشارع الذي أقطن فيه، نحو الماليكون، الواقع في نهايته؛ لعلي أجد ما كنت أبحث عنه، لكن صادف اليوم الأحد، حيث أُغلق الطريق استعدادًا لماراثون للدراجات. وقفت أتأمل مياه المحيط داكنة الزرقة، والتي ذكرتني بلون مياه الخليج العربي في الكويت، في الأيام الشتوية المماثلة، كما ذكرني الطقس ذاته

بشتاء الكويت الدافئ، وهوائها المنعش. في تلك اللحظة، ألقت علي السماء تحية الصباح، رذاذًا خفيفًا، احتميت منه أسفل مظلتي وسرت على رصيف الماليكون باتجاه طريق «دي مارتي» وممشى «باسيو دِل برادو». اختفى المطر سريعًا وظهرت الشمس على استحياء، تحاول أن تزيح السحب لتعلن عن وجودها ونهاية الطقس الماطر. بدا الممشى الواسع يستعد ليوم حافل، حيث انتشر على جانبيه الباعة والفنانون يرصون أغراضهم، لوحات فنية وأشغالًا يدوية وملابس فلكلورية.

عبرت الممشى كله، حتى وصلت هافانا القديمة، فاستقبلتني مرة أخرى بالموسيقى التي تصدح في كل المقاهي منذ الصباح الباكر، لتلفت انتباه الزوار والسياح. أصوات الجيتار تختلط مع الآلات الإيقاعية المحلية مثل البونجو والماراكاس[١٢]، فتنشر ذبذباتها في الهواء، لتصيبني بالعدوى، فأشعر بخطواتي تتراقص بينما أسير على تلك البلاطات الحجرية، وكنت أشعر أن هذا الإحساس لا بد أن يسيطر على كل مَن يستمع لها.

كانت الأجواء أكثر صخبًا من الماليكون، حيث امتلأت شوارعها وأزقتها، على الجانبين، بالمتاجر التي تكثر بينها محال بيع التذكارات والسيجار، وبالفنانين الهواة في كل مكان، مهرجون بملابسهم الزاهية وبشرتهم الخلاسية يسيرون على سيقان خشبية طويلة، وبائعات الورد الكوبيات بأثوابهن الفلكلورية المزركشة، وقد زينت كل منهن شعرها بعمامة معقوصة من الأمام تتوسطها زهور كالتي يحملنها في سلالهن،

(١٢) البونجو نوع من الطبول، والماراكاس زوج من الخشخيشة.

وهو ما يغوي المارة بشراء الورد والتقاط صور تذكارية مع بائعاته.

انشغلت بتأمل تلك المظاهر الاحتفالية، خلال تأديتي لمهمتين من المهام الأساسية الواجبة عند الوصول إلى أي مدينة في السفر، وهي استبدال النقود بالعملة المحلية[١٣]، وفي كوبا سنضيف إليها شراء بطاقات لاستخدام الإنترنت[١٤]. يمكنك تغيير العملة في المطار، وهذا ما فعلته عند وصولي، لكنني لم أقم بتحويل كل عملات اليورو التي بحوزتي، فوفقًا لما ينصح به المسافرون من محترفي السفر والسياحة في فيديوهات خاصة تجدها على «يوتيوب»، عليك أن تصحب معك إما الجنيهات الإسترلينية وإما اليورو وليس الدولار الأمريكي. ففي هذا البلد المعادي للولايات المتحدة يتم تحصيل ضريبة ١٠٪ من أي مبلغ بالدولار عند تحويله للعملة الكوبية. وقد استغرقتني تلك المهام نصف يوم تقريبًا حتى أتممتها، فبالإضافة إلى صفوف الانتظار الطويلة في كل منها، اضطررت للعودة إلى البيت عدة مرات، أولًا لأحضر بطاقة هوية ثم مرة ثانية لجواز السفر.

كنت أشعر بالإرهاق والجوع أيضًا، فقررت البحث عن مكان لتناول الطعام وأجعلها فرصة لاستكشاف أول الأماكن المرتبطة بهيمنجواي،

---

(١٣) كانت كوبا تعتمد العملة المزدوجة، وتنقسم إلى البيزو القابل للتحويل (كوك) والذي يتساوى مع الدولار الأمريكي، وهو الوحيد المسموح به للسواح، والبيزو الكوبي (كوب) الذي يستخدمه المواطنون. وفي يناير ٢٠٢١، ألغت الحكومة الكوبية العملة المزدوجة ليصبح الدولار يعادل ٢٤ بيزو كوبيًا.

(١٤) لا يتوفر الإنترنت بشكل واسع سوى في الفنادق الكبرى، أما السائح العادي فيشتري بطاقات تحتوي على كلمة سر ورمز تتيح له الدخول على شبكات الواي فاي المنتشرة في نقاط متعددة في المدينة القديمة وبعض الحدائق العامة.

حانة «لابوديجيتا دِل ميديو»، خصوصًا أنني كنت أتجول في شوارع المدينة القديمة، ووجدت موقعها قريبًا مني وفقًا لتطبيق «مابس دوت مي» الذي حملته على هاتفي النقال قبل سفري ليتسنى لي الحصول على خريطة هافانا من دون إنترنت. كنت أتوقع أن تكون مثل مقاهي باريس وحاناتها؛ مثلًا تقدم طعامًا إلى جوار المشروبات الكحولية.

حتى تلك اللحظة لم يكن هيمنجواي قد اقتحم رحلتي، بل كنت مجرد سائحة عادية تتعرف إلى معالم المدينة، وتنفذ برنامجًا وضعته مسبقًا. لكن تغير الأمر بعد ذلك، وأصبحت رحلتي كلها مرتبطة به، ووجدت نفسي فجأةً أتحرك استجابة لنداء غامض، وبدلت خططي كلها في لحظة.

وحينما كنت أستدعي لقائي الأول بالفاتنة هافانا واستقبالها لي، وأكتب تفاصيل أول ليلة ونصف يوم قبل سعيي في أثر الروائي الأمريكي، تساءلت كيف استقبلته العاصمة الكوبية أول مرة؟ هل وصلها مثلي ليلًا أم نهارًا؟ أكانت ليلة ممطرة مثل ليلة وصولي، كل ما أعرفه أنها كانت في ربيع ١٩٢٨، لكن منذ بداية كتابة هذه السطور عنه، بدأت أبحث بشكل جاد عن كل ما يمكن أن يقود إلى إجابة تساؤلاتي حول حياته وسنواته في كوبا، إما في كتاب تناول سيرته أو في إحدى مقالاته أو رسائله.

فقد وصل إلى أرض الجزيرة في مساء الأحد ١ إبريل من ذلك العام، قادمًا إليها على متن السفينة الإنجليزية «آر.إم إس أوريتا»، بصحبة زوجته الثانية بولين. كانا عائدين من باريس إلى أمريكا. وانتهت

رحلتهما البحرية بالباخرة في هافانا، ليستريحا يومين على اليابسة بعد أكثر من عشرة أيام من الإبحار في مياه المحيط الأطلنطي الشاسعة، قبل ركوب العبارة التي تنقلهما إلى بيتهما في «كي ويست»، وهي آخر نقطة في ساحل ولاية فلوريدا، وتبعد عن هافانا نحو مائة ميلٍ.

كانا في مستهل زواجهما، ينتظران مولودهما الأول الذي كان يتمنى الكاتب الشاب آنذاك أن تكون فتاة يسميها بيلار؛ وهو اسم التدليل الذي كان يستخدمه لزوجته، والذي أطلقه على قاربه الخاص فيما بعد حينما لم يرزق بالابنة التي تمناها، فقد أنجب ثلاثة أبناء كلهم من الذكور.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلًا عندما رست الباخرة عند محطة وصول البواخر «سييرا مايسترا» في هافانا القديمة، وهبط منها الروائي الأمريكي لتستقبله نسمة ربيع رطبة، تلك التي تأتي بعد ليلة ممطرة وعواصف كانت قد منعته من النوم في اليوم الأخير على متن السفينة، ليشهد دخولها خليج هافانا، ويتأمل قلعتي المورو وسان سالفادور اللتين تحدان مدخل الخليج من الجانبين(١٥).

وتختلف الروايات حول اليوم الأول لوصوله، فقد أخبرتني مشرفة غرفته في فندق «أمبوس موندوس»، أنه ترك زوجته الحبلى وذهب ليبحث عن مكان ليقيما فيه خلال أيامهما في المدينة قبل استئناف الرحلة إلى أمريكا، وعندما سار في شوارع المدينة القديمة، عثر على هذا الفندق قريبًا من مبنى السفارة الأمريكية آنذاك. بينما في حكاية

(١٥) أندرو فيلدمان، «إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية».

ثانية، تشير إلى أنه سار بصحبة زوجته حتى وصلا إلى ذلك الفندق الذي كانت غرفتهما فيه محجوزة من قبل.

ولست مشغولة حقيقة بأي الحكايتين أدق أو أصدق طالما أن هيمنجواي نفسه لم يسردها في أي من قصصه أو رواياته، أو سجلها في رسائله. ولكني متأكدة في المقابل أنه وقع في غرام هافانا منذ تلك الزيارة الأولى القصيرة، وأنه بسبب هذا الغرام عاد إليها بعد ذلك في رحلات أخرى، واختار أن يعيش في تلك الجزيرة طويلًا ويندمج وسط أهلها كواحد منهم أو بحسب تعبيره «كوبانو ساتو» (Cubano Sato)وهو تحريف ربما يكون مقصودًا أو غير مقصود لمصطلح «ساتو كوبانو» (Sato Cubano) التي تعني كوبي مهجن أو نصف كوبي.

❊ ❊ ❊

نصف كوبي

يرى الروائي الكولومبي جابرييل جارثيا ماركيز أنه لم يترك كاتب أثرًا في كوبا كما فعل هيمنجواي، إذ يقول: «***توغل هيمنجواي في روح كوبا أكثر مما قدَّرهُ الكوبيون في عصره. وفئة قليلة جدًّا من الكتَّاب تركت بصمات كثيرة تشير إلى مرورها بأبسط الأماكن التي قد لا تخطر ببال أحد في الجزيرة***»(١٦). ولعل هذا ما يفسر شعور الروائي الأمريكي نفسه بأنه نصف كوبي في تصريحه لتلفزيون كوبا بعد حصوله على نوبل، حينما قال بالإسبانية التي كان يجيدها: «***أنا سعيد للغاية بكوني أول كوبانو ساتو يفوز بهذه الجائزة***».

وقد منحته جائزة نوبل شهرة عالمية، لكنه أصبح أيضًا مواطنًا عالميًّا بفضل أعماله التي اتخذت من بقاع كثيرة خارج موطنه الأصلي مسرحًا لها، وتُرجمت قصصه ورواياته لعشرات اللغات، وقرأها الملايين في كافة أرجاء المعمورة وشاهدوا الأفلام المقتبسة عنها. ولد في أمريكا وحمل جنسيتها وامتلك فيها منزلين، لكنه استقر لأطول وقت في بيته في لؤلؤة الكاريبي، حيث قضى فيه نحو ٢٠ عامًا من حياته، التي تخطت

(١٦) من مقدمة كتاب «هيمنجواي في كوبا» نوربيرتو فوينتس .

الستين بقليل[١٧]، أي أكثر من نصف عمره الإبداعي تقريبًا إذا كان قد بدأ الكتابة في العشرين أو قبلها بعام أو عامين. وكان يشعر بانتمائه إلى تلك الجزيرة، فأوراقه ومسودات رواياته ورسائله وأغراضه الخاصة استقر معظمها في بيته هناك، ويقول ماركيز: «***غالبًا ما يُسأل العديد من الكتاب الذين لديهم منازل عدة في أماكن مختلفة من العالم عن تلك التي يعتبرونها مكان إقامتهم الرئيس، ويجيب جميعهم تقريبًا أنه المكان الذي توجد فيه كتبهم***»[١٨].

وهيمنجواي ترك في فينكا بيهيا كتبه التي يبلغ عددها ٩ آلاف تقريبًا، رسائله وأعمال لم تنشر، ٩٠٠ أسطوانة من موسيقاه المفضلة، حتى الأثاث والتحف واللوحات الفنية وملابسه وأغراضه الخاصة. فقد غادر مضطرًّا في عام ١٩٦٠، نتيجة لسوء العلاقات بين حكومة الثورة بقيادة فيديل كاسترو والولايات المتحدة الأمريكية، تاركًا كل شيء في موضعه كأنه سيعود في القريب. وترك أيضًا أثره في شوارع هافانا القديمة، حاناتها ومطاعمها وفي موانئ الصيد على امتداد خليجها.

أُغرم الروائي الأمريكي بالجزيرة الخلابة، التي وصفها في كتابه «التلال الخضراء لأفريقيا»: بـ«***تلك الجزيرة الجميلة والطويلة والبائسة***»، واعترف بعشقه لها في كل مناسبة وفرصة، حيث قال في مرة للصحفي روبرت مانِنج في حوار له مع مجلة «ذي أتلانتيك»[١٩]: «***أعيش في كوبا***

(١٧) ولد إرنست هيمنجواي في ٢١ يوليو ١٨٩٩، وتوفي في ٢ يوليو ١٩٦١.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) أُجريت المقابلة عقب حصوله على نوبل، وتحدث عنها مانِنج في مقال بعنوان «هيمنجواي في كوبا»، نُشر في مجلة «ذي أتلانتيك» عدد أغسطس ١٩٦٥.

لأنني أحبها، هنا أجد الخصوصية التي تجعلني أكتب». وكان يرغب في أن يبقى فيها حتى نهاية حياته، ويُدفن في حديقة بيته إلى جوار شجرة القابوق (السيبا) العملاقة التي تستقر عند مدخل المنزل.

وعندما نال جائزة نوبل للآداب في نهاية عام ١٩٥٤، أهدى الجائزة للكوبيين قائلًا: «***هذه الجائزة تنتمي إلى كوبا؛ لأن هذا العمل تشكل وخُلق في كوبا، وسط أهالي كوهيمَر الذين أعدني واحدًا منهم***». ومنح الميدالية التذكارية للجائزة إلى هذا البلد، لتُحفظ في كنيسة السيدة العذراء في مدينة سانتياجو دي كوبا، موضحًا سبب اختياره: «***أهديت ميدالية الجائزة إلى الصيادين في كوهيمَر، ومع أنني رويت قصة رجل عجوز وسمكته للعالم أجمع، إلا إنها حكايتهم ويجب مشاركة هذه الميدالية معهم. فالميدالية تُعلق إلى جوار القلب، وأنا قلبي في كوبا، أهلها الطيبين وضعوني في قلوبهم، وجعلوني أعيش بينهم لفترة أطول مما عشت في أي مكان آخر. هذا هو بيتي الحقيقي***».

ولا تزال ميدالية نوبل محفوظة في كنيسة «لا بيرخن دي لا كاريداد دل كوبري»، في أقصى جنوب الجزيرة، إلى اليوم. وكانت كوبا قد منحته في العام ذاته، قبل فوزه بنوبل، أرفع أوسمتها المدنية، وسام كارلوس مانويل دي ثيسبيديس، الذي تسلمه يوم ميلاده الخامس والخمسين في ٢١ يوليو ١٩٥٤.

وبعد نجاح الثورة الكوبية في مطلع ١٩٥٩، لم يُخْفِ هيمنجواي إعجابه بها، وعبر عن ذلك في أكثر من تصريح صحفي، فقال: «***نحن الرجال الشرفاء، نؤمن بالثورة الكوبية***»، وحينما عاد إلى كوبا في نهاية ذلك العام، كان في استقباله عدد من الصحفيين و جمع من أهالي

البلدة التي يوجد بها بيته، فكرر الإعلان عن تقديره للثورة قائلًا: «***نحن الرجال الشرفاء، نؤمن بالثورة الكوبية، ويسعدني أن أعود إلى هنا مجددًا، فأنا أنتمي إلى كوبا، ولم أصدق كل التقارير التي نُشرت في الصحافة الأجنبية ضد الثورة***»[٢٠]، وفي لفتة مفاجئة احتضن هيمنجواي العلم الكوبي ولثمه بشفتيه، لتحييه الجماهير الواقفة بحرارة، وعندما طلب منه المصورون تكرار ما فعله ليقوموا بالتقاط الصور، أجابهم: «***يا سادة، أنا كاتب ولست ممثلًا، لقد قَبَّلْتُ العلم بإخلاص***»[٢١].

كانت مشاعره تجاه تلك البلاد وأهلها صادقة وارتباطه بكوبا حقيقيًّا، ورغم أنه عاش في أماكن متعددة، فقد نشأ في شيكاجو، ثم سافر إلى إيطاليا خلال الحرب العالمية الأولى، وعاد منها إلى شمال ميتشيجان، ثم تورونتو في كندا. كما انتقل إلى باريس في مطلع العشرينيات، وخلال العقد التالي كتب عن الحرب الأهلية في إسبانيا، وسافر في رحلات صيد في أفريقيا؛ لكنْ أيٌّ منها لم تنافس المكانة التي احتلتها كوبا في قلبه وحياته وكتاباته، ففيها صار كوبيا يرتدي الجوايابيرا[٢٢]، ويدخن السيجار ويشرب الرُّم، ويبحر لصيد الأسماك في محيطها. ومن تلك الجزيرة، بلغت شهرته الآفاق بعد نيله أرفع وأشهر الجوائز الأدبية.

---

(٢٠) أندرو فيلدمان، «إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية».

(٢١) رينيه فياريال، «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة»، منشورات جامعة ولاية «كنت».

(٢٢) القمصان البيضاء الواسعة المصنوعة من الكتان والمعروفة بتصميمها الشهير ذي الجيوب الأربعة الأمامية.

وقع هيمنجواي أسيرًا لهافانا التي كانت تُلقب آنذاك «باريس الكاريبي»، كان عائدًا لتوه من عاصمة النور الفرنسية التي عاش فيها واختلط بمثقفيها، وأصبح جزءًا من حياتها الثقافية الثرية. وكانت العاصمة الكوبية تعيش نهضة معمارية وفنية وثقافية كبيرة جعلتها تشبه باريس كثيرًا، والفضل فيها يعود إلى خيراردو ماتشادو[٢٣] الذي سعى إلى تنفيذ العديد من المشاريع الرئيسة للتنمية الوطنية، وتطوير البلاد وخصوًصا العاصمة، بإنشاء الطريق الرئيس (كاريتيرا ثنترال)، وعدد من الأبنية ذات الطراز المعماري الأوروبي المعروف باسم «نيو باروك»، مثل الـ«جران تياترو» أو المسرح الكبير (دار الأوبرا)، والكابيتوليو (مقر الحكومة الكوبية)، والفنادق الراقية مثل فندق «ناسيونال» الواقع على هضبة تطل على طريق الكورنيش و«أمبوس موندوس» في المدينة القديمة. كما كانت كوبا آنذاك ملتقى الصفوة الأمريكية التي هربت من الولايات المتحدة خلال فترة حظر المشروبات الكحولية (١٩٢٠-١٩٣٣)، إلى الجزيرة الكاريبية التي تصدح فيها الموسيقى طوال الوقت، وفي كل مكان، وحيث تنتشر الملاهي الليلية وكازينوهات القمار وتتوفر الكحوليات بأنواعها، ما أنعش العاصمة اقتصاديًّا، وظهرت آثار ذلك على الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية فيها.

وكانت سنوات الثلاثينيات حقبة خصبة في تاريخ هافانا، فقد شهدت إلى جانب كل ما سبق حراكًا سياسيًّا ملتهبًا ومظاهرات عنيفة، ضد ماتشادو

(٢٣) تولى ماتشادو بعد فترة من القلاقل والتقلبات السياسية مرت بها كوبا منذ رحيل الإسبان وتدخل الحكومة الأمريكية في شؤونها، واستمرت فترة حكمه ثمانيَ سنوات (١٩٢٥-١٩٣٣)

الذي برغم مساعيه التنموية حكم البلاد بديكتاتورية. ففي تلك الفترة عاد الطلاب الكوبيون ممن درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية أو المكسيك، وأُنشئت جامعة هافانا، ما شكل أرضية خصبة لتلك التحركات الطلابية التي أشعلت الأوضاع السياسية. وشهدت تلك السنوات أيضًا إلى جوار العنف ازدهارًا لافتًا في الصحافة والأدب والموسيقى، حيث تكونت ملامح الموسيقى الكوبية التي نعرفها اليوم وانطلقت نحو آفاق أوسع، فعبرت الحدود أولًا إلى جيرانها من جزر الكاريبي، ثم إلى أمريكا اللاتينية. كل ما سبق جعل كوبا وعاصمتها على الأخص تعيش حراكًا نابضًا على جميع المستويات، كان سببًا في أن يتعلق الروائي الأمريكي بهذه المدينة المفعمة بالحيوية ويسافر إليها في زيارات دورية.

كانت علاقته الأولى بهافانا، بمثابة الحبيبة التي يهرب إليها من بيته في كي ويست، يبحر إليها بقارب صديقه جو راسل[٢٤]، ويقيم في الغرفة رقم ٥١١ بفندق «أمبوس موندوس»، مطلًا على خليجها من بعيد. كانت رحلات هروبه بعيدًا عن بيته وزوجته وولديه بغرض ممارسة الصيد في الخليج والكتابة، ويمكنك أن تتخيله يتجول في شوارع المدينة القديمة بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين، يتسكع فيها، ويلتقي بفنانيها ومثقفيها. وخلال تلك السنوات، استمتع هيمنجواي بالعاصمة الفاتنة لأقصى درجة، استكشف حاناتها ومقاهيها وتعرف على الكثير من أهلها ونسائها، وصادق بعضهن، فقد صادفت تلك الفترة عدم استقرار علاقته بزوجته.

(٢٤) تبعد هافانا عن كي ويست ١٠٣ أميال، وتستغرق الرحلة ثلاث أو أربع ساعات بالقارب.

ومنذ نهاية الثلاثينيات، صارت الحبيبة هي السكن والمستقر، وأيًّا كانت وجهته التي يسافر إليها فإنه يعود إلى بيته في ضواحيها، ليؤسس فيها حياة امتدت لما يزيد عن العشرين عامًا. فقد منحته كوبا الوحي والإبداع بعد سنوات عجاف مرت عليه خلال الأربعينيات لم ينشر في أثنائها رواية ذات قيمة، حتى ألهمته مياهها قصة (العجوز والبحر)، التي تعد أشهر أعماله إلى اليوم.

وتكشف صوره وآثاره وحكاياته في حانات هافانا ومطاعمها، ومع أهل بلدة سان فرانسيسكو دي باولا حيث يقع بيته، وكوهيمَر القريبة منها، كيف توغل في المجتمع الكوبي وصار جزءًا منه. فالروائي الأمريكي الشهير يحمل في الجزيرة لقب «بابا»، أطلقه عليه جيرانه من الصبية الصغار، عقب انتقاله إلى مزرعته «فينكا بيهيا». فقد عاملهم بلطف وسمح لهم بالدخول إلى حديقة بيته ليقطفوا ثمار الفواكه المتوفرة فيها. وكوَّن منهم فريقًا للعبة البيسبول (كرة القاعدة)، وضم ابنه للفريق، وتولى بنفسه تدريبهم على امتلاك مهارات اللعبة التي كان من أكبر مشجعيها، ويتجلَّى ذلك في روايته «العجوز والبحر»، حيث يرد ذكر أسماء أشهر لاعبيها خلال حديث العجوز مع رفيقه الصبي أو في مونولوجه الطويل مع نفسه، إضافة إلى ما يرد فيها أحيانًا على لسان العجوز من ذكر وتحليل لبعض المباريات أو لمهارات أولئك اللاعبين، وبينهم مثلا ديماجيو العظيم[٢٥]، لاعب فريق نيويورك يانكيز الذي كان

(٢٥) جوزيف بول ديماجيو (١٩١٤-١٩٩٩) لاعب أمريكي في دوري كرة القاعدة الرئيس في مركز الوسط المدافع، والذي لعب طوال مسيرته الرياضية التي استمرت لثلاث عشرة سنة لصالح فريق نيويورك يانكيز.

هيمنجواي من مشجعيه. والبيسبول هي الرياضة الأكثر شعبية في كوبا، ويشار إليها فيها باسم بيلوتا[٢٦].

وقد استصعب الصغار اسم هيمنجواي فنادوه «بابا» مثلما يناديه أبناؤه. وأصبح الاسم معتادًا بينهم خصوصًا بعدما استعان بعدد منهم للعناية بقططه وكلابه، أو في إحضار رسائله من مكتب البريد، فشاع لقب بابا حتى بين العاملين في البيت. وبعدها انتشر بين أهالي البلدة، وكانوا يجدون فيه تعبيرًا عن مدى إحساسهم به، خصوصًا وأنه اقترب منهم ودخل بيوت أغلبيتهم، إذ كان يعيش بينهم كواحد منهم لا كأجنبي غريب، يشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويقدم لهم مساعدات حرص على أن تيسر لهم حياتهم، ومنها على سبيل المثال مساهمته في تمويل إنشاء خط لمياه الشرب.

وفي بلدة كوهيمَر القريبة، التي كان ينطلق من مينائها بقاربه «بيلار» في رحلات صيد، توثقت علاقته بعدد من صياديها، وارتبط مع سكانها بعلاقات صداقة، وخصوصًا جريجوريو فوينتس؛ قائد القارب وأحد ملهمي شخصية الصياد العجوز في روايته الأشهر. وتلعب كوهيمَر دورًا مركزيًّا في الرواية، وتحظى بالوصف الدقيق حيث يصف ميناءها الشهير الذي انطلق منه الصياد سانتياجو، بينما يظهر في أحداثها مطعمه المفضل «لا تيراثا» (الشرفة) الذي كان يطل منه على خليجها الصغير.

(٢٦) شكل البيسبول جزءًا من الإرث الوطني في كوبا.. دخلت هذه اللعبة الأمريكية البلاد مع بعثات الطلبة من الكوبيين العائدين من الدراسة في الولايات المتحدة في ستينيات القرن التاسع عشر، وأُقيمت مباراتها الرسمية الأولى على الجزيرة في عام ١٨٧٤، ومن وقتها حازت شعبية كبيرة وأصبحت الرياضة الأولى، وقد أحرزت كوبا ثلاث ذهبيات أولمبية و٢٥ لقبًا عالميًّا في البيسبول.

وبينما منح كوهيمَر و«لا تيراثا» الخلود والعالمية من خلال عمله الأدبي، فقد حرص أهل البلدة على تكريمه وتخليد ذكراه بعد وفاته بإقامة تمثال نصفي له، صنعوه من الحديد والمعادن الموجودة في قواربهم، ليظل هيمنجواي حيًّا بذكراه بينهم إلى اليوم، حيث يقع التمثال متوسطًا ساحة القلعة موجهًا نظره إلى مدخل الميناء، المكان الذي طالما أبحر منه.

أما بالنسبة إلى الحياة الثقافية، فقد انخرط فيها هيمنجواي منذ زياراته الأولى إلى الجزيرة، وجمعته علاقات بأسماء معروفة في أوساطها الصحافية والفنية والأدبية، وتبرز من بينها صداقته الممتدة مع الصحفي فرناندو كامبوامور، والكاتبة والناقدة لولو دي لا تورينت، وكذلك مع الصحافي خوسيه أنطونيو فيرناندیث دي كاسترو الذي كان أول مَن التقاه الروائي الأمريكي في هافانا.

كما ربطته علاقة مميزة بكل من الروائي إنريكِه سيربا، والفنان التشكيلي أنطونيو جاتورنو. وتعتبر علاقته بالرسام الموهوب هي الأسبق حيث التقيا للمرة الأولى في عام ١٩٣٢. لكن صداقته مع الثاني هي الأكثر إثارة بعدما افتتن الكاتب الأمريكي بموهبة نظيره الكوبي، فسعى لمحاولة ترجمة أعماله إلى الإنجليزية ونشرها في الولايات المتحدة. وتشير مصادر متعددة إلى أن روايتَي «أن تملك وألا تملك» و«العجوز والبحر» تبرزان التأثير الكبير لسيربا على أسلوب هيمنجواي[٢٧].

(٢٧) أندرو فيلدمان، «إرنست هيمنجواي وإنريكِه سيربا: صداقة مفيدة»، عدد ربيع ٢٠١٣ من دورية «هيمنجواي ريفيو».

وتكشف علاقته بهذين الاثنين، على سبيل المثال، مدى انغماس الروائي الأمريكي في الحياة الثقافية في هافانا منذ زياراته الأولى في مطلع الثلاثينيات، وتأثره بها وإسهاماته فيها. فقد التقى هيمنجواي بالرسام الشاب أنطونيو جاتورنو في فندق «أمبوس موندوس» الذي كان يقيم فيه آنذاك، وجمع بينهما غرامهما بالصيد، ليصبح الأخير عضوًا أساسيًّا ضمن المجموعة التي تشاركه رحلات السعي خلف أسماك تيار الخليج[٢٨].

وخلال تلك الفترة، لفتت موهبة جاتورنو في الرسم اهتمام هيمنجواي الذي كان شغوفًا بالفن التشكيلي، فعمل على تشجيعه ودعمه بكل السبل، بدأها بكتابة مقدمة دراسة أولية قُدمت عن أعمال الرسام الشاب في كتاب نشر في عام ١٩٣٥. كما أرسل نسختين من الكتاب ذاته لصديقه أرنولد جينجريتش، محرر مجلة «إسكواير» وأحد مؤسسيها، ليساعد في الترويج للوحات جاتورنو، ما أسفر عن نشر ٨ منها في عدد مايو ١٩٣٥ من المجلة. وتكشف مجموعة من الرسائل المتبادلة بينهما (من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٨)، والمحفوظة في مكتبة جون إف كينيدي في بوسطن، عن عمق العلاقة بين هيمنجواي وجاتورنو الذي حظي برعاية مستمرة من الكاتب الأمريكي فقد عمل على دعمه ليقيم أول معرض فردي في جاليري «جورجيت باسدوا» في نيويورك، الأمر الذي فتح الأبواب أمام موهبة الرسام الكوبي، وبفضل ذلك حصل

(٢٨) تيار الخليج (Gulf Stream): هو تيار دافئ وسريع في المحيط الأطلسي يتكون في خليج المكسيك ويمتد حتى طرف فلوريدا في الولايات المتحدة.

على تكليف من شركة «باكاردي» لرسم جدارية لمقر الشركة في «مبنى إمباير ستيت» في عام ١٩٣٧.

أما لقاء هيمنجواي وسيربا، فيعود لعام ١٩٣٤، وذلك عن طريق لولو دي لا تورينت التي عرفه إليها الصحافي دي كاسترو. فقد طلبت لولو من هيمنجواي بوصفه كاتبًا أمريكيًّا مرموقًا قراءة مخطوطة رواية «تهريب» لسيربا، وكان يعد من الروائيين الواعدين في هافانا في ذلك الوقت.

وبعد قراءته للرواية، عبَّر هيمنجواي عن رغبته في مقابلة مؤلفها، وسأل لولو أن تدعو سيربا لينضم إلى جلسات مجموعتهم المعتادة في حانة «فلوريديتا». وخلال ذلك اللقاء الأول أشاد هيمنجواي بروايته وقال له: «***يا رجل، أنت أفضل روائي في أمريكا اللاتينية، ويجب أن تنسى كل شيء آخر، وأن تكتب الروايات فقط***»[٢٩].

ومنذ ذلك اليوم أصبح سيربا من المقربين في دائرة هيمنجواي الثقافية، واستمرت صداقتهما لسنوات. كما دام اهتمام هيمنجواي بما يكتبه سيربا وهو ما تكشف عنه مكتبته الخاصة في بيته، حيث تتوفر فيها نسخة من كل كتاب أو رواية أصدرها الروائي الكوبي حتى نهاية الخمسينيات. وبالرغم من ارتحال الأخير بعيدًا عن الجزيرة، خلال الأربعينيات والخمسينيات، لكن تواصله مع الكاتب الأمريكي ظل مستمرًّا.

---

(٢٩) أندرو فيلدمان، في كتاب «إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية».

وقد بُنيت تلك الصداقة على تقدير متبادل، كما يظهر من حديثهما في اللقاء الأول، وأيضًا من محاولات هيمنجواي لاحقًا مساعدة سيربا الذي نال الجائزة الوطنية للرواية في عام ١٩٣٨. وقد عثر الباحث الأمريكي أندرو فيلدمان، الذي أُتيح له الاطلاع على أوراق الأديب الأمريكي في كوبا[٣٠]، على رسالة غير منشورة لزوجته الثالثة مارثا جيلهورن كتبتها إلى محرر دار سكريبنر، ماكس بيركنز، تتحدث فيها عن سيربا، وتطلب مساعدته، تقول فيها: «***عزيزي ماكس، هل يمكنك تقديم اقتراحات لأديب كوبي اسمه إنريكِه سيربا، يعتقد إرنست أنه أعجوبة. فقد ألف رواية اسمها «تهريب» عن تجارة التهريب في البحر من خلال قوارب الصيد***»[٣١].

وفي حوار أجرته صحيفة «إلموندو» الإسبانية مع هيمنجواي عقب نيله جائزة نوبل، وصف سيربا بكاتبه المفضل، فقال: «***أنا مهتم جدًّا بالأدب الكوبي، لكن هناك كتاب يواجهون مشاكل صعبة للغاية، حيث لا يوجد ناشرون، ولا يوجد جمهور. والكاتب المفضل بالنسبة لي هو سيربا***». وكان سيربا أيضًا يحمل التقدير ذاته للأديب الأمريكي، فكل كتاب أهداه له تضمن الإهداء تعبيرات الإعجاب والصداقة، وكان يصدره مخاطبًا هيمنجواي بكلمة «المُعلِّم»[٣٢].

---

(٣٠) قضى فيلدمان عامين في كوبا من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٠ بغرض البحث والاطلاع على وثائق خاصة بهيمنجواي لا تزال في بيته بفينكا بيهيا.

(٣١) أندرو فيلدمان، «إرنست هيمنجواي وإنريكِه سيربا: صداقة مفيدة»، عدد ربيع ٢٠١٣ من دورية «هيمنجواي ريفيو».

(٣٢) أرماندو كريستوبال، في ورقة بحثية قدمها في ندوة «إرنست هيمنجواي الدولية الثانية عشرة»، في هافانا يونيو ٢٠٠٩. كما نشرها في وقت لاحق في موقع المجلة الثقافية « لاهيريبيللا».

لم تقتصر صداقات هيمنجواي على النخبة المثقفة، بل كانت له علاقات أيضًا مع صفوة المجتمع في هافانا، سواء من الإسبان المهاجرين حديثًا أو من مواطني البلد ذوي الأصول الإسبانية، حيث اعتاد ارتياد أهم نوادي العاصمة؛ وخصوصًا تلك المرتبطة بهواياته الأثيرة كنادي اليخوت (بارلوفنتو يخت كلوب) ونادي الصيد (إل كلوب دي كثادوريس دِل ثيررو)، ما أثمر عن تكوينه لشبكة واسعة من العلاقات والمعارف. وكان أقرب أصدقائه هو الطبيب خوسيه لويس سوتولونجو، وشقيقه المحاسب روبيرتو هيريرا سوتولونجو، وهناك أيضًا رجل الأعمال والسياسي الثري الكوبي ماريو جارثيا مينوكال سيبا، الذي شاركه الكثير من هواياته وبينها الصيد ومصارعة الديكة ورياضة جاي آلاي والملاكمة. وبسبب ولعه بالأخيرة وممارسته لها في كثير من سنوات حياته، جمعته صداقة مع أبطال الملاكمة في الجزيرة مثل إيبيليو موسلليير المعروف باسم «كيد تورنيرو»، وماريو «كيد» سانشيز بطل وزن الريشة.

وكان صاحب نوبل مغرمًا بمصارعة الديكة التي كانت تمارس بشكل كبير في البلاد، حتى إنه كان يحضر كثيرًا من فعالياتها، بل وقام بتربية أنواع شهيرة من الديوك مثل الديك الإسباني الأحمر. وخلال زيارة صديقه النجم جاري كوبر اصطحبه مرة لحضور نزال الديكة في «لافاللا دي أوتيليو»، أكبر حلبات المقامرة في هافانا، والتي كان يذهب إليها دوريًّا بصحبة مدير منزله رينيه فياريال أو جيرانه من بلدة سان فرانسيسكو دي باولا. ويُعرف عن الروائي الشهير حبه لسباقات

الخيل وسعيه للمقامرة في حلباتها، لذا كان يحرص على متابعة الأنشطة المماثلة في كل مكان زاره أو عاش فيه.

لم يترك هيمنجواي المفعم بالحيوية وحب الحياة نشاطًا محليًّا إلا ومارسه، فانغمس كلية في المجتمع الكوبي من قاعه إلى أعلى قممه، وبعد كل ما قرأت وعرفت لم يعد يدهشني احتفاء الجزيرة وأهلها حتى اليوم بالروائي الشهير. ومثلما تشاهد في كل أرجاء هافانا صورًا لزعيمها وقائد ثورتها فيديل كاسترو، فسوف تقع عيناك في كل مكان ارتبط بهيمنجواي على صورة أو أكثر مع الزعيم الكوبي يظهران فيها كصديقين حميمين، لكن المفارقة أنني اكتشفت لاحقًا أنه لم تجمعهما أي علاقة صداقة كما توحي الصور، بل إنها التقطت لهما خلال لقاء وحيد جمعهما في ١٥ مايو ١٩٦٠، خلال احتفالية توزيع جوائز مسابقة هيمنجواي للصيد التي فاز فيها كاسترو بالكأس الفضية أو المركز الثاني[٣٣].

مع ذلك، كان هيمنجواي يقدر الزعيم الكوبي كثيرًا، ويرى فيه الثوري الحقيقي والرجل الذي سيمنح الشعب ما يستحقه من تقدير واحترام، بعد عقود طويلة ناضل فيها هذا الشعب من أجل استقلاله وحريته، وخاض في سبيل ذلك ثلاثة حروب منذ ثورته على المحتل الإسباني في عام ١٨٦٩، وقد وصف المؤرخون مراحل الكفاح في كوبا بأنها أطول حركة متمردة في تاريخ العالم الجديد.

(٣٣) رينيه وراؤول فياريال، «الابن الكوبي لهيمنجواي»، منشورات جامعة ولاية «كنت».

ومن جهته، عبر كاسترو عن إعجابه وتقديره للروائي الأمريكي في أكثر من مناسبة، وسعى للحفاظ بكل السبل على آثاره، وعندما زار بيته في فينكا عقب وفاته، قال: «هذا متحف حي»، وأبدى حرصًا صادقًا على أن يبقى البيت على حالته التي تركها عليه مالكه بحيث يتملك كل مَن يزوره شعورٌ بأن هيمنجواي سيخرج من إحدى الغرف ليرحب به في بيته وعالمه. وهذا ما حدث لي في فينكا، بل وفي كل الأماكن التي كان يرتادها واقتفيت أثره فيها، كنت أشعر بآثاره، بروحه تتجول فيها وتطل على زائريها، ليست روحًا هائمة بل مستترة، فكما يقال الروح دومًا تظل في المكان الذي تحبه، وصاحب «العجوز والبحر» في رأيي لم يحب سواها، لؤلؤة الكاريبي.

ولهذا عندما تمشي، عزيزي القارئ، مثلي في شوارع هافانا وتتذكره، قد تشعر بخطواته تلاحقك، كما حدث معي وأنا أمشي في الشارع ذاته الذي يقع فيه فندق «أمبوس موندوس»، أنصت لدبيب قدمي على البلاطات التي حملته يوميًّا إلى حاناته المفضلة لتناول الغداء، أو العشاء وكأسٍ من الدايكيري الذي يصنع من الرُّم، أو الرون كما يسمونه في كوبا، وهو المشروب الكحولي الوطني الذي يحتسيه الجميع بأنواعه المتعددة ودرجات ألوانه المختلفة.

انتابني ذلك الشعور في ثاني نهاراتي في العاصمة الكوبية، بعد زيارتي لغرفته في الفندق واقترابي من أحد مواقع عوالمه الخاصة. كانت المدينة لا تزال خالية من السياح، تنعم بهدوئها الذي وصفه قائلًا: «***أنتم تعرفون كيف تكون الحال في الصباح الباكر في هافانا والمتشردون***

العاطلون عن العمل لا يزالون نائمين وهم يستندون إلى جدران المباني، حتي قبل مرور عربات الثلج لتوزيعه على الحانات»[٣٤]. ورغم أنني لم أشاهد أي من المشردين في هافانا ٢٠٢٠، لكنني تذكرت تلك الجملة على باب فندقه، وأنا أتأمل الشارع الحجري في ذلك الصباح، حينما مستني نسمة باردة آتية من المحيط، لأتخذ قراري في تلك اللحظة بالسير على خطاه وألغي برنامج زياراتي لهذا اليوم واليوم التالي وأقضي وقتي بصحبته فقط.

* * *

(٣٤) إرنست هيمنجواي، «أن تملك وألا تملك» (١٩٣٧).

لقاء نادر

أن تتاح لك فرصة الاقتراب من عالم كاتب راحل أو رؤيته بعينيه، لهي أمنية يتمناها الكثيرون، خصوصًا إذا كانوا من عشاق أعماله، لكن أن تحصل على لقاء معه يصحبك خلاله إلى أماكنه المفضلة ويتجول معك فيها، لهي أغلى وأثمن المفاجآت. ليس ضروريًّا أن تلتقيه وجهًا لوجه، فهناك عشرات السبل التي تتيح للمرء اللقاء بكاتبه المفضل، أولها ببساطة عبر كتاباته، وثانيها بزيارة بيته أو الأماكن التي ارتبط بها. ففي الأولى سترى فقط ما يريد أن يخبرك به، وقد يكون فيه كثير من الحقيقة أو من تجاربه الحياتية، وفي الثانية، تلك التي عاش فيها وقضى أوقاته، ستقترب منه أكثر وتتعرف إليه بشكل أفضل، وربما يصحبك طيفه، يدلك ويهديك لأماكن وأشياء بعينها.

ولكي يتحقق ذلك، في ظني، يجب أن تكون صادقًا في محبتك وتقديرك لهذا الكاتب، وأن تسعى بشكل حقيقي لاكتشاف عالمه. فحينما تتأكد روحه من صدقك، ستفتح لك عوالم لم تكن تتخيلها، وتدلك على قصص وحكايات لم تسمع عنها من قبل، وربما لا يعرفها كثيرون. في تلك اللحظة ستشعر أنك التقيت كاتبك المفضل شخصيًّا،

في لقاء نادر يربط بين عالمين، الأموات والأحياء، أو عالم الروحانيات وعالم الماديات، وهذا ببساطة ما حدث معي خلال زيارتي إلى لؤلؤة الكاريبي.

لم أنتبه في البداية إلى ذلك اللقاء، لكنني بعد عودتي وعند الشروع في كتابتي لهذا الكتاب وتدوين يوميات الرحلة واسترجاع ذكرياتي خلالها، وجدت أنه كان هناك مَن يوجه خطواتي دون أن أعي ذلك، مَن يفتح لي الباب لكل حوار وحديث أجريته في الأماكن التي زرتها، وربما منذ اللحظة الأولى لوصولي حينما أدركت أنني انتقلت في الزمن إلى حقبة أخرى.

وأعتقد أن كل مَن يزور العاصمة الكوبية سينتابه هذا الشعور، بالسفر في الزمن، فكل شيء في هافانا يحتفظ بطابعه القديم، بالروح والشكل ذاتهما، كما كانا في أيام هيمنجواي. يقولون إن الزمن قد تجمد في كوبا منذ وصول فيديل كاسترو ورفاقه إلى الحكم في يناير ١٩٥٩. قد يبدو ذلك صحيحًا إلى حد كبير، فأنت مثلًا لن ترى اللوحات الإعلانية المضيئة منتشرة في كل مكان، ولا ناطحات السحاب الضخمة، ربما ترى بنايات من ٢٠ طابقًا أو أعلى قليلًا في الأحياء التي بنيت حديثًا، لكن في وسط هافانا وفي أقدم أحيائها التي بناها الاستعمار الإسباني قبل ٥٠٠ عام لن تجد سوى عددٍ محدودٍ من المباني المرتفعة، وربما تقابلك، بين الفينة والأخرى، السيارات ذات الموديلات الحديثة أو سيارات الأجرة الصفراء التي تشبه تلك المنتشرة في نيويورك والمعروفة باسم (yellow cab).

وبالرغم من أن السنوات الأخيرة شهدت إنشاء فنادق حديثة لشركات عالمية، لكن عندما تسير في شوارع هافانا وتتأمل مبانيها التي تآكل طلاؤها وبهتت ألوانه، وتراقب السيارات الأمريكية القديمة التي تنتمي لزمن آخر، وترتاد المطاعم بديكوراتها الخشبية العتيقة، ستشعر أنك لست في القرن الواحد والعشرين.

لقد حرصت الحكومة الكوبية على أن تحفظ لهافانا ولجميع أرجاء الجزيرة ملامحها القديمة منذ نهاية الخمسينيات، لأسباب عدة قد يكون أولها انعزالها نتيجة الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليها الولايات المتحدة، ولانشغال الحكومة بتطبيق الاشتراكية ومنع مظاهر التميز والثراء، ولكن الأهم حرصها منذ مطلع القرن الواحد والعشرين على السياحة كمصدر دخل رئيس للبلاد بعد المعاناة التي مرت بها خلال عقد التسعينيات في أعقاب سقوط الاتحاد السوفيتي (الداعم الأول لها اقتصاديًّا وسياسيًّا). ففي عام ٢٠٠٠ لم يجد فيديل كاسترو سوى السياحة للاعتماد عليها بعد تراجع صادرات البلاد من السكر أيضًا.

وحينما تكتشف المدينة في أول أيام زيارتها، ستتوهم أنك عدت إلى الأربعينيات والخمسينيات تقريبًا، تمامًا في وقت معاصرة هيمنجواي لها خلال وجوده فيها. فالسيارات الأمريكية الكلاسيكية من طراز كاديلاك وفورد وبليموث وبونتياك وبيويك وغيرها، بألوانها المبهجة، الأحمر والفوشيا والبنفسجي والأصفر والأخضر والأزرق، تتجول في شوارع وسط المدينة بمبانيها الباروكية الطراز، مما يمنح الإحساس للمرء بأنه دخل موقع تصوير فيلم هوليوودي قديم. وتكمل

المشهد نغمات وألحان موسيقى السالسا والرومبا المنطلقة من المطاعم والحانات، لتضيف مزيدًا من البهجة والحنين الذي قد يفسده أحيانًا دخول سيارة من طراز أحدث في المشهد أو عربات الترايسكل، وهي دراجة عادية أو نارية بثلاثة دواليب مغطاة بكابينة للسائق وخلفه أريكة صغيرة تتسع لراكبين، يقودها الشباب، كوسيلة نقل بالأجرة صغيرة وسريعة، يمكنها أن توصلك إلى أي مكان.

وسط هذه الأجواء الساحرة، انطلقت رحلتي في هافانا تصحبني روح هيمنجواي، فحينما ترتاد الأماكن التي كان يجلس فيها أو تزور بيته، تشعر أنك قريب جسديًّا وروحيًّا منه، وهو شعور مماثل للإحساس الذي اعترى الكاتب الكولومبي جابريال جارثيا ماركيز الذي كتب بعدما زار منزله: «***نشعر أحيانًا أن الكاتب يمشي بخفيه الكبيرين بين الغرف***». تلك الروح التي أظن أنها زارتني في ثاني نهاراتي، عندما استيقظت في الخامسة صباحًا، وهاتف داخلي يدعوني لأن أغير خططي في ذلك اليوم، وأبدأ بزيارة غرفته في فندق «أمبوس موندوس»، وبالفعل انطلقت نحو هافانا القديمة، أسعى للاقتراب منه أكثر بعد زيارتي في اليوم السابق لحانة «لابوديجيتا دِل ميديو»، التي يرتبط اسمه بها. وهناك في تلك الغرفة التقينا أنا وشبح هيمنجواي أو طيفه وربما روحه، لا يهم.

لا أصدق بوجود الأشباح، لكن ربما الأمر يعود لتأثير رواية بعنوان «بيدرو بارامو»، للكاتب المكسيكي خوان رولفو، كنت قد انتهيت منها قبل أيام قليلة من رحلتي، كان فيها يحادث طيفًا أو شبحًا، أو ربما بغواية

فكرة أن شبح صاحب نوبل يقطن غرفته في الفندق؟ ليتخير زوارها ويتبين مدى اهتمامهم بالتعرف إليه والاقتراب منه، ليدعوهم لاحقًا إلى بيته في فينكا أو إلى حاناته المفضلة. شبح طيب، فالأشباح ليست بالضرورة شريرة تتصيد ضحاياها، ولكن هل الطيب منها يطلق عليه كلمة شبح أم يمكننا أن نسميه روحًا؟ لطالما آمنت بأن الروح تبحث عنا، فهي حرة طليقة، ترانا ولا نراها، لا تتلبسنا كما يعتقد البسطاء ولكنها تلهمنا.

وأظن أني التقيت روح هيمنجواي في أول مكان استقبله وارتبط به في كوبا، وهو هذا الفندق الذي قضى فيه أول لياليه في المدينة. في البداية ظننت أنه روحه شاهدتني في حانة «لا بوديجيتا»، بينما أتقصى آثاره، فجاءت إليَّ في نومي لتوقظني من دون سبب وتلهمني زيارة فندقه وتحدد لي مسار ذلك اليوم وما تلاه، بعد تأكده من جديتي في البحث عنه.

صراحةً؛ حتى تلك اللحظة التي استيقظت فيها من نومي لأسعى خلف هيمنجواي، لم أكن أنوي السير حرفيًّا على خطاه، فلم أَنْوِ إلا ما أفعله عادة في سفرياتي، أي أن أزور الأماكن التي عاش فيها أشهر المؤلفين أو الفنانين. ففي ملقا بجنوب إسبانيا، مسقط رأس بيكاسو، زرت البيت الذي وُلد فيه، وقبلها متحفه في باريس التي ذهبت فيها إلى شقة كان يسكنها فيكتور هوجو وأصبحت مزارًا ثقافيًّا. وفي براغ، شاهدت بيتًا صغيرًا عاش فيه كافكا ستة أشهر فقط، بعد أن هدم المنزل الذي ولد ونشأ فيه، والقائمة طويلة. فقد كنت دومًا

أكثر شغفًا واهتمامًا من السائح العادي، فمعظمهم يتوقفون لالتقاط الصور، لكن مَن منهم يبحث عن كاتب بصدق ويقتفي أثره؟! قليلون ربما، ومن بين هؤلاء القلة تلتقط روحه من يمكن أن يذكره في الصحف والمجلات ويعيد الكتابة عنه، صحفي شغوف يضعه في الصدارة مجددًا. لكن ألا تكفي كتب هؤلاء وإرثهم الأدبي لذلك؟ أم أن شخصية مثل هيمنجواي أو الأديب المولع بذاته، سيظل دومًا يبحث عن الشهرة والخلود، أوليست أعماله دليلًا على رغبته في الخلود؟ في ألا يُنسى؟ صحيح أن الكاتب يكتب ليساهم بشكل ما في تغيير الواقع أو العالم من حوله، والفنان يرسم ليسجل الجمال وربما يلقي الضوء على القبح أو يسعى النحَّات بتماثيله لتخليد لقطة ما، ولكن كل هؤلاء يحاولون بأدبهم وفنهم ترك بصمتهم أو أثرهم في هذا العالم، أثر خالد يعيد ذكره لأجيال جديدة.

كل هذه التساؤلات والأفكار شغلتني عندما بدأت البحث جديًّا بعد عودتي في كل ما يتعلق به، وتأملت الذي حدث لي يومها وفي الأيام التالية، حينما اتخذت قراري باقتفاء أثره، وعرفت أن روحه تدعم رغبتي في استعادة أثره، ولأكتب عنه وأعيد إحياء سيرته في عالمنا العربي.

لم أشعر في ذلك اليوم بوجوده، أو برفيقي كما آثرت أن أسميه أحيانًا، فأنا لا أعرف ماهيته، هل هو شبح أم روح، ولا أعرف إذا ما كان ثمة فارق بين روح وشبح من الأساس. لكنني كنت أتحرك استجابة لنداء غامض، جعلني أغير خططي كلها في لحظة، وقررت تتبع ذاك الهاتف الداخلي. وعندما عدت وبدأت في كتابة هذه السطور، وجدته إلى

جواري مجددًا يدلني على كتب ومقالات على الإنترنت، تكشف الكثير مما كنت أجهله عنه قبل سفري، فمثلما تخيلت روحه معي تصحبني في هافانا إلى الأماكن التي أحبها أو عاش فيها وارتادها، شعرت أنها كانت ترشدني إلى الكتب الكثيرة التي تناولت سيرته وأعماله، وإلى مقالاته ورواياته، وإلى مقاطع بذاتها منها، كأن روحه يسعدها كتابة هذه السطور باللغة العربية.

قد لا يكون هذا أول كتاب يحكي عن هيمنجواي، لكنه أول كتاب يقتفي أثره، إلى حد علمي، في البلد التي أحبها أكثر من غيرها، وهي في رأيي تستحق هذا الحب، بكل ما فيها؛ لأن هافانا مدينة متحررة، تشعر فيها بالحياة والحرية والحب، وبالرغم من مبانيها القديمة المتهدمة، وآثار الفقر الواضح على أهلها إلا أنها بلاد تحب الحياة وتعيشها.

وطالما كنت أُشبِّه المدن بالنساء، لذا أرى هافانا امرأة مغوية، توقعك في أسرها من اللحظة الأولى بروحها الساحرة، التي تستشعرها في كل شيء حولك، ثم تفتح لك أبوابها رويدًا رويدًا لتكتشفها بهدوء وتسبر أغوارها حتى تصل إلى أجمل مفاتنها، وهذا ما فعلته معي، ومع عزيزي هيمنجواي، فمشاهداتي الأولى للمدينة لم تكشفها لي كأيامي التالية بصحبة الروائي الأمريكي. وهو أيضًا، ربما لم تسحره موسيقاها مثلي في زيارته الأولى في عام ١٩٢٨، لكنه بمجرد أن أستنشق هواءها الذي يمزج بين رائحة البحر وثمار فاكهتها الاستوائية، وقع في هواها، وكرجل محب للنساء المغويات والمدن «المغويات» أيضًا، عاد إليها وحده من دون توابع تثقله أو تشغله عن حب الفاتنة هافانا.

لكن لماذا أتاني رفيقي في ثاني صباحاتي في المدينة الفاتنة وليس في اليوم السابق عندما كنت أزور أول مكان يرتبط باسمه؟ ولماذا تغيرت كل الخطط في ثاني نهار أقضيه فيها؟ تساؤلات كثيرة ظلت خلال مراحل تدوين تفاصيل الرحلة تتكشف إجاباتها في كل سر يكشفه لي صاحب «العجوز والبحر» بدءًا من حكايته مع حانة لابوديجيتا.

❊ ❊ ❊

القسم الثاني
في أثر هيمنجواي

أسطورة لا بوديجيتا

تشتهر المقاهي بأنها المكان المفضل لتجمع لأدباء والفنانين، ويمكنك أن تتقصى آثار الحياة الثقافية لأيِّ مدينة من خلال المقاهي المفضلة لأشهر كتابها، فلكل كاتب مقهى، يقرأ ويكتب فيه، أو يلتقي فيه أصدقاءَهُ، لكن هيمنجواي الذي كان يفضل العزلة، والكتابة في الصباح الباكر، اعتبر الحانة المكان الأمثل للتواصل مع العالم. ولتقترب من هيمنجواي وتتعرف على أحد جوانب شخصيته عليك أن تبحث عنه في الحانات التي كان يرتادها، ويحكي عنها في كتاباته، سواء مقالاته الصحفية، أو رواياته أو حتى رسائله. وفي هافانا التي ارتبط بها نصف عمره تقريبًا، منذ زارها لأول مرة في عمر الثلاثين وحتى رحل عنها في الستين، ستجد آثاره وصوره في كثير من حاناتها أو مطاعمها، التي كانت خلال سنوات إقامته وحيدًا في فندق هي المكان الذي يتناول فيه غداءه أو عشاءه ويلتقي أصدقاءَهُ.

وارتباط هيمنجواي بالحانة لا يعني أنه كان سكيرًا بالمعنى الشائع، بل المعروف عنه امتلاك ذائقة خاصة في المشروبات الكحولية وأنواعها، ويصفها في أعماله بأسلوبه الأدبي المميز. وهذا جانب من

شخصيته المولعة بالتجربة والمليئة بالحيوية، وجانب من الثقافة الغربية أيضًا. والحانة أيضًا هي مسرح مهم في أحداث قصصه أو رواياته، ففي «أن تملك وألا تملك» (١٩٣٧)، التي تتناول تهريب الخمور في فترة الحظر الكحولي في أمريكا، يدور قسط كبير منها في حانة فريدي. لذا تشغل الحانات والمطاعم مساحة كبيرة في هذا الكتاب، لوجود خمس منها اقترنت باسمه في الجزيرة الكاريبية، اقتفيت آثاره فيها وبحثت عنها في حياته وأعماله. وليس القصد هنا الإشارة إلى جانب يستهدف رؤية السكير في شخصية هيمنجواي، فهذا أمر شائع في الغرب عمومًا، لكن الأمر بالنسبة له كان ارتباطًا بالأماكن، وبمن يترددون عليها معه، وما يعنيني هنا هو تلمس جوانب شخصيته، خصوصًا أنه كان لديه مكانه الخاص الذي يكتب فيه بانتظام، سواء غرفته في الفندق أو بيته، ولم يعد يتردد على المقاهي والحانات من أجل إيجاد أماكن مناسبة للكتابة كما كان شأنه في باريس. مع الأخذ في الاعتبار أن أغلب هذه الأماكن كانت ملهمة لكتابته بشكل ما، إما من خلال أشخاص التقاهم بها، وإما بالإشارة للحانة أو المطعم نفسه في بعض أعماله الشهيرة.

في أول نهاراتي في هافانا، بدأت بأشهر الحانات التي ارتبط اسمها بهيمنجواي، وهي «لابوديجيتا دِل ميديو»، فإذا بحثت بالإنجليزية عن أشهر الأماكن التي كان الكاتب الأمريكي يتردد عليها في هافانا، سيقفز لك اسمان «لابوديجيتا دِل ميديو» و«فلوريديتا»، وتربطهما جملة شهيرة منسوبة إليه يقول فيها:

«***أشرب الموهيتو[٣٥] في لابوديجيتا والدايكيري في فلوريديتا***».

(***My Mojito in La Bodeguita.. My Daiquiri in El Floridita***).

والمشروبان يدخل في تكوينهما الأساسي الرُّم، المشروب الكحولي الذي تشتهر به كوبا عالميًّا.

تتوسط حانة لابوديجيتا شارعًا متفرعًا من ساحة الكاتدرائية (بلاثا دي لا كاتيدرال)، لتتخذ اسمها من موقعها، فكلمة «لابوديجا» بالإسبانية تشير إلى محل بيع النبيذ والمشروبات الكحولية[٣٦]، وكعادة الكوبيين في تدليل الأسماء بتصغيرها، أطلقوا عليها «لابوديجيتا دل ميديو»، ويقصد بها حانة منتصف الشارع، وسرعان ما أصبح ذلك اسمها الرسمي. ما إن يخطو المار أولى خطواته في بداية الشارع حتى تتناهى إلى سمعه الموسيقى الصاخبة التي تعد بمثابة الإشارة أو اللافتات غير المرئية الدالة على الحانة التي سرعان ما تلمح أمامها زحامًا غير عاديٍّ، عشرات السياح يمسكون في أيديهم كؤوس الموهيتو ويلتقطون الصور أمام المكان الشهير.

ومثل أماكن شهيرة في العالم ستخدعك لا بوديجيتا بالتناقض بين ذيوع شهرتها بشكل لا نظير له، لتفاجئك مساحتها الصغيرة التي لا تزيد عن نحو عشرة أمتار طولًا وعرضًا، ومع توافد مئات بل آلاف

(٣٥) تكتب الكلمة بحرف J الذي ينطق خ في الإسبانية، لكن باللهجة الكوبية تنطق هاء، فيكتب موخيتو وينطق موهيتو.

(٣٦) تعني كلمة بوديجا بالإسبانية القبو، وتشير عادة إلى محل بيع النبيذ والخمور، وفي الولايات المتحدة تشير إلى متجر لبيع الخمور وتقديم الوجبات الخفيفة.

السياح يوميًّا، لا يجد البعض سوى الشارع للاستمتاع بالمشروب والموسيقى.

تتكون الحانة من مشرب مواجه للمدخل من جهة اليسار ويحتل ضلعين من مساحتها شبه المربعة، تتراص أمامه المقاعد الدائرية المرتفعة، التي لا يمكن أن يجد زائر المكان أيًّا منها خاليًا، ومقابله إلى يمين المدخل، تعزف فرقة موسيقية صغيرة، أمام نافذة خشبية تطل على الشارع. وفي المنتصف يصطف الزبائن للحصول على مشروبهم أو لالتقاط الصور في المكان. مررت بصعوبة بينهم حتى وصلت لبقعة قريبة من المشرب، ووقفت أتأمل الساقي وهو يصنع بكل حماس وبالدقة ذاتها، عشرات من كؤوس الموهيتو، حيث يوجد أمامه صف أفقي من الأكواب الطويلة التي تحوي عصير الليمون المركز وأوراق النعناع الطازج، يعدها مساعده الواقف إلى جواره.

وهكذا رحت أتابع الساقي، واسمه أرتورو، كما لمحته مدونًا على قميصه، بملامحه الجادة ورأسه الأصلع الخالي من الشعر تمامًا، وهو يقوم بسحق النعناع أولًا في الكأس بمقبض خشبي ثم يضع الرُّم من قنينته مباشرة من دون كوب قياس. رافعًا الزجاجة لأعلى، يصب بحرفية في الكوب الأول ثم الثاني والثالث والرابع وهكذا حتى ينتهي من صف الأكواب، وتمتلئ جميعها بالتساوي ثم يبدأ في إضافة قطع الثلج وهكذا تصبح كأس الموهيتو معدةً ليسلمها إلى الزبون الواقف أمامه والذي يدفع الثمن نقدًا. وخلف المشرب، تتراص على الرفوف الخشبية عشرات الزجاجات من الرُّم الكوبي الشهير «هافانا كلوب» وعدد قليل

من المشروبات الكحولية الأخرى، لكن الرُّم هو بطل المشهد.

كان المكان مزدحمًا للغاية، فلم تتح لي فرصة الاقتراب من الساقي لأتحدث معه عن هيمنجواي كما كنت آمل، ودفعتني الجموع المتكدسة للخلف لأجدني إلى جوار الفرقة الموسيقية، فاغتنمت الفرصة لأتأمل تفاصيل المكان والاستمتاع بالموسيقى. كنت أقف أمام خزانة خشبية بواجهة زجاجية، تحوي تذكارات متنوعة، قبعة وميدالية وعددًا من الصور لم أتبين أصحابها، وأعلاها على الجدار ذاته إطارات تضم جملًا بخط اليد وصورًا للمشاهير الذين زاروا المكان. و إلى جوارها في الزاوية دُوِّنَ اسم المكان (لابوديجيتا دِل م) بخط كبير، وفي أسفل الاسم مجموعة من الصور واللوحات بينها صورة مرسومة لهيمنجواي، وأخرى فوتوغرافية وهو يصافح فيديل كاسترو، ولوحتان لشخص آخر فيما يبدو أنه صاحب الحانة. أما الجدار الملاصق، أعلى المشرب، فقد عُلقت عليه لوحة نحاسية دائرية تصور هيمنجواي بالحفر البارز، وتحتها بالإسبانية تقرأ «بار ومطعم لابوديجيتا دل ميديو، أسسه أنخيل مارتينيث في...»، وقد تلاشى التاريخ المكتوب بفعل الزمن. وإلى جوار الدائرة النحاسية، الجملة الشهيرة المنسوبة لهيمنجواي مكتوبة بخط اليد وممهورة بتوقيعه في إطار خشبي أنيق.

في تلك اللحظة، خلا مقعد قريب، فأسرعت إليه، كي أجلس في الزاوية المقابلة للفرقة وإلى جواري مساعد الساقي وخلفه كوة تصل إلى المطبخ أو المطعم في الداخل كما اكتشفت لاحقًا. كان السياح الواقفون في المنتصف يتمايلون على أنغام أغنيات كوبية تعزفها الفرقة،

وأشهرها «جوانتانامیرا» وهي من أشعار المناضل الكوبي خوسيه مارتي، وتعني الفتاة من جوانتانامو. مثل معظم الفرق الموسيقية الصغيرة التي لمحتها في مطاعم وحانات هافانا، كان هناك خمسة عازفين، الأول يعزف على آلة الكونترباص الضخمة، واثنان على الجيتار، والرابع على البونغو وهي آلة إيقاع مزدوجة مكونة من طبلتين صغيرتين، والخامس هو المغني الذي يصاحب الآلات الأخرى بالإيقاع، حيث يقوم بالتبديل بين آلات متنوعة، فتارة يمسك بزوج من المراكاس (الخشخيشة)، أو قطعة خشب أسطوانية ذات خطوط بارزة يضرب عليها بعصا صغيرة وتسمى جويرو، ومعظم تلك الآلات الإيقاعية أفريقية الأصل جاءت مع العبيد الذين جلبهم الإسبان إلى الجزيرة للعمل في حقول قصب السكر.

توقفت الموسيقى ففكرت في الاقتراب من الساقي لأتحدث معه عن هيمنجواي، في طريقي إليه، اعترضني أحد العازفين يجول بين الزبائن ليجمع النقود، فأنت في كوبا تستمتع إلى الموسيقى الحية لكن عليك أن تدفع إكرامية مقابلها، هكذا يحصلون على أجورهم، حييته على موسيقاهم ووضعت في السلة التي يحملها حفنة نقود قد تكون ٢ أو ٣ كوك[٣٧]، فابتسم وعاد ليخبر زملاءَهُ فتلقيت منهم تحية خاصة بالتصفيق على آلاتهم، لكنها أضاعت فرصتي للحديث مع الساقي. بعدما عادت الفرقة لاستكمال عزفها وانشغل أرتورو بصناعة المزيد

(٣٧) كوك (CUC) تعني البيزو الكوبي القابل للتحويل Cuban Convertible Peso، وهي العملة المسموحة للسياح، فكل ١ دولار يعادل ١ كوك، وكل ١ كوك يعادل ٢٥ بيزو كوبيًّا محليًّا يستخدمه المواطنون. وفي يناير ٢٠٢١ ألغي التداول بها وتم توحيد العملة والتعامل بالبيزو الكوبي فقط.

من كؤوس الموهيتو، التي بمجرد أن يفرغ صف منها، يختفي من أمامه ويضيع في أيدي السياح، ليعاجله مساعده بصف جديد من الأكواب المعدة مسبقًا بالنعناع وعصير الليمون المركز.

تساءلت هل كانت الحانة بهذا الشكل في زمن تردد هيمنجواي إليها، فقد بدت بجدرانها الزرقاء، عتيقة، محتفظة بروح عصر آخر. تجولت بعينيَّ في المكان وحاولت البحث عن الركن المفضل له، نظرت للمقعد الذي كنت أجلس عليه في الزاوية فقلت لنفسي ربما كان هذا مكانه عندما يأتي ظهرًا، ولا تكون الحانة مزدحمة مثلما رأيتها. لكنني عندما أستعيد تلك اللحظات لا أتذكر حقيقة أنني لمست فيها أثره أو شعرت بطيفه.

قرصني الجوع والساعة تقترب من الثالثة عصرًا، فقررت البحث عن مكان لأتناول الغداء والعودة في وقت آخر. في طريقي إلى الخارج لاحظت وجود ممر ملاصق للمدخل الذي دخلت منه، لأكتشف أنه يؤدي إلى مطعم بالداخل تابع للحانة، فكانت فرصة لأسكت العصافير التي تزقزق في بطني واستكشافه أيضًا، ربما رأيت صور صاحبي فيه وتعرفت على طاولته، فقد بدت الحانة الصغيرة لا تناسب شخصيته كرجل يحب البذخ والأماكن الفخمة. صعدت درجتين أو ثلاثًا لأجد على يميني ممرًّا طويلًا في نهايته يقع المطبخ، وإلى اليسار مدخل يفضي إلى قاعتين صغيرتين مفتوحتين على بعضها، وتمتد في أرجائهما عدد من الطاولات الخشبية، وفي الجانب الأيسر من المدخل سلم خشبي يصل إلى قاعة علوية للمطعم. اخترت طاولة أسفل السلم وجلست

أتأمل طراز المطعم البسيط والحافل في آن واحد. فقد كانت حوائطه الزرقاء تمتلئ جميعها بجمل مكتوبة بخط اليد وتوقيعات تركها زوار المكان من السياح والمشاهير، كل شبر منها مزين بكتابات ورسومات، قلوب المحبين وأسمائهم وصور لنجوم عالميين وشخصيات شهيرة في مجالات متعددة. حتى الطاولات لم تَخْلُ ممن أرادوا ترك أثرهم في المكان، كل طاولة فرشت عليها ورقة عريضة تحوي قائمة الطعام تتصدرها صورة مرسومة لهيمنجواي أسفلها عبارته الشهيرة مع توقيعه وإلى جوارها وصفة الموهيتو.

اقترب نادل أسمر عجوز ليدون طلبي، فانتهزت الفرصة وسألته عن كل هذه التوقيعات وأصحابها وعن صاحب نوبل، اعتلت وجهه ملامح الفخر والحبور وهو يقول فيديل كاسترو وسلفادور اللينيدي حاكم تشيلي السابق وقعوا على هذا الحائط هناك، ونجم البلوز الأمريكي نات كينغ كول أيضًا وغيرهم كثيرون، ثم أضاف: «إذا أردتِ أن تتركي توقيعكِ سأحضر لكِ قلمًا»، شكرته وسألته: «هل رأى هيمنجواي يومًا؟». فأجابني: «الكاتب الشهير كان يأتي إلى لابوديجيتا منذ أكثر من ٧٠ عامًا أي قبل أن أُولد». واستكمل أنه عمل في المطعم منذ شبابه ولحق ببعض من عاصروا الكاتب الأمريكي، كانوا يروون عنه حكايات كثيرة. بدت كلمات النادل العجوز كأنه يريد أن يرضي بها فضول سائحة جاءت تبحث عن سيرة شخصية عالمية، لكنها لا تقدم معلومة حقيقية.

خلال بحثي عن تاريخ لابوديجيتا بعد عودتي، عرفت أنه تأسس في عام ١٩٤٢، أي لم يكن موجودًا وقت إقامة هيمنجواي في فندق «أمبوس موندوس» في الثلاثينيات، ثم اكتشفت أكذوبة الجملة المعلقة على حائط لا بوديجيتا، والتي تجلب إليه آلاف السياح وتقول «***أشرب الموهيتو في لابوديجيتا والدايكيري في فلوريديتا***»، لدرجة أن حانة فلوريديتا التي ارتبطت به بالفعل تضع هذه العبارة أعلى واجهتها الخارجية.

أما كيف نُسبت هذه المقولة إلى هيمنجواي وحكايتها، فالأمر يعود إلى مالك لابوديجيتا أنخيل مارتينيث والصحفي فرناندو كامبوامور الذي كان صديقًا للكاتب الأمريكي. فحينما اشترى مارتينيث المكان، وكان مطعمًا صغيرًا يسمى آنذاك «لا كومبلاثينتي» ويقع في منتصف شارع إمبدرادو، حوله إلى بوديجا لبيع الوجبات الخفيفة والنبيذ، وأطلق عليه اسم «كازا مارتينيث». وصار المكان الملتقى المفضل لمجموعة من المثقفين وبعض مَن يعملون في الطباعة في المنطقة المحيطة، واشتهر بينهم باسم لابوديجيتا دل ميديو، باعتباره الحانة التي تقع في منتصف الشارع، وقرر مارتينيث تسميته «لابوديجيتا دِل م» إشارة إلى أول حرف من اسمه وأيضًا انطلاقًا من مسماه الشائع بين رواده. وحقق المكان شهرة واسعة وأضيف له مطعم خلف الحانة الصغيرة. وفي أحد الأيام كان مارتينيث وزوجته يجلسان مع الصحفي كامبوامبور ومجموعة من الأصدقاء يبحثون في كيفية الدعاية للمكان، فقال أحدهم تلك الجملة. ولما كان كامبوامور مقربًا من هيمنجواي ويملك رسائل وأوراقًا كثيرة بخط يده، أعطاها لخطاط ماهر، قلد خط الكاتب الشهير وتوقيعه، وقام

مارتينيث بوضع اللوحة في إطار وتعليقه والترويج لحانته ومطعمه على أن الروائي الأمريكي كان من روادها[٣٨].

وقد روى ماريتينيث في أكثر من لقاء صحفي، حقيقة علاقته بالكاتب الأمريكي، موضحًا أن هيمنجواي زار لابوديجيتا مرة وحيدة من باب المجاملة، حين كان يحتاج نوعًا من الويسكي يفضله صديقه النجم الهوليوودي إيرون فلين الذي كان يقيم لديه في بيته، وعرف أن مارتينيث يستورده من الولايات المتحدة، فطلب منه زجاجة، وزاره بعدها ليشكره ثم التقيا مرات قليلة بعد هذا، لكنه لم يكن من رواد الحانة كما هو شائع[٣٩].

وبالرغم من تلك الأكذوبة التي صارت أسطورة بعد تكرارها وتزييف جملة هيمنجواي وتوقيعه بصورة متقنة كأنه كتبها بالفعل، حقق لابوديجيتا شهرة واسعة، وصار المحل المفضل لكثير من النجوم والمشاهير ونذكر منهم الشاعر الكوبي نيكولاس غيين الذي توجد لافتة على الحائط أعلى طاولته التي اعتاد الجلوس فيها، كما توجد توقيعات لمشاهير مثل الشاعر التشيلي بابلو نيرودا الحائز على نوبل وزميله جابرييل غيسترال والنجمة مارلين ديتريتش وحتى بابا الفاتيكان فرانسيس الثاني أيضًا، جاء معظمهم مثلي بحثًا عن آثار الأديب العالمي، ويقال إن فيديل كاسترو ذاته كان يزور المطعم ويتناول فيه طعامه.

---

(٣٨) فيليب جرين، «أن تحصل على واحد وعلى آخر- رفيق كوكتيل هيمنجواي».

(٣٩) وردت هذه الحكاية أيضًا في حوارات متعددة لمارتينيث باللغة الإسبانية وفي كتاب «هيمنجواي في كوبا» للكاتب الكوبي نوربيرتو فوينتس.

انتهيت من غدائي وقررت الذهاب إلى ثاني الأماكن المرتبطة بهيمنجواي في لائحتي وهو فندق «أمبوس موندوس»، الواقع قريبًا من «لابوديجيتا». تركت خلفي الحانة المزدحمة وسرت يمينًا في شارع إمبدرادو حتى وصلت ساحة الكاتدرائية، وهي أقدم الكاتدرائيات في كوبا وبناها الإسبان عند تأسيسهم للمدينة، ثم اتجهت يمينًا مرة أخرى لأعبر الساحة باتجاه شارع أوبيسبو، مرورًا بشارعي سان إجناثيو وأوريللي.

يتخذ الفندق موقعًا على زاوية شارعي أوبيسبو وسان إجناثيو، أما بابه الرئيس فعلى بعد خطوات في شارع أوبيسبو. عندما وصلت كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساء، وأبلغني موظف الاستقبال أن الغرفة تفتح للزوار من التاسعة صباحًا وحتى الخامسة.

تأملت البهو الواسع، حيث يلاصق طاولة الاستقبال، مكونًا زاوية قائمة، مشرب طويل تتناثر أمامه عدة طاولات يجلس عليها ضيوف الفندق يطلون على الشارع عبر نوافذه الزجاجية الكبيرة. وفي المدخل أمام الباب، رأيت سلم الفندق وبجواره المصعد بطرازه القديم يبدو كصندوق من الأعمدة الحديدية المتجاورة. وخلفه تتوزع بعض المقاعد والأرائك الوثيرة في الأرجاء، وفي نهايتها على الحائط صور هيمنجواي، مجموعة سأشاهدها كثيرًا في هافانا في الأيام التالية، تتنوع في أحجامها والمراحل العمرية لصاحبها، ففيها صورته وهو يصافح فيديل كاسترو وأخرى وهو يحمل كأس مسابقة الصيد التي تحمل اسمه، وصورة كبيرة له مع زوجته ماري ويلش وأخرى له مع أصدقائه

في فلوريديتا، ثم غيرها وهو يجلس في شرفة منزله، أو في قاربه «بيلار»، وصورة لقائد القارب جريجوريو فوينتس، وأسفلها جميعًا توقيعه داخل لوحة بإطار خشبي. قررت العودة لاحقًا وفي طريقي إلى الباب لمحت صوره مجددًا على الحائط المجاور للمدخل. كان عددها تسعًا، أولها صورة كبيرة له في شبابه وبجانبها مجموعتان أصغر متساويتان في الحجم والعدد، تصوره في مراحل عمرية مختلفة، واحدة بلحيته البيضاء، وثانية يقف فيها إلى جوار سمكة ضخمة، وأخرى في شبابه مع زوجته الثانية بولين، ورابعة يظهر فيها وهو يطل من نافذة غرفته في الفندق.

وبعد أن اتضح لي أن الموهيتو في لابوديجيتا لا علاقة له بالروائي الأمريكي، تأكدت بعد عودتي أنني لم ألتقِ بروحه أو شبحه هناك، لكن وجوده في فندق «أمبوس موندوس» في الغرفة ٥١١ هو حقيقة مؤكدة لا شك فيها. ولأنَّ أرواح الموتى عادة تبقى أو تتجول في الأماكن التي سكنها أصحابها، كنت في تلك اللحظة أقترب كثيرًا من هيمنجواي وربما كان هو الذي اقترب مني حينها.

❊ ❊ ❊

أمبوس موندوس.. بين عالمين

استيقظت صباح ثاني نهاراتي في هافانا، أفكر في صاحب «العجوز والبحر»، أمر يحدث كثيرًا، أن أصحو في منتصف نومي لأدون جملًا تتردد في رأسي عن تغطية صحفية أكتبها، وأحيانًا تأملات أخرى لا أجد مساحة لمشاركتها سوى مواقع التواصل الاجتماعي خصوصًا «فيسبوك». أمسكت مفكرتي الصغيرة التي أضعها بجواري وشرعت في كتابتها وأحضرت مقالات من حقيبة يدي، كنت قد طبعتها قبل سفري، عن أماكنه المفضلة في هافانا، لأعيد قراءتها.

لا أعرف لماذا قمت من نومي وهو يسيطر على تفكيري، فهل كنت أحلم به مثلًا وهو مَن أيقظني، عادة أتذكر ما أراه في منامي، مع ذلك لا يمكنني استرجاع ما رأيته ليلتها. فهل زارني في أحلامي مرتديًا بنطلونه القصير بينما نصفه العلوي عارٍ إلا من زغب شعر صدره الأبيض، كما تشاهده في صوره، ممسكًا بكتاب أو بالكأس في يده ويجلس على كرسيه الأبيض في شرفة بيته يدعوني لزيارته.

كنت أنوي في ذلك اليوم استكمال جولتي في وسط المدينة لأتعرف أكثر إلى هافانا، وأزور أهم متاحفها ومصنع السيجار الشهير بارتاجاس، وأجلت زيارة بيت هيمنجواي الواقع في أحد ضواحيها وبقية المزارات المرتبطة به ليوم آخر، بل اتفقت مع صاحب الشقة التي أسكنها، أن يرسل لي سيارة لتصحبني إلى فينكا. وبالرغم من نومي متأخرةً في الليلة السابقة، صحوت في الخامسة صباحًا، مشغولة به، فأعددت قهوتي وجلست في الشرفة أتنسم هواءها البارد القادم من جهة الماليكون في أحد صباحات أواخر فبراير، أمسكت إحدى المقالات التي طبعتها قبل سفري لأعيد قراءتها خلال الرحلة، وكانت حول فندق «أمبوس موندوس»، ويعني بالإسبانية «كلا العالمين» في إشارة إلى العالم القديم (أوروبا وآسيا وأفريقيا) والعالم الجديد (الأمريكتين). وتأسس في عام ١٩٢٤ أي قبل أربع سنوات من زيارة هيمنجواي الأولى لكوبا، وكان في ذلك الوقت واحدًا من أفخم وأرقى فنادق العاصمة القديمة. كانت المقالة تتحدث عن غرفته رقم ٥١١، وكيف حولتها إدارة الفندق إلى متحف مصغر يخلد ذكرى إقامة الكاتب الأمريكي فيها. ورغم أن الغرفة لا تفتح للزيارة قبل التاسعة صباحًا، كما أبلغوني في اليوم السابق، قررت الذهاب مبكرًا لأكون أول مَن يدخلها قبل أي سائح آخر، لأحظى بزيارة منفردة لها وبوقت خاص مع صاحبها، فلم أكن أرغب في تكرار ما حدث معي في لابوديجيتا، وهذا ما حدث بالفعل.

وصلت الفندق في الثامنة إلا الربع، وسألت في مكتب الاستقبال عن كيفية الصعود إليها، فطلبوا مني الانتظار حتى يحين موعد فتح

الغرفة للجمهور، حينها قررت استخدام المفتاح السحري وهو عملي بالصحافة، وشرحت لهم أنني صحفية مصرية أكتب مقالًا عن هيمنجواي، وأعترف أنني حتى تلك اللحظة لم أكن أنوي الكتابة عن رحلتي، وكانت زياراتي لكل ما يتعلق به، إرضاءً لفضولي كقارئة له قبل أن تكون مهمة عمل، ولكنني أعرف أن الصحافة هي السلطة الرابعة والكلمة التي تفتح الكثير من الأبواب حتى في هافانا. وبالفعل تم الاتصال بالموظفة المسؤولة عن الغرفة التي جاءت لتصحبني بعد أن دفعت قيمة تذكرة الزيارة وهي ٥ كوك. صعدت مع السيدة الشقراء في المصعد القديم الذي يعمل منذ بناء الفندق في العشرينيات، فكل شيء في كوبا قديم لكن تتم صيانته ليحافظ على شكله وجودة أدائه.

وصلنا إلى الطابق الخامس، وفي الحائط المواجه للمصعد، تقرأ بالإسبانية (في هذه الغرفة أقام الروائي إرنست هيمنجواي خلال عقد الثلاثينيات)، كُتبت الجملة على لوحة خشبية، تحتها نحت بارز لوجهه ولحيته الشهيرة، وإلى جوارهما صورة أخرى له مع إحدى قططه، ثم مستطيل خشبي كبير، يضم صورته وهو يكتب على طاولة ممسكًا بالقلم في يده، وأسفلها ثُبتت آلة كاتبة حقيقية على القطعة الخشبية ذاتها. وفي الزاوية أقصى اليمين تقع الغرفة ٥١١ التي دُوِّنَ رقمها على مربع صغير من الخشب، وُضع إلى يسار الباب.

كانت الموظفة الشقراء واسمها إسبيرانثا التي تعني بالإسبانية أمل، تتحدث عن صاحب الغرفة عند وصوله لأول مرة إلى ميناء هافانا، وكنت وحدي معها ولم يكن أحدٌ غيري، كأن الدعوة لهذه الزيارة

جاءتني من صاحب الغرفة لتمنحني أملًا جديدًا في تحقيق حلم قديم بالكتابة عن رحلاتي. في تلك اللحظة، وهي تفتح الباب، هبت نسمة باردة من النافذة المفتوحة باتجاه الميناء، فهل كانت روحه ترحب بي في «كلا العالمين»؟!

أمام الباب تقع خزانة الملابس، لكنني لم أنتبه لوجودها إلا لاحقًا، فقد اتجهنا مباشرة إلى داخل الغرفة، كما أنني كنت مأخوذة بفكرة أنني أقف في حضرة المكان الذي قضى فيه الكاتب الأمريكي نحو سبع سنوات غير متصلة. تملكني شعور يجمع بين السعادة والرهبة، والرغبة في التشبع كلية بما أعيشه، ثم غمرني ضوء النوافذ الثلاث الكبيرة المفتوحة وأشعة الشمس التي تملأ المكان، حينها أدركت أن هناك شيئًا ما اختلف في رحلتي، وقررت أن أسجل بهاتفي كل ما تقوله إسبيرانثا بالإسبانية ليكون نواة مقال عن هيمنجواي في كوبا، وبدأت في التقاط الصور.

تحوي الغرفة ثلاث نوافذ، واحدة إلى اليمين واثنتين في المواجهة، أما ناحية اليسار فيوجد السرير والحمام. وقفنا إلى يمين المدخل بجوار خزانة زجاجية تضم أرففها مؤلفات هيمنجواي جميعها تقريبًا، «العجوز والبحر»، «ثلوج كليمنجارو»، «عبر النهر ونحو الأشجار»، «الموت بعد الظهر»، «أن تملك وألا تملك»، ومجموعتين من القصص القصيرة وغيرها. واللافت أن نسخ الكتب المتوفرة كلها تبدو قديمة، ربما من الطبعات الأولى لأعماله، وبلغات متنوعة من بينها الروسية والفنلندية. وأعلى الخزانة، استقر نموذج مصغر دقيق الصنع لقاربه «بيلار».

تحدثت إسبيرانثا عن كيفية عثوره على هذا الفندق بالمصادفة خلال زيارته الأولى في عام ١٩٢٨، حيث كان يتجول في المدينة القديمة ونال إعجابه؛ لأن غرفه تطل على المدينة القديمة والميناء معًا. وعندما عاود زياراته إلى كوبا بعدها بأربع سنوات، كان دائمًا يقيم في تلك الغرفة التي تحوي أفضل إطلالة. وفيها كتب أجزاء من ثلاثة كتب، هي «الموت بعد الظهر» و«تلال أفريقيا الخضراء» و«أن تملك وألا تملك»، وذلك خلال سنوات الثلاثينيات وحتى انتقاله إلى فينكا بيهيا. وأضافت أن أغراضه الشخصية المعروضة في الغرفة تمت استعارتها من بيته هناك، من بينها الآلة الكاتبة والملابس الموجودة في الخزانة واللوحات التي تزين جدران الغرفة، وهي نسخ غير أصلية من مقتنياته الفنية، التي ضمت أعمال الفنانين خوان ميروه وبابلو بيكاسو وخوان جريس وأندريه ماسون وبول كلي، وقد اصطحبت أرملته ماري ويلش معظمها إلى الولايات المتحدة، وأبقت في فينكا عددًا قليلًا من اللوحات الأصلية من بينها رسم على السيراميك لبيكاسو، إضافة إلى أربعة من أعمال روبيرتو دومينجو، ولوحة للرسام الهولندي راؤول هينكس، وأخرى للفنزويلي لوبيز ميندیث[٤٠].

أوضحت إسبيرانثا أن الفندق في كل عام يختار جانبًا من جوانب حياة هيمنجواي، لتسليط الضوء عليه، ففي العام السابق كانت هناك مجموعة مرتبطة بفوزه بجائزة نوبل، وهذا العام تم اختيار جزء من مجموعته الفنية، مضيفة أن اللوحات المعروضة على حوائط الغرفة،

(٤٠) سيرد ذكر تلك اللوحات بصورة مفصلة في الفصل الذي يصف بيته.

وهي متفاوتة الأحجام، جميعها تنتمي للمدرسة الانطباعية (التأثيرية) التي كان الروائي الأمريكي معجبًا بأعمال فنانيها، وكتب في إحدى مقالاته أن تلك الحركة كان لها تأثير كبير على كتاباته. وقد كانت هذه اللوحات جميعًا تزين جدران ملحق الضيوف في فينكا لكن بسبب خضوع الملحق حاليًا لبعض أعمال الترميم، فقد تم نقلها إلى الفندق لتعرض فيه خلال هذه الفترة.

يلي الخزانة على اليمين مكتب صغير أمامه كرسي خشبي بظهر من لحاء القصب المجدول، بجواره نافذة كبيرة صممت لتبدو كأنها شرفة، فهي بارتفاع الحائط، الجزء العلوي منها نافذة والسفلي هو حاجز قصير على هيئة قضبان أسطوانية. وتطل النافذة على ساحة الأسلحة (بلاثا دي أرماس)، حيث يظهر من بعيد خليج هافانا وضفته الأخرى وهي شبه جزيرة كازابلانكا بتلالها الخضراء.

تتوسط الغرفة طاولة متوسطة الحجم، تستقر عليها آلة كاتبة عتيقة محفوظة في صندوق زجاجي. وأمام الطاولة كرسي بظهر ومقعدة من لحاء القصب المجدول، والمعروف أن هيمنجواي كان يكتب واقفًا لأنه لا يستطيع الجلوس طويلًا نتيجة لإصابته في ساقه خلال الحرب العالمية الأولى، كما ذكرت إسبيرانثا وهي تلفت نظري لساق الطاولة الحلزونية الشكل، التي تتيح له التحكم في ارتفاع الطاولة لتتناسب مع طوله أو مع رغبته في الكتابة جالسًا أو واقفًا. كانت الآلة الكاتبة تحوي ورقة طُبع نصفها كأنها تنتظر صاحبها لكي يكمل الكتابة، فقد حرص الفندق على أن يمنح زوار المكان فرصة أن يعيشوا داخل عالم كاتبهم المفضل.

لاحظت بعد عودتي عند تكبير إحدى الصور التي التقطتُها، أن الكلمات المطبوعة في الورقة التي يخرج نصفها من الآلة الكاتبة، كتبت عنه وليست من كتاباته. كانت باللغة الإسبانية، ترجمة لجزء من حواره مع جورج بليمبتون المنشور في دورية باريس ريفيو، العدد ١٨، ربيع ١٩٥٨، وبجوار الآلة الكاتبة ورقة مطبوعة لغلاف ذلك العدد يجعلك تظن للوهلة الأولى أنها الدورية ذاتها.

على يمين الطاولة، وفي الجدار الواقع بين النافذة الأولى والنافذتين الأُخريين، توجد خزانة من الخشب البني الداكن عليها تمثال لوجه هيمنجواي وصورتان له في إطارين ذهبيين، لم تكن صوره في الفندق لكنها من بيته في فينكا بيهيا كما أوضحت لي إسبيرانثا عندما سألتها.

أعلى الصور، على الجدار مرآة تعكس السرير المواجه لها، ويقع في الجانب الأيسر من الغرفة، وقد وضع أمامه حبل من المخمل الأحمر، يحجز الدخول أو الاقتراب. يغطي السرير مفرش باللون البرتقالي الباهت يتوسطه عدد قديم من مجلة «باري ماتش» الفرنسية، على غلافها صورة هيمنجواي، وبجانبها دفتر بغلاف من الجلد البني المتهالك دونت عليه بالإسبانية «العجوز والبحر» فيما يوحي بأنها مخطوطة الرواية، وأسفلهما صفحات مطبوعة للموضوع المنشور عن هيمنجواي داخل المجلة، فيها صورته جالسًا وخلفه لوحة مرسومة له في شبابه، تظهره وسيمًا كنجوم هوليوود في الثلاثينيات بشعره الأسود وشاربه الرفيع، وقد رسمها صديقه الفنان التشكيلي الأمريكي والدو

بيرس وتحمل عنوان «إلى إرنست واسمه المستعار طفل بلزاك»، وعلى الجدار المجاور للسرير عُلقت نسخة من تلك اللوحة[٤١].

لم يكن السرير كبيرًا بل بالكاد يكفي شخصين، مصنوع من الخشب البني الداكن وبجانبه طاولتان باللون ذاته، وضع على إحداهما هاتف عتيق الطراز، أسود بالقرص الدوار، وعلى الطاولة الثانية إطار ذهبي يضم صورته جالسًا مع ثلاثة أشخاص، نرى اثنين يوليانا ظهريهما بينما هو في الصدارة يتحدث إلى شاب صغير يرتدي جاكيت أبيض، ويعلوه في الصورة على الجدار رأس ظبي محنط، (عندما زرت فينكا فيما بعد اكتشفت عند مراجعة الصورة أنها مأخوذة في بيته هناك، وغالبًا يتحدث هيمنجواي مع رينيه فياريال رئيس الخدم).

روت لي إسبيرانثا أن هذا ليس السرير الأصلي الذي كان الأديب الأمريكي ينام عليه في فترات إقامته في الفندق، بل نسخة طبق الأصل، لأن الفندق ظل يؤجر الغرفة حتى منتصف التسعينيات تقريبًا. وفي عام ١٩٩٧ افتتحت للزيارة بعد ترميمها وتجديد الحمام، لكن بقية المحتويات ظلت هي الأصلية التي كانت مفروشة أثناء وجوده فيها، مع استعارة بعض مقتنياته من بيته، مثل ملابسه المحفوظة في الخزانة خلف واجهة زجاجية لحفظها وحمايتها من الأتربة ومن أيدي العابثين. وتجد على أرضية الخزانة حذاء مقاس ٤٦ يناسب الروائي ضخم البنية

(٤١) رسم بيرس تلك اللوحة في عام ١٩٢٩، حيث جمعتهما صداقة بدأت في كي ويست في فلوريدا واستمرت لسنوات. اللوحة الأصلية محفوظة ضمن مجموعة مقتنيات هيمنجواي في مكتبة ومتحف جون إف كينيدي في بوسطن، الولايات المتحدة.

فقد كان يرتدي مقاسات كبيرة من الأحذية، إلى جواره حقيبة سفر لوي فويتون تشبه الصندوق، وهي موديلات حقائب السفر في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي. وفي الأعلى عُلِّقَتْ سترة صيد باللون الكاكي، بجانبها صديري من قماش الصوف بأقلام عريضة وربطة عنق باللون الأزرق تحوي وردات صفراء صغيرة بإطار لونه أحمر، وإلى جوارهما سترة من ماركة أبركرومبي أند فيتش، العلامة الأمريكية الأصلية التي يعود تاريخها إلى عام ١٨٩٢ أي سبع سنوات قبل ميلاد هيمنجواي، والمعروفة بتصاميمها لملابس الرحلات والصيد. فقد كان هيمنجواي يتسم بالأناقة والذوق الرفيع سواء في الملابس أو المقتنيات ويشتري دومًا الأفضل.

حكت إسبيرانثا الكثير ولكن حكاياتها لم تُرْضِ فضولي في التعرف على الكيفية التي كان يقضي يومه بها في هافانا؟ وقفت أنظر من النافذة باتجاه الخليج والميناء، وأتخيله واقفًا يطل على ساحة الأسلحة والمنظر بأكمله. وخلال كتابة هذا الفصل، وجدت إجابة هيمنجواي عن سؤالي، عبر مقاله المنشور في العدد الأول من مجلة «إسكواير» (سبتمبر ١٩٣٣)، تحت عنوان «مارلين المورو، رسالة من كوبا»[٤٢].

يتناول هيمنجواي في رسالته تفاصيل يومه في هافانا، وكيف يقضيه منذ الصباح الباكر، ويصف المنظر ذاته الذي رأيته، قائلًا: «***تطل الغرف الواقعة في الركن الشمالي الشرقي من فندق «أمبوس موندوس» في***

(٤٢) الرسالة أو المقالة الأولى من بين ٢٨ رسالة كتبها هيمنجواي في المجلة، في ٢٨ عددًا من أعدادها الثلاثة والثلاثين الأولى، أي في الفترة من ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٧.

هافانا على الكاتدرائية القديمة، شمالًا ومدخل الميناء، والبحر، وإلى الشرق على شبه جزيرة كازابلانكا، وعلى أسطح جميع المنازل الواقعة بينهم وعلى المرفأ باتساعه. إذا كنت تنام وقدماك باتجاه الشرق، قد يكون ذلك مخالفًا لمبادئ بعض العقائد، ستشرق الشمس، القادمة من ناحية كازابلانكا، وتدخل من نافذتك المفتوحة لتلقي بأشعتها على وجهك وتوقظك بغض النظر عما كنت تفعله خلال الليلة الفائتة. إذا لم تختر الاستيقاظ يمكنك الاستدارة نحو الجانب الآخر من السرير، أو التدحرج بعيدًا عن مصدر الأشعة. لكن ذلك لن يفيد طويلًا لأن الشمس ستزداد قوتها وسيكون الشيء الوحيد المفيد هو غلق مصراع النافذة.

وعندما تقف لغلق المصراع، وتنظر إلى الميناء وتشاهد ذلك العلم المرفوع فوق الحصن، مستقيمًا وموجهًا نحوك. ثم تطل عبر النافذة الشمالية فيما وراء قلعة المورو وتشاهد أشعة الشمس وبريق الصباح الناعم يتلألأ، تدرك أن الرياح التجارية قد أتت مبكرة. تأخذ حمامًا وتسحب سروالًا كاكيًا قديمًا وقميصًا، وتلتقط حذاءً جافًا بينما تضع الآخر في النافذة ليصير جافًا في الليلة التالية. تمشي إلى المصعد وتنزل إلى أسفل، تأخذ الجريدة من مكتب الاستقبال وتذهب إلى المقهى الموجود في الزاوية لتتناول الإفطار».

كنت أقرأ تلك السطور وأتذكر وقوفي في النافذة الشمالية لأتنسم هواء البحر وأشاهد المنظر الذي كان يراه هيمنجواي كل صباح، كان وصفه دقيقًا فقد رأيت الشمس وهي تلقي بأشعتها على سريره، والقلعة والعلم الذي يرفرف أعلاها، لكنني لم أتمكن من مشاهدة الكاتدرائية التي ذكرها، فقد كان هناك مبنى يحجبها. وقد سألت إسبيرانثا حينها

عنه، حيث يختلف طرازه المعماري الحديث عن بقية ما حوله من أبنية في هافانا القديمة التي بنيت في القرن السادس عشر. فأشارت إلى أنها جامعة سان خيرونيمو، ويبدو أنه في وقت كتابة هيمنجواي لمقاله في عام ١٩٣٣ لم يكن مبنى الجامعة الذي يطل عليه الفندق موجودًا. وأتذكر أنني استوضحت منها حينها هل كان هذا البناء بنفس شكله في زمن إقامة الكاتب الشهير به، فقالت مؤكدة أنها من أقدم الجامعات في كوبا، لكنني عندما قرأت سطوره ووصفه، عدت وبحثت في تاريخ الجامعة اكتشفت أنها كانت كنيسة وديرًا للرهبان للدومنيكان بُنيت في عام ١٥٧٨، باسم دير سان خوان دي ليتران، وفي عام ١٧٢٨، أسس الرهبان جامعة في الدير الذي تم تجديده فيما كان يعرف بمنطقة سان خيرونيمو دي لا هابانا، وفي عام ١٨٤١ حرم الرهبان الدومنيكان من حيازة ممتلكاتهم وأوقف نشاط الجامعة التي انتقلت لاحقًا إلى إدارة الحكومة الإسبانية وسُميت باسم الجامعة الملكية الباباوية حتى عام ١٩٠٢ ثم انتقلت إلى موقع آخر وهدم البناء. وخلال السنوات اللاحقة استخدمت الأرض ومبانيها استخدامات متنوعة حتى بيعت في ١٩١٦ لرجل أعمال بغرض بناء مركز تجاري ضخم في شارع أوبيسبو بعد أن تم هدم جزء كبير منها لتوسعة الشارع. ظلت الأرض والمباني مهجورة ومهدمة حتى نهايات عام ١٩٥٧ عندما اتخذ باتيستا قرارًا بإعادة بنائها كجامعة كما كانت. بما يؤكد أن هذا المبنى الحديث الطراز لم يكن موجودًا في وقت هيمنجواي.

بعد أن انتهينا من مشاهدة جميع محتويات الغرفة، اصطحبتني إسبيرانثا إلى الطابق السادس حيث يقع سطح الفندق الذي يضم شرفة واسعة ومطعمًا كبيرًا، قالت إسبيرانثا: إن هيمنجواي كان يتناول طعامه فيه أحيانًا. ومن فوق أشارت إلى مبنى بسقف أحمر، كان فيما مضى مقرًّا لسفارة الولايات المتحدة في كوبا قبل قيام الثورة، وأنه يحوي اليوم متحفًا ومكتبة. عرفتني إسبيرانثا إلى العاملين في المكان، لم يكن أي منهم معاصرًا للروائي المعروف بالطبع، لكنها قدمتني لهم بوصفي صحفية مصرية أكتب مقالًا عن الروائي الأمريكي الشهير.

ودعت إسبيرانثا، واستكملت جولتي على السطح لأشاهد المنظر الذي يقع بالضبط فوق غرفته، وأتذكر أنني بدءًا من تلك اللحظة، صرتُ أود رؤية هافانا بعينيه، وكما رآها، وهذا ما حاولته في كل مكان زرته أو صورة التقطتها بهاتفي أو ما قرأته لاحقًا من كتب ومقالات.

يتيح السطح إطلالةً أوسع للمشهد الذي كان يفتح هيمنجواي عليه عينيه في الصباح كما وصفه بدقة في مقال مجلة إسكواير. انتهيت من التصوير، ثم نزلت إلى بهو الفندق، وعدت إلى تأمُّلِ صور هيمنجواي، فبعد أن قضيت نحو ساعة في رفقته، زاد شغفي به ورغبتي في ملاحقته. وبمجرد ما لمست قدماي البلاطات الحجرية لشارع أوبيسبو، عاود الهاتف الداخلي إلحاحه، يدعوني لأسير على خطاه، كأن روحه تسير معي، أو أن شبحه قد اختارني أنا الصحفية المصرية القادمة من الكويت ليكشف لي خفايا وحكايات ٣٠ عامًا من حياته في كوبا.

اتجهت يسارًا في شارع أوبيسبو، كنت فعليًّا أود السير في أثر خطواته، ومشيت حتى نهايته فوجدتني عند مطعم وحانة «فلوريديتا». كانت التاسعة صباحًا والمكان مغلق فقررت العودة في الطريق ذاته إلى الفندق. فجأةً شعرت بأنني أملك هافانا، أعرفها منذ سنوات، رغم أنني وصلتها قبلها بيوم واحد، كنت أسير فيها بخطى واثقة، تدل طريقها وليس كسائحة تائهة تستكشف الشوارع، كأن طيفه معي يصحبني ويدلني، إلى كل مكان أحبه، وكل شارع سار فيه، ولاحقًا إلى بيته في فينكا بيهيا، لأقضي بقية أيامي في هافانا معه. عند ناصية شارع أوبيسبو بجوار الجامعة، تركت الفندق خلفي ومشيت إلى ساحة الكاتدرائية، وفجأة للمرة الثانية، ربما بدافع الشغف الذي كان يتراكم بداخلي تدريجيًّا، بدلت خططي لهذا اليوم، وقررت أن أقضي مزيدًا من الوقت في معية الأديب الشهير والاقتراب منه أكثر، فقررت الذهاب مباشرة إلى بيته.

عبرت ساحة الكاتدرائية، التي تشبه الساحات الإسبانية الأثرية، بتصميمها المربع ومبانيها المنخفضة بعقودها وأعمدتها والأقواس التي تعلو البوائك المميزة لهذا الطراز المعماري، وحجارة أرضيتها العتيقة. كانت مقاهي الساحة ومطاعمها جميعها لا تزال مغلقة، فاستكملت سيري في شارع سان إجناثيو، حتى خرجت من هافانا القديمة نحو الطريق الرئيس بحثًا عن وسيلة مواصلات يمكن أن تقلني إلى فينكا بيهيا.

وصلت إلى محطة الحافلات العامة، التي ذكرتني كثيرًا بمثيلاتها في القاهرة، عاصمة بلادي، حيث لن تجد لافتة تشير إلى أنها محطة، أو دكة

خشبية ليرتاح الناس عندها أو حتى لوحة دونت عليها تفاصيل وأرقام الحافلات، لكنك ستعرفها من تجمع المواطنين، ومن تلك السيارات الضخمة المصطفة أمام الجموع أو التي تأتي مكتظة بالركاب، ينزلون منها فيسارع الواقفون للصعود مكانهم لكنها سرعان ما تمتلئ، فيضطر البقية لانتظار التالية، مشهد اعتدت رؤيته في القاهرة. فكثير من ملامح كوبا يشبه بعض بلادنا العربية، بل إن كورنيشها الشهير المعروف باسم الماليكون، يكاد يطابق كورنيش مدينة الإسكندرية قبل تجديده، وحتى طريق السيارات يشبه الطريق المحاذي للكورنيش في الإسكندرية، فهو طريق ذو اتجاهين دون حاجز يفصل بين صفوف السيارات الآتية والذاهبة.

اقتربت من الجموع الواقفة أبحث عمن أسأله عن رقم الحافلة التي يمكن أن تقلني إلى سان فرانسيسكو دي باولا حيث يوجد بيت هيمنجواي، أو ميكروباص (حافلة صغيرة) مما يسمى الكولكتيبو وتعني سيارة الأجرة الجماعية.

لمحت فتاة شابة في مطلع العشرينيات، تضع سماعات هاتفها في أذنيها، فاقتربت منها وألقيت عليها التحية بالإسبانية، ثم سألتها عن رقم حافلة، لاحظت خلال وقوفي أنه مكتوب عليها كوهيمَر القريبة من فينكا بيهيا. كانت الفتاة لطيفة للغاية، وشرحت لي أنها لن تساعدني في الوصول إلى غايتي، ونصحتني بأن أستقل سيارة أجرة خاصة على أن أتفاوض مع سائقها على السعر قبل الركوب، محددة لي سعرًا تقريبيًّا يناسب مسافة الرحلة ذهابًا وإيابًا.

أشارت الفتاة إلى المكان الذي يمكن أن أستقل منه سيارة الأجرة أو الكولكتيبو إذا كنت أصر على ركوب مواصلاتهم العامة. لكنني آثرت الحل الأول، وفعلت مثل رفيق رحلتي في هافانا، فكما قرأت لاحقًا ذهب هيمنجواي إلى فينكا في المرة الأولى بسيارة أجرة، قبل أن يستقر في الجزيرة ويمتلك سياراته الخاصة. أشرت إلى واحدة صفراء من ماركة لادا الروسية، وهي من الماركات المنتشرة في هافانا كما القاهرة أيضًا، يقودها سائق عجوز تغلب الطيبة على ملامح وجهه، سألته هل يمكنه أن يقلني إلى فينكا بيهيا ويعيدني، وعن سعر المشوار، وبعد الفصال على الأجرة، الأمر الذي يبرع فيه المصريون، اتفقنا على سعر مناسب لإمكانياتي.

❊ ❊ ❊

فينكا بيهيا.. مستودع الأسرار

اتخذ السائق طريقه متجهًا نحو النفق الذي يربط بين شطري العاصمة مارًّا أسفل خليجها الصغير، إلى الجهة المقابلة لهافانا القديمة، حيث توجد تلال ضاحية كازابلانكا الخضراء وقلعة المورو، اللذان كان يشاهدهما هيمنجواي من غرفته في «أمبوس موندوس». عبر خريطة المدينة على هاتفي، رأيت أننا نسير في فيا مونيمنتال، باتجاه الطريق الدائري الأول الواقع على أطراف العاصمة ومحيطًا بها، مررنا بالإستاد الرياضي الشاسع (إستاد بانامريكا) وعدد من الأحياء السكنية، لأتعرف على جانب آخر من هافانا كنت أشاهده لأول مرة، الأحياء والمساكن الاقتصادية التي بنيت في عهد فيديل كاسترو وبعد الثورة.

تبعد فينكا بيهيا نحو ٢٤ كيلو مترًا جنوب شرقي هافانا حيث تقع في إحدى ضواحيها[٤٣]. يمتد الطريق الدائري وسط حقول قصب السكر وأشجار الموز، وعلى أحد جانبيه خط فردي للسكك الحديدية. تعلقت عيناي بجمال الطبيعة الاستوائية، وشردت، عشرات الأفكار والتساؤلات كانت تشغل تفكيري، ما الذي دفع هيمجنواي

(٤٣) سان فرانسيسكو دي باولا.

ليختار الإقامة في كوبا؟ هل لأنها تتمتع بالمناخ الاستوائي الذي اعتاد عليه خلال رحلات صيده في أفريقيا، أم لكونها جزيرة تتيح له مياهها ممارسة هوايته المحببة، صيد الأسماك، والتأمل في مياهها خلال رحلاته بالقارب؟ وربما لأن أهلها يتحدثون الإسبانية، التي أتقنها من زياراته وإقامته في إسبانيا وعشقه لمصارعة الثيران. ولماذا اختار أن يقيم بعيدًا عن صخب المدينة؟ هل ليتخلص من أصوات القنابل وآثار الدمار التي عاشها خلال سنواته في الحرب العالمية الأولى أو عمله كمراسل حربي خلال الحرب الأهلية الإسبانية وغيرها. أسئلة كثيرة كانت تزيد فضولي وشغفي بالسعي في أثره والبحث في سيرته.

وصلنا بعد نحو أقل من ساعة، لم أشعر فيها بالوقت ولم يمكنني تحديده بدقة. عند بوابة البيت رأيت اللافتة وقد كتب عليها بالإسبانية، «فينكا بيهيا- متحف هيمنجواي- وزارة الثقافة»، بحروف بارزة على لوحة خشبية صغيرة على يسار البوابة. يتربع البيت أعلى تلة تتوسط حديقة مساحتها نحو ١٣ فدانًا من النخيل وأشجار المانجو والموز والنباتات الاستوائية المتنوعة، ما يليق باسمها «فينكا بيهيا» وتعني مزرعة المَطَلّ أو نقطة المراقبة. وقد بناها الأسبان في القرن السادس عشر لمراقبة هافانا والميناء، وفي رواية أخرى يقال إنها كانت تقع بجوار برج تقيم فيه الحامية الإسبانية التي تراقب المكان، واتخذت المزرعة اسمها منه، والروايتان لا تختلفان كثيرًا.

صعدنا بالسيارة ممرًّا تحيط به الأشجار حتى وصلنا ساحة فسيحة، اصطفت بها سيارتان أو ثلاث، وقف السائق بجوار إحداها في انتظاري

ليعيدني حسب الاتفاق. تطل الساحة على منطقة زراعية كثيفة من جهة، كما توجد في أحد جوانبها كافيتريا ومتجر لبيع التذكارات، وفي الجهة الثالثة بناء صغير يضم مكاتب الإدارة وأيضًا مكان بيع تذاكر الدخول. وقد عرفت لاحقًا أنه كان مرآب السيارات، حيث كان هيمنجواي يملك ثلاث سيارات؛ بيويك سوبر ستيشن عائلية، وبليموث صفراء مكشوفة موديل ١٩٥٣ كانت تستخدمها زوجته ماري، وسيارة كرايسلر نيويوركر فاخرة باللونين الأحمر والأبيض طراز سنة ١٩٥٥ وهي واحدة من اثنتين من هذا الموديل تم استيرادهما في كوبا.

طلبت مقابلة مديرة المتحف، بوصفي صحفية مصرية، وقدمت لهم جواز سفري المدونة فيه مهنتي؛ لأنني كنت أعرف أنني لن أتمكن إلا من مشاهدة البيت من الشرفة الخارجية المحيطة بالمنزل، مثل جميع السياح، حيث يمكن النظر عبر النوافذ إلى الداخل. كنت أطمح في أن يتكرر ما حدث معي في غرفته في الفندق صباحًا، وأن أحصل على تصريح بالتجول في المنزل والتقاط الصور عن قرب أو أكون محظوظة ويصحبني مرشد من المشرفين على المكان يقدم لي جولة تفصيلية وشرح وافي حول المقتنيات المعروضة. اعتذرت مديرة المتحف عن تلبية طلبي قائلة: كان ينبغي أولًا حصولي على تصريح من رابطة الصحافيين الأجانب في العاصمة، ولما كان وقتي ضيقًا ولا يمكنني العودة إلى هافانا لأفعل ذلك، قررت الرضوخ للأمر الواقع ويكفيني أنني وصلت إلى بيته.

اشتريت التذكرة بخمسة كوك، ثم اتخذت طريقي باتجاه البيت أعلى التل. صعدت ممرًّا أسفلتيًّا محاطًا بأشجار النخيل، يعتبر طريقًا للسيارات كي تصل بركابها أمام البيت، والآن لا يسمح بصعوده إلا مشيًا، ما عدا الوفود الرسمية والشخصيات المهمة بالطبع. يتخذ الممر شكل نصف قوس باتجاه اليسار وصولًا لأعلى. في الطريق، لمحت على يميني كوخًا خشبيًّا أبيض اللون خمنت أنه محل إقامة الضيوف الذي خبرتني عنه إسبيرانثا صباح اليوم في فندق «أمبوس موندوس»، حينما أشارت إلى أن اللوحات المعروضة في الغرفة، كانت في الـ(بنجالو)[٤٤] الخاضع للترميم حاليًا لذا تمت إعارتها للفندق، وكان تخميني صحيحًا كما تأكدت فيما بعد، فقد عرفت أنه كان الكوخ الذي يقيم به ضيوف صاحب البيت ممن يبقون لفترات طويلة، وهم كثيرون نذكر منهم النجم الهوليوودي جاري كوبر صديق هيمنجواي وبطل الأفلام المأخوذة عن رواياته.

يظهر البيت، خلال رحلة الصعود، بشكل تدريجي كأنه ينمو من باطن الأرض وسط الأشجار والنخيل، مبنى أبيض من طابق واحد، ذو تصميم بسيط وأنيق وحديث أيضًا رغم أن تاريخ بنائه يعود إلى عام ١٨٨٦، حيث صممه المعماري الإسباني ميغيل باسكوال إي باجير وباعه لاحقًا إلى رجل فرنسي يُدعى مسيو دوشان الذي أجره منه هيمنجواي بنحو ١٠٠ بيزو في الشهر قبل أن يشتريه في عام ١٩٤٠. وكان البيزو وقتها يعادل دولارًا أمريكيًّا واحدًا، حيث تذكر مارثا جيلهورن زوجته

(٤٤) أصل الكلمة هندي «بنجال» ويعني كوخًا خشبيًّا، انتقل إلى الإنجليزية في القرن السابع عشر.

الثالثة اعتراضه على أن يدفع ١٠٠ دولار إيجارًا لبيت وحديقة في حين أنه كان يدفع دولارًا واحدًا في الليلة في غرفته في الفندق.

ينتهي الممر الصاعد بساحة دائرية تطل على جانب من الحديقة الممتدة إلى أسفل التل. وفي مواجهة البيت تمامًا نصب صغير يحمل تمثال وجه صاحب المكان، كان يقف أمامه مجموعة من السائحين يستمعون لشرح دليلهم. تجولت حول البيت أولًا لالتقاط مجموعة من الصور والفيديوهات التوثيقية.

بنوافذه الزجاجية الواسعة المفتوحة للخارج، يبدو البيت فاتحًا ذراعيه لاستقبالك والكشف لك عن حياة وأسرار صاحبه، تلك النوافذ المصممة لدخول أكبر قدر من الهواء إلى جميع الغرف لتخفيف درجة الحرارة خصوصًا في فصل الصيف، شديد الرطوبة والحرارة نتيجة لمناخ الجزيرة الاستوائي. لكنني لاحظت أيضًا وجود عدد من أجهزة التكييف، موزعة في الغرف لحماية الأثاث والمقتنيات من درجات الحرارة المرتفعة. ولما كنا في نهاية فبراير والجو معتدلٌ كانت النوافذ مفتوحة، ما يسمح بمشاهدة محتويات كل الغرف من الداخل بوضوح.

صعدت عدة درجات تفضي إلى أحد مداخل البيت والشرفة المحيطة به، من ذلك المدخل رأيت الصالة الرئيسة أو غرفة الجلوس وإلى اليمين غرفة الطعام، تليها المكتبة في الضلع الثاني من البيت، في حين لو اتجه الزائر يسارًا، سيعبر عندئذ الصالة ليرى عند الزاوية غرفة هيمنجواي ثم حمامه، وتنتهي الشرفة عند غرفة الضيوف في الضلع الرابع من البيت، وهذه هي الغرف المسموح بمشاهدتها، أما المطبخ وغرفة النوم الرئيسة

التي كانت تنام فيها زوجته ماري، عرفت لاحقًا أنه لا يمكن رؤيتهما إلا إذا كنت محظوظًا وأتيح لك التسلل إلى الداخل أو تملك تصريحًا.

في الجزء الواسع من الشرفة الخارجية على يسار المدخل الرئيس، لمحت عددًا من مشرفات المكان، يجلسن على كراسٍ من الحديد المزخرف (فيرفورجيه) شاهدتها من قبل في صور هيمنجواي المنتشرة على الإنترنت، تحيط بطاولة مماثلة يغطي سطحها لوح زجاجي، أسفل تعريشة تستقر فوق عدد من الأعمدة الرومانية تحمل السقف الخشبي الذي افترشته مجموعة من النباتات ملقية ظلالها على هذا الجانب المتسع من الشرفة. فكرت في التوجه إليهن لأطلب منهن التسلل للداخل أو تتطوع إحداهن بمصاحبتي في جولة إرشادية، لكنه حال بيني وبينهن، لمحته شاردًا يقف في المنتصف ممسكًا في يده قبعة القش الكوبية الشهيرة، يرتدي شورتًا فاتح اللون وقميصًا كوبيًّا. من تأثير الشمس على عينيَّ ظننت لوهلة أنني أرى هيمنجواي نفسه، متجسدًا أمامي يستقبلني في بيته مرتديًا جوايابيرا[٤٥] كعادته. اقتربت منه لأتأكد هل ما أراه سراب أم حقيقة؟ كان في بداية العقد الرابع من عمره، طويلًا بقوام ممتلئ مثل الروائي الأمريكي صاحب البيت، وكتفين عريضين أيضًا، وربما ذلك ما جعلني أتخيله هيمنجواي بطوله وبنية جسمه وملابسه. أما رأسه الحليق تمامًا فجعلتني أظنه أحد جنود مشاة البحرية الأمريكية، لكن لحيته الكثيفة بددت فكرتي في ثوانٍ.

(٤٥) قميص الكتان الأبيض، الذي تزينه أربعة جيوب أمامية، وهو من التصاميم الكوبية المشهورة، راجع هامش ٢٢.

عندما وقعت عيناي عليه، كنت أفكر في البحث عمن يلتقط لي صورة أمام البيت، وأنوي طلب ذلك من مشرفات المكان وتكون حجة للحديث معهن، فسألته هل تريد أن ألتقط لك صورة؟ وافق وشكرني فتأكدت أن هذا ما كان يفكر فيه خلال شروده، كان سائحًا وحيدًا مثلي، يبحث عمن يوثق وجوده أمام بيت صاحب نوبل. تبادلنا التقاط الصور، ثم اتجهنا بعد حديث قصير تعارفنا فيه نحو الباب المطل على غرفة الجلوس، قال إنه أمريكي/ يوناني، لكن لأن الأمريكيين غير مسموح لهم بالدخول إلى كوبا، فقد جاء بجواز سفره اليوناني، ثم بدأنا نتحدث عن البيت وصاحبه. أخذني الحماس مستعرضة ما قرأته قبل سفري وما سمعته من إسبيرانثا صباح ذاك اليوم، لكن كانت معلومات سام، كما عرفني بنفسه، أكثر غزارة مني. فقد كان يمسك في يده كتاب «الابن الكوبي لهيمنجواي»[٤٦]، لمؤلفَيْهِ رينيه فياريال وابنه راؤول، وحكى لي أن رينيه فياريال كان يعمل قهرمانًا (مدير منزل) لدى الروائي الأمريكي خلال حياته، ثم أشرف على تحويل المكان إلى متحف بعد رحيله، وظل مديرًا له حتى عام ١٩٦٨. عندما أتذكر تلك اللحظات، يحلو لي تخيل أن روح صاحب البيت تلبست هيئة إنسان جاء ليستقبلني بنفسه في بيته ويدعوني إليه، خصوصًا أنني لا أعرف أين اختفى ذلك الشاب، ظللنا معًا لفترة من الوقت ثم مثلما ظهر فجأةً، اختفى بعد أن أتم مهمته وقربني أكثر من صاحب فينكا.

(٤٦) «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة»، تأليف رينيه فياريال وابنه راؤول، منشورات جامعة ولاية «كنت».

في الانتظار

يبدو البيت نظيفًا ومجهزًا لعودة صاحبه في أي وقت، كل شيء كأنه تركه صباح اليوم وليس قبل ٦٠ عامًا تقريبًا؛ زجاجات الرُّم والشينزانو والباكاردي على طاولة متحركة صغيرة تستقر بجوار مكانه المفضل في غرفة الجلوس، ألبوم المطربة غلين ميلر في جهاز الأسطوانات، وآلاف الكتب في شتى الموضوعات مرصوصة بعناية في رفوف خزانات تنتشر في كل غرفة، وكل ركن من البيت، الذي تزين جدرانه رؤوس الحيوانات المحنطة التي تعتبر غنائم الصيد، وملصقات مصارعة الثيران. تتيح النوافذ الواسعة المشرعة للخارج التلصص على حياة صاحب البيت، فتبدو كأنك تشاهدها بأسلوب الواقع الافتراضي (Virtual reality) فأنت تراها حقيقة لكن غير مسموح لك بالاقتراب منها ولمسها. بدأ رفيقي سام يلفت انتباهي لأغراض هيمنجواي الخاصة في غرفة الجلوس، مثل مقعده الوثير والكرسي الصغير أمامه ليمد قدميه عليه خلال القراءة وزجاجات الخمور وأنواعها. كانت ملاحظات سام ونحن نشاهد كل غرفة وحوارنا المتبادل، تضاعف اهتمامي وشغفي بصاحب المكان، وكانت معلوماته غزيرة عن حياته وكتاباته، شعرت وقتها أن هذه الزيارة إلى فينكا وذاك اللقاء مع الشاب فتحا كنزًا من المعلومات والأسرار.

فالبيوت أسرار أصحابها، في كل بيت تزوره تكتشف جانبًا من شخصية صاحبه، ذوقه، مزاجه، وطباعه، وزيارة بيت أديب تمنحك

أكثر من ذلك، تقربك من عالمه وحياته وتفتح لك مستودعًا من الحكايات، تساعدك على أن تربط بين ما تقرؤه عنه وما تقرؤه منه. أو هكذا شعرت في فينكا، فقد كان يشي بالكثير، بعكس بيوت أخرى شاهدتها.

فعندما أتيحت لي فرصة زيارة شقة فيكتور هوجو في باريس، لم أقترب منه حقيقة، بدت شقته كأحد أجنحة متحف اللوفر تضم أثاثًا ولوحات من القرن التاسع عشر، قد تشاهد مثلها في متاحف أخرى، حتى عندما رأيت غرفة نومه وسريره أو المنضدة التي كان يكتب عليها والأحبار التي استخدمها ولوحات تصور أبناءه، لم أشعر كثيرًا أنني دخلت عالم فيكتور هوجو. بينما كان كل ركن وزاوية في بيت هيمنجواي، يمنحني ملمحًا من شخصيته وطباعه، قد تعرف مسبقًا عن وسامته أو قرأت في سيرة حياته عن علاقاته العاطفية المتعددة وصداقاته بشخصيات معروفة في كل أنحاء العالم أدباء وغيرهم، لكن في بيته سوف تتأكد من حبه للتباهي، خصوصًا بإنجازاته، ومنها القنص، حين تشاهد كل الرؤوس المحنطة للحيوانات التي اصطادها في رحلاته في أفريقيا، موزعة في كل غرفة.

ولعل ملاحظتي لهذه الرغبة في تأكيد الانتصار أو النجاح جعلتني أفكر أيضًا عن دوافعه للانتحار. تمكن مني الشعور بأن تلك الشخصية المتباهية تبحث دومًا عن المزيد من النجاح والتألق والتحديات التي تمنحه نجاحًا أكبر، وبكتابته «العجوز والبحر» التي كانت سببًا في

وصول نوبل إليه، بعد سنوات كان يعاني فيها الجفاف الأدبي مثل بطل روايته الذي لم يصطد سمكة واحدة خلال ٨٥ يومًا، لم ينشر بعدها رواية جديدة، واكتفى بمقالات متنوعة في المجلات، لكنه ترك مسودات لأعمال نشرتها زوجته بعد وفاته مثل «وليمة متنقلة» و«جزر في التيار.

في بيت الكاتب أيضًا يتبين ذوقه في القراءة، وإذا كنت لم أتمكن من الاقتراب من كتبه ومكتباته وتصفحها خلال زيارتي، لكنني استطعت من خلال تكبير الصور معرفة عناوين قليلة منها سيأتي ذكرها في حينه. وفي بيت هيمنجواي الذي دعاني لزيارته، أو هكذا أعتبرها خصوصًا أنني أصدق في العلامات التي تظهر لنا وتيسر أمورًا بعينها. هناك رأيت كتبه، لوحاته، مشروباته المفضلة، مجلاته وصحفه، وبدأت أتعرف إليه بشكل حقيقي، وبعد عودتي اقتربت منه أكثر من خلال فيضان من المقالات والكتب التي كانت كل يوم تكشف لي عنه شيئًا جديدًا. عرفت أنه كان دائم الترحال لم يستقر في مكان لسنوات طويلة سوى كوبا، قضى معظم حياته يهرب من نفسه، فهو يقول في رواية «ولا تزال الشمس تشرق» على لسان بطلها جاك: «***لا يمكنك أن تهرب من نفسك بالتنقل من مكان إلى آخر طوال الوقت***». لكن هيمنجواي الذي نشأ يحمل الضغينة تجاه والديه خصوصًا أمه، ترك منزل الأسرة في عمر الثامنة عشرة ليبدأ حياته المهنية كصحفي في صحيفة «كانساس سيتي ستار»، ومن يومها لم يستقر في مكان واحد كثيرًا، حتى وجد نفسه في تلك الجزيرة الاستوائية التي منحته كل ما يحب، وعاش لأكثر من ٢٠ عامًا في البيت الذي حثته

زوجته الثالثة مارثا جيلهورن على استئجاره، وعينت عمالًا من المنطقة المحيطة ليتولوا عمليات تنظيفه وطلاء جدرانه وتجديدها بعد أن كان مهجورًا، كما اتفقت مع نجار من البلدة اسمه فرانسيسكو كاسترو ليقوم بتصنيع معظم الأثاث من الخشب البني الداكن وكل هذا كان من نقودها الخاصة[٤٧].

وخلال خمس سنوات من الزواج (انفصلا رسميًّا في منتصف ١٩٤٥)، لم تقم مارثا فترات طويلة في هذا البيت، في حين أحب هيمنجواي فينكا منذ زيارته الأولى واستقر فيها حتى بعد طلاقه، ثم زواجه للمرة الرابعة بماري ويلش التي التقاها بالمصادفة في لندن في عام ١٩٤٣. عاشت ماري معه في هذا البيت من عام ١٩٤٦ تقريبًا وحتى عام ١٩٦٠، وجعلته سكنًا له، وهي التي تولت تحديث أثاث البيت على ذوقها، كما نراه عليه اليوم.

يلفت نظرك طلاء الحوائط جميعها باللون الأبيض، في حين الأسقف من البيج الداكن، أما الأرضيات فمعظمها من بلاطات القيشاني بألوان تتراوح بين البيج والبني المشرب بالحمرة، لكنْ كل من غرفة المكتبة وغرفة الضيوف فأرضيتهما تغطيها بلاطات بزخارف ملونة. من مدخل البيت الرئيس تطل على غرفة الجلوس، التي تتوسط جميع الغرف مثل تصاميم معظم البيوت في ذلك العصر. تشاهد فيها، على اليمين، عمودين من الأعمدة العريضة يستقر فوقهما قوس يفضي إلى غرفة الطعام. بجوار العمود الثاني، كرسيان صغيران من خشب

(٤٧) ديفيد شيفر، « الإبحار إلى كوبا هيمنجواي».

الماهوجني داكن اللون، تتوسطهما منضدة صغيرة. عُلقت فوقها على الجدار لوحة تصور مصارعًا للثيران، وعلى جانبيها اثنان من رؤوس الظباء المحنطة، يواجههما على الجدار المقابل زوج مشابه، وفي زاوية الغرفة رأس آخر، ومن بعيد تلمح في قاعة الطعام رؤوسًا لأيائل أو ظباء تزين جدرانها، ففي كل غرفة من غرف البيت الخمس ستجد تذكارات غنائم الصيد، يحتفظ بها هيمنجواي من رحلات السافاري التي قام بها في أفريقيا، أغلبها من الأيائل أو الظباء تلك الحيوانات الرشيقة الأسطورية في سرعتها ما يدل على قوة ومهارة صيادها، بينما في مكتبه الملحق بغرفة نومه، تستقر رأس جاموس وحشي أسود تطل من عينيه نظرة حقد وقساوة.

في زاوية الصالة، إلى جوار الكرسيين الصغيرين، نرى مكتبة صغيرة للمجلات تضم في رفوفها الهرمية الشكل مجموعة متنوعة تكشف اهتمام أصحاب البيت ومنها على سبيل المثال مجلة «بيسبول» و«نيويوركر» و«أتلانتيك» و«فيشينج جازيت» و«بليزير» و«يو. إس نيوز» وغيرها. في مقابل ذلك الركن يتسع المنظر لنشاهد محتويات غرفة الجلوس التي تضم أريكة ومقعدين وثيرين على الطراز الريفي الأمريكي من قماش زُيِّنَ بنقشات الزهور، أحدهما كان المقعد المفضل لهيمنجواي حيث تلاحظ بجواره طاولة صغيرة تتراص فوقها زجاجات متنوعة من المشروبات الكحولية وغيرها، وأمام المقعد كرسي صغير ليسند قدميه عليه، وفي مواجهته كرسيان للاسترخاء بظهر عالٍ صُنع

من لحاء القصب المجدول[٤٨]. خلف الأريكة توجد طاولة عريضة من خشب الماهوجني عليها علبة سيجار فخمة وإناء زجاجي ومصباح طاولة قاعدته من الموزاييك الأبيض، كان الأثاث ريفيًّا بامتياز يناسب اسم المكان ويمنحه قدرًا من الألفة و شعورًا بالارتياح.

على يمين الأريكة، خزانة للكتب تصل لنصف الحائط من الخشب البني أعلاها لوحتان تصوران مشهدان مختلفان في حلبة لمصارعة الثيران. لن يمكنك من النافذة رؤية اللوحات المعلقة بوضوح، إلا إذا فعلت مثلي والتقطت صورة لتكبيرها فيما بعد، خصوصًا أنني صورت كل ركن من الغرفة. كانت اللوحتان متوسطتي الحجم فلم أتمكن من تبين تفاصيلهما حتى بعد تكبير الصورة، بينما اللوحة الموضوعة بين رأسي الظبيين، فوق المنضدة الصغيرة، فتصور أحد مصارعي الثيران في لقطة انقضاضه على الثور، وتحمل توقيع روبيرتو دومينجو، وهو رسام إسباني تخصص في رسم مشاهد من مصارعة الثيران التي انشغل بها الروائي الأمريكي لسنوات من حياته، تابعها وكتب عنها وكان صديقًا لأشهر نجومها من المصارعين، وعمل في تنظيمها أيضًا.

وكان دومينجو معاصرًا لصاحب فينكا وصديقًا له. وقد استخدمت تلك اللوحة في إعلان عن مصارعة نظمها هيمنجواي في فالنسيا في عام ١٩٣٢، كما وضعها لاحقًا على غلاف روايته « الموت بعد الظهر» التي نشرت في العام ذاته، وتدور أحداثها حول تلك الرياضة الدموية الإسبانية الشهيرة.

---

(٤٨) شرائح رفيعة من لحاء القصب يتم نسجها في مربعات ضيقة.

في مواجهة الباب الذي تطل منه، ترى لوحة من المدرسة التكعيبية في الزاوية الواقعة بين بابين، ستعرف لاحقًا أن الباب الذي على اليمين يفضي إلى المكتبة بينما الباب المواجه هو لغرفة نوم هيمنجواي. تستقر اللوحة إلى جوار رأس ظبي فاتن الجمال، أعلى خزانة نصفية بالخشب البني تمتلئ بالكتب. وبالبحث، اكتشفت أنها لوحة «مصارع الثيران» لخوان جريس، وهي إحدى لوحتين اشتراهما هيمنجواي في عام ١٩٣١ من أعمال جريس.

على الجدار نفسه، بعدما تعبر بنظرك باب غرفة النوم، لوحة ضخمة تحيط بها مكتبات متفاوتة الحجم، وتصور مشهدًا آخر من مصارعة الثيران، وهو لحظة انقضاض البيكادوريس[٤٩] على الثور بالرماح. فالكاتب المولع بهذه الرياضة، التي قال عنها: «***هناك ثلاث رياضات فقط: مصارعة الثيران، وسباق السيارات، وتسلق الجبال. كل ما تبقى مجرد ألعاب***»، وتناولها في روايته «ولا تزال الشمس تشرق»، حرص على تزيين غرفة المعيشة في بيته بالمشاهد المختلفة منها.

تشكل تلك اللوحات وغيرها من المعروضة في بقية الغرف مجموعته الفنية التي بدأ في تكوينها في مطلع العشرينيات، أثناء وجوده في باريس، حينما التقى الكاتبة والناقدة جرترود شتاين وعرفته على مجموعة من الفنانين التشكيليين الطموحين من بينهم بابلو بيكاسو وخوان ميروه وخوان جريس وأندريه ماسون. وخلال تلك السنوات

(٤٩) مجموعة من الفرسان يطاردون الثور على خيولهم لاستنفاد قوته قبل أن يدخل الحلبة الماتادور أو المصارع النجم ومساعدوه.

وما تلاها اقتنى هيمنجواي بعض لوحاتهم التي عرفت طريقها إلى بيته في فينكا، وزينت جدرانه، حتى بلغ مجموع اللوحات ٥٠ لوحة أصلية، أخذت زوجته ماري معظمها، عندما عادت بعد وفاته إلى كوبا لاصطحاب أغراضها الخاصة وتسليم المنزل للسلطات الكوبية. أما المعروض حاليًا فيشمل نسخًا من بعضها، وخمسة أعمال أصلية فقط أهمها لوحة الدجاجة وحدوة الحصان للرسام الهولندي راؤول هينكس في غرفة المكتبة.

في غرفة الطعام، التي تُوجد على يمين صالة الجلوس الواسعة، توجد نسخة من لوحة المزرعة لخوان ميروه، أقرب لوحات المجموعة إلى قلب هيمنجواي، حيث كان يقول إنها «***تختزل كل ما يمكن أن تشعر به وأنت في إسبانيا، وأيضًا كل ما تشعر به بعيدًا عنها، وهذا أمر يصعب أن تجمعه اللوحة ذاتها***»[٥٠]، وكان يوصي رينيه مدير المنزل بأنه إذا تعرض البيت لحريق فعليه أن يحرص على أخذ لوحتين هما، المزرعة وعازف الجيتار لخوان جريس التي كانت آنذاك تستقر فوق سريره في غرفته[٥١]. وعلى الرغم من أن لوحة المزرعة رسمها خوان ميروه في بداياته، لكنها من أروع أعماله، وهي محفوظة اليوم في متحف الفنون في واشنطن. وفي رواية أحد المشرفين على المكان كان هيمنجواي يفضل أن تكون على يساره أثناء جلوسه على المائدة لأنه يحب النظر إليها.

---

(٥٠) رينيه وراؤول فياريال، «الابن الكوبي لهيمنجواي»، منشورات جامعة ولاية «كنت».

(٥١) المصدر السابق، واللوحة حاليًا من مقتنيات باتريك هيمنجواي ابن الروائي الشهير.

مائدة الطعام أيضًا تبدو معدة في انتظار ضيوفها حيث رصت عليها الأطباق وأواني الزهور، وخلفها على طاولة جانبية وضعت أواني الحساء وغيرها تنتظر أن يقوم ساقي البيت بتقديم الطعام لهيمنجواي وزوجته وضيوفهما. في كل يوم من أيام الأسبوع كان هناك ضيف على العشاء، كما تقول سكرتيرته فاليري دنبي سميث[٥٢]: «***كل يوم من أيام الأسبوع كان مخصصًا لاستقبال ضيف على العشاء، الإثنين للطبيب كوكو كولي، الثلاثاء للسفير الأمريكي، الأربعاء روبيرتو هيريرا، والخميس ضيف آخر، والجمعة كانوا عادة ما يتناولون العشاء في الخارج، ربما فلوريديتا أو مكان آخر***»[٥٣].

كان يعمل في البيت نحو سبعة من الخدم ما بين مدير للمنزل وسائق وطاهٍ ومساعده، وبستاني ووصيفة لزوجته ماري وفقًا لما ذكرته مقالات عدة أو روته فاليري، وهذا أمر طبيعي لرجل حصل على مئات الآلاف من الدولارات عن تحويل رواياته إلى أفلام، ولاحقًا على القيمة المالية لجائزة نوبل. فقد كان هيمنجواي يعيش في رفاهية تؤكدها جميع الحكايات والكتب التي تناولت سيرته، ويرى بعض النقاد أن تلك المعيشة الفاخرة لم تصنع أدبًا كما فعلت كتاباته خلال مراحل الفقر والحروب في البدايات والتي تكشفها الكثير من رسائله لوالده في أعقاب رحيله عن بيت العائلة في إيداهو في سن الثامنة عشرة ليعمل

(٥٢) فاليري هيمنجواي لاحقًا بعد زوجها من ابنه جريجوري، وكانت سكرتيرة للروائي الأمريكي في شهوره الأخيرة في كوبا.

(٥٣) من حوار أجراه معها جيمس بلاث ونشر في كتاب « تذكر إرنست هيمنجواي» للمؤلفين جيمس بلاث وفرانك سايمونز، منشورات (كيتش أند يول برس).

محررًا في صحيفة كانساس سيتي ستار مقابل ٧٥ دولارًا في الشهر، وكان يحكي لوالده أنها بالكاد تكفيه[٥٤].

من غرفة الجلوس، إلى اليمين أيضا، في الحائط الملاصق لغرفة الطعام، يمكنك أن ترى غرفة المكتبة حيث تستقر مئات الكتب، من بين تسعة آلاف كتاب تتوزع بين غرف البيت جميعًا حتى غرفته في البرج المجاور، أما العدد الأكبر منها فيوجد بالطبع في تلك الغرفة حيث تغطي جدرانها جميعًا خزانات متفاوتة الارتفاع بعضها يمتد حتى السقف، وتمتلئ بالكتب التي لم أتمكن من قراءة عناوينها حتى من خلال الصور التي التقطتها، لكن يذكر روبرت ماننج رئيس التحرير التنفيذي لصحيفة «ذي أتلانتيك»[٥٥]، احتواءَها على أعمال أدبية وروايات وكتب في التاريخ والجغرافيا بالإسبانية وفي الفنون، ويصفها تفصيليًّا: «***تعج الفيلا بالكتب، ففي غرفة الجلوس هناك نحو ٥٠٠ كتاب تتراوح بين الأدب والتاريخ والموسيقى، بينما في غرفة نوم ماري هيمنجواي***[٥٦] ***يوجد نحو ٤٠٠ كتاب منها أكثر من ٢٠ كتابًا في الطبخ، وفي الغرفة الفينيسية هناك نحو ٣٠٠ كتاب من الأعمال الأدبية والفنية بالفرنسية، وأكثر من ألفي كتاب في غرفة المكتبة التي تحوي خزائن بارتفاع الحائط، قُسمت رفوفها***

(٥٤) تم العثور على مجموعة كبيرة من رسائل هيمنجواي في كوبا في عام ٢٠٠٢، حيث ضمت إلى رسائله الأخرى، التي تشرف على إصدارها جمعية هيمنجواي بالتعاون مع مطبوعات كامبريدج برس، مقسمة إلى سنوات ومراحل. والمقرر صدورها في ١٧ جزءًا، صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء أولها في ٢٠١١ وآخرها في يوليو ٢٠٢٠.

(٥٥) من مقال كتبه في عام ١٩٦٥ عن زيارته لهيمنجواي عقب حصوله على نوبل.

(٥٦) غير متاح للزوار مشاهدتها حاليًا.

بعناية بين كتب التاريخ والكتب العسكرية، وكتب السير الذاتية، والجغرافيا، والتاريخ الطبيعي، وبعض الأعمال الروائية، ومجموعة كبيرة من الخرائط؛ أما في غرفة نوم هيمنجواي فهناك نحو ٩٠٠ مجلد، معظمها كتيبات عسكرية وكتب مدرسية، كتب التاريخ والجغرافيا باللغة الإسبانية، ومجلدات رياضية. ويحتفظ هيمنجواي في مكتبه في البرج العالي بـ ٤٠٠ مجلد آخر، بما في ذلك طبعات أجنبية من أعماله الخاصة. وأخيرًا، في ملحق الضيوف يمكن أن تجد ما يقارب ٧٠٠ كتاب موزعة في جميع الزوايا والأركان في شكل مكتبات صغيرة من بينها المجموعة الخاصة لهيمنجواي من أعمال معاصريه مزينة بتوقيعاتهم».

للوصول إلى غرفة المكتبة بشكل أفضل، ستعبر نافذة غرفة الطعام الواقعة يمين صالة الجلوس حتى الضلع الثاني من البيت يمين المدخل الرئيس، حيث يمكن أن تطل عليها من باب مفتوح على الشرفة. يتوسط الغرفة مكتب ضخم مقوس الشكل من الخشب البني، رصت عليه بعض الكتب ورأس أسد تزين جانبه، ووراءه كرسي أبيض بجواره سلة قمامة باللون ذاته صنعت من لحاء القصب المجدول. تحيط بالمكتب من الجوانب الثلاث مكتبات متفاوتة الأحجام، بارتفاع الحائط أو تصل إلى نصفه، وفي مقابل المكتب باب الدخول إلى الغرفة من المنزل، حيث يوجد على جانبه إعلان ضخم لمصارعة الثيران، وفي الحائط الآخر بجانب مدخل الغرفة، تلمح رأس ثور صنعت من الخيزران، إلى جوارها لوح من السيراميك الأبيض عليه نحت بارز لرأس ثور أيضًا، وهو من أعمال الفنان الإسباني بابلو بيكاسو، اشترته منه ماري ويلش في عام ١٩٥٧ بقيمة ١٥٠ دولارًا، وتعتبر من المقتنيات الأصلية في

المكان[٥٧]. أسفل هذين الرأسين، أعلى مكتبة صغيرة تشغل الزاوية، وضعت سماعات ضخمة لجهاز راديو عتيق إلى جوارها كرسي من الخشب الأبيض والجلد الأسود.

في تلك الغرفة أيضًا تشاهد، على يمين طاولة المكتب، لوحة راؤول هينكس الأصلية «الدجاجة وحدوة الحصان» وضعت على سطح وحدة أدراج تقع بين خزانتين للكتب إحداهما بارتفاع الحائط، أما الثانية القريبة من المكتب فهي لا تتجاوز في ارتفاعها منتصف الجدار فقط. وتستند على الخزانة القصيرة لوحة أصلية للفنان الفنزويلي لويس ألفريدو لوبيث ميندیث، الذي عاش لفترة في كوبا، وقابل هيمنجواي وأهداه وزوجته الثانية بولين تلك اللوحة «منظر في بلدة».

عالمه الخاص

بعد مشاهدة المكتبة في نهاية الضلع الموجود على الزاوية اليمنى من البيت، عدنا أدراجنا للمدخل الرئيس مستكملين الدوران حول البيت باتجاه اليسار، لنقترب أكثر من العالم الخاص لصاحب نوبل، حيث يحتل ذلك الضلع غرفة النوم والمكتب الملحق بها، يليهما الحمام الذي يشغل زاوية الضلع الرابع. يذكر أن هيمنجواي كان لديه أكثر من مكتب ومكان مخصص للكتابة؛ في المكتبة، والمكتب الملحق بغرفة نومه، وآخر ثالث في البرج ذي الأربعة طوابق المجاور للبيت. ويعتبر الملحق بغرفة نومه هو مكانه المفضل للكتابة؛ لأنه أكثر حميمية ومنعزلٌ

(٥٧) وفقًا لما ذكرته إسبيرانثا جارثيا مسؤولة غرفته في فندق «أمبوس موندوس».

في الوقت نفسه. وكان هيمنجواي يحب ذلك البيت ويصفه في إحدى رسائله للكاتبة الصحفية ليليان روس: «***إنه لأمر رائع أن يكون لديك كل هذه الغرف لتعمل فيها، وهذا العدد الكبير من صناديق القمامة الكبيرة***»(٥٨).

في كل ركن وزاوية وغرفة من البيت ستجد خزانة للكتب، بعضها بارتفاع يصل إلى نصف الحائط، والبعض الآخر يمتد بارتفاع الحائط كله، وفي غرفة نوم هيمنجواي أو كما يسميها فياريال في كتابه، غرفة العمل والقيلولة، التي خصصها الروائي الأمريكي فقط للعمل وللراحة بعد الغداء، وكان ينام ليلًا في غرفة نوم زوجته ماري(٥٩). في تلك الغرفة، تلاحظ أكبر عدد من الخزانات متفاوتة الأحجام بعد المكتبة، كلها تمتلئ عن آخرها بالكتب، ومعظمها بارتفاع يصل إلى نصف الحائط. فوق خزانة الكتب إلى يمين السرير، تستقر الآلة الكاتبة التي كان يطبع عليها واقفًا كعادته، وقد وضعها فوق مجلد ضخم لتناسب طوله. ويشرح فياريال في كتابه أن تصميم تلك الخزانة، كمثيلاتها في بقية أرجاء البيت، وجدها هيمنجواي قصيرة بالنسبة إليه، فقد كان طويلًا، إذا يبلغ طول قامته مترًا وثلاثة وثمانين سنتيمترًا، لذا قام بتعديل ارتفاعها بوضع ذلك المجلد الضخم أسفلها. لم أستطع قراءة عنوان المجلد من خلال النافذة ولا حتى بتكبير حجم الصور التي التقطتها،

(٥٨) «أشياء قالها لي هيمنجواي: ملاحظات عبر عقد من المراسلة»، ليليان روس، نشر المقال في مجلة «ذا نيويوركر» بتاريخ ١٧ مايو ١٩٩٩.

(٥٩) كان هيمنجواي ينام فيها أحيانًا عندما يتشاجران، وفقًا لحكايات فياريال في كتابه. وقد أظهرهما كاتب سيناريو فيلم «بابا هيمنجواي في كوبا» الذي يتناول سنواته الأخيرة في فينكا، كل ينام في غرفة منفردة.

لكنني عرفت بعد البحث أنه معجم ويبستر العالمي:

(Webster's Universal Dictionary).

من خلال مراجعة صوري، تمكنت من قراءة بعض عناوين الكتب الموضوعة في تلك المكتبة، فالتلصص على قراءات روائي مثله، وخصوصًا في غرفته الأثيرة فرصة لا تفوت. في الخزانة الموجودة على يمين سريره، تقرأ عناوين مثل «الأناشيد/ الأغاني» (Cantos XXX) لعزرا باوند أحد أهم رواد الشعر الحديث والمعاصر في القرن العشرين، وصديق مقرب لهيمنجواي، ورواية «حكم الاثني عشر» للروائي الأمريكي رايموند بوستجيت، وكتاب «The Partisan Reader»، الذي يضم مختارات من القصص والقصائد المنشورة في مجلة (The Partisan Review) بين عامي ١٩٣٤ و١٩٤٤، من تقديم ليونيل تريلينج[٦٠].

من بين عشرات، بل مئات الكتب في غرفة نومه وداخل بيته، لم أستطع قراءة سوى هذه العناوين الثلاثة، وسعيت للبحث عن محتويات مكتبته من الكتب والمقالات المنشورة عنه. كنت أبحث عن إجابة لسؤال شغلني طوال زيارتي: هل كانت الكتب الموضوعة في غرفة نومه أو في أي خزانة في البيت، ذاتها في حياته أم رتبت وفقًا لأهواء المشرفين على البيت والمتحف؟ وأدركت من مقالات وحوارات كثيرة أنهم لم يقوموا بتغييرات كبيرة، فقد قرأت عن علاقته بالشاعر عزرا باوند وتأثره به، حيث التقاه هيمنجواي خلال

(٦٠) راجعت هذه العناوين، وتأكدت منها في محرك البحث جوجل.

فترة إقامته في باريس في مطلع العشرينيات وتأثر كثيرًا بالنصائح التي أسداها إليه باوند. وبفضله اكتشف همنجواي أعمال الكتاب الجدد آنذاك من أمثال ت. س. إليوت وجيمس جويس، هذا بالإضافة إلى الكلاسيكيين الكبار من أمثال فلوبير، وستندال، وهنري جيمس، إلخ. ومقابل هذه الخدمات الأدبية راح هيمنجواي يعطي عزرا باوند دروسًا في المصارعة لتقوية عضلاته. وكان عزرا باوند يقول: «***الكتّاب الجيدون هم الذين يستخدمون لغة فعالة، أي واضحة ودقيقة***»، وهذا ما نلاحظه في لغة هيمنجواي الأدبية لاحقًا. لذا كان من الطبيعي أن يضع هيمنجواي عزرا باوند إلى جوار سريره.

وفي مقالة روبرت ماننج في «ذي أتلانتيك»(٦١)، تحدث معه هيمنجواي عن أهمية عزرا باوند كشاعر،وقال عنه: «***إنه شاعر عظيم يستحق أن يسرح من مستشفى الأمراض العقلية***(٦٢)***، وأن يذهب ليعيش في إيطاليا حيث يحبونه ويقدرون شعره***». ولا يمكننا تجاهل كم الرسائل المتبادلة بين هيمنجواي وعزرا باوند والتي استمرت حتى نهاية حياة الروائي الأمريكي، وتكشف عمق العلاقة بينهما(٦٣).

وفي حوار آخر نشرته مجلة باريس ريفيو في عام ١٩٥٨، يصف جورج بليمبتون، في مقدمة حواره الذي أجراه مع هيمنجواي في بيته في

---

(٦١) «هيمنجواي في كوبا»، « ذي أتلانتيك» عدد أغسطس،١٩٦٥.

(٦٢) كان عزرا باوند محتجزًا في مصحة عقلية وقت إجراء الحوار في عام ١٩٥٥.

(٦٣) نشرت رسائل هيمنجواي إلى عزرا باوند في كتاب مختارات رسائل الروائي الأمريكي صدر في عام ١٩٨١ بتحقيق كارلوس بيكر، وترجمه إلى العربية الشاعر عبد الكريم عبد القاسم في جزأين من منشورات دار « آفاق للنشر والتوزيع» في القاهرة في ٢٠٢٠.

فينكا، غرفة نومه ومكتبه الملحق بها وأكوام الكتب التي شاهدها على المنضدتين على جانبي سريره أو على مكتبه، وهي: ذا بارتيزان ريفيو وكتاب عزرا باوند، رواية فيرجينيا وولف «القارئ العادي»، رواية «البيت المنقسم» للروائي الأمريكي بن إميس ويليامز، كتاب «الجمهورية» لتشارلز إيه بيردز، كتاب «غزو نابليون لروسيا» للكاتب يوجين تارل، «كيف كنت شابة؟ مذكرات ممثلة» لبيجي وود، كتاب الناقد الأمريكي ألدن بروكس «شكسبير وأصابع داير» [٦٤]، ومجموعة أشعار تي.إس إليوت، وكتاب ويليام تشارلز بولدوين «الصيد في أفريقيا» وكتابان عن سقوط الجنرال كستر في معركة « ليتل بيج هورن» أو معركة حقل العشب الدهني، أشهر الحروب الأمريكية الهندية التي سجلت نصرًا كبيرًا لصالح الهنود الحمر[٦٥]. ومن هذه الكتب التي دونها بليمبتون وتلك التي تمكنت من قراءة عناوينها، تبين لي الاهتمام الكبير الذي كان يوليه هيمنجواي بالأدب الأمريكي المعاصر له، وبالشعر والتاريخ، إضافة إلى الصيد هوايته وعشقه. ومن تلك المقالات والحوارات، وما ذكره خادمه فياريال في كتابه، وجدت إجابات لسؤالي، وتأكدت أنه تم الحفاظ على كتبه كما كانت في حياة صاحبها، حيث قام مدير المنزل بالإشراف على تحويله إلى متحف بعد وفاة هيمنجواي.

يستقر السرير وعلى جانبيه طاولتان صغيرتان وسط كل تلك المكتبات، حيث يقع بين نافذتين كبيرتين، تسمحان بدخول الشمس

---

(٦٤) (Shakespeare and the Dyer›s Hand) وزعم مؤلفه ألدن بروكس أن الكاتب الحقيقي لأعمال ويليام شكسبير هو سير إدوارد داير.

(٦٥) جميع العناوين تم تدقيقها والتحقق من أسماء مؤلفيها.

والضوء بشكل كبير إلى الغرفة. وعلى الفراش ذي اللون الأزرق الباهت، رأيت صحيفتين، الأولى مفرودة بينما طويت الثانية أسفلها، وقد كشف صفار لون أوراقهما عن قدمها. لم أتمكن من قراءة العنوان الرئيس للصحيفة المفرودة التي تبينت فقط أنها صحيفة نيويورك تايمز، واحدة من ٦ صحف كان هيمنجواي يقرؤها يوميًّا، أما الثانية المطوية فيتناول عنوانها الرئيس «مصرع هيمنجواي وزوجته في حادث طائرة»، وبالبحث عنها في شبكة الإنترنت تبين أنها جريدة الديلي ميرور البريطانية، في تقريرها عن الحادث الذي تعرض له هيمنجواي وزوجته ماري ويلش في ٢٣ يناير ١٩٥٤ [٦٦]، وقد كتبت الصحف حينها عن مصرعه في الحادث حتى ثبات نجاته بعدها بأيام.

وأمام السرير توجد منضدة صغيرة من البامبو تحوي رفين رُصت عليهما أوراق وكتب، وفي خلفيتها مكان لوضع الصحف والمجلات، يواجه السرير عمودان عريضان يحملان قوسا (آرشا) يشكل المدخل المفضي إلى غرفة المكتب الملحقة بالغرفة. وفي كل عمود فجوة مقوسة، أسفلها مكتبة نصفية صغيرة أمام إحداهما كرسي من الجلد يواجه النافذة الثانية المطلة على الغرفة، بينما تتيح لنا النافذة الثالث رؤية غرفة المكتب.

---

(٦٦) تعرض هيمنجواي لحادثتي سقوط طائرته مرتين متتاليتين في تلك الرحلة إلى أفريقيا مطلع عام ١٩٥٤ الذي فاز في نهايته بجائزة نوبل للآداب. فبعد نجاته من حادث الطائرة الأولى بأيام سقطت الطائرة الثانية والتي نجا منها أيضًا.

طقوس الكتابة

كان هيمنجواي يكتب عادة في الصباح الباكر، فهو يقول: «***هناك فرق كبير بين الأفكار التي تأتيك ليلًا والتي تأتيك صباحًا، فما تفكر فيه خلال الليل هو لا شيء وما تكتبه ليلًا ستعيد كتابته مرة أخرى بشكل ما خلال النهار***».

وكان يكتب بين ٤٠٠ و٧٠٠ كلمة يوميًّا، وفي بعض الأحيان تصل إلى ألف كلمة كما تقول زوجته ماري في أحد حواراتها، وكان أولًا ينقح ما كتبه بخط يده في أوقات سابقة ويعيد الكتابة والشطب عشرات المرات حتى يرضى عما كتب، ثم ينسخه على الآلة الكاتبة. أما سكرتيرته فاليري دنبي سميث التي لازمته في أواخر أيامه، فتقول إنه كان يستيقظ في السادسة صباحًا ويخصص من السادسة إلى العاشرة للكتابة الإبداعية، وفي العاشرة يتناول الفطور ويتوجه إلى حمام السباحة. وفي فترة العصر كان يقوم بالرد على مراسلاته بنفسه، وأحيانًا يكلف فاليري بتلك المهمة. وكان حريصًا على الكتابة بشكل يومي، مهما كانت حالته النفسية أو البدنية، أو يعاني من تأثير تناول الكحول. وفي الوقت نفسه كان دقيقًا فيما يتعلق بالنص الذي كتبه، حتى كان يتجادل طويلًا مع محرره آنذاك هاري براج حول كلمة واحدة منه. وهو ما نرى أصداءه في المواضع التي تناول فيها فكرته عن الكتابة في العديد من كتبه خصوصًا «وليمة متنقلة».

أما هيمنجواي نفسه فيصف تفاصيل صباحاته في إحدى رسائله إلى ليليان روس[٦٧]، قائلًا: «***عذرًا، هذه رسالة رديئة. هل سبق لك أن قرأت أيًّا من تلك القصص عن الهند وحرارة الصيف عندما لا تأتي الرياح الموسمية وتدفع سخونة الطقس الناس للجنون فيأخذون بندقية من على الحائط ويطلقون النار على شخص ما في الثكنات؟ لقد كان ذلك هو الطقس ليلًا ونهارًا. ولكنك فقط لا تستطيع إخراج أي بندقية من الرف وإطلاق النار على الرقيب. تستيقظ بدلًا من ذلك وتعيد الكتابة لمدة ست ساعات؛ تنسخ على الآلة الكاتبة، ثم تعيد الكتابة وتكتب باليد حتى تبتل الورقة ولا يمكنها أن تحتمل خط القلم الرصاص. ثم تقف وتوقع الشيكات وخطابات العمل والرسائل العائلية الضرورية على الآلة الكاتبة على أمل اللحاق بحمام السباحة قبل أن تختفي الرقعة الأخيرة من الظل حيث يكون الماء باردًا...***».

تضم المساحة الملحقة بغرفة النوم، مكتبًا من الخشب البني الفاتح، يغطي سطحه لوح من الزجاج، وبين الزجاج وسطح المكتب وضعت بعض الصور التي لم أتمكن من معرفة أصحابها، بينما تراصت عليه مجموعة من المنحوتات الخشبية لعدد من الحيوانات، وعدد من الطلقات النارية مختلفة الأحجام التي تخص الأسلحة التي كان يستخدمها في القنص، بالإضافة إلى علبتين كل منها بها نظارة قراءة، ومفتاح ضخم، وعدسة مكبرة، وطبق خشبي يحوي عددًا من الحصى الملون.

(٦٧) «أشياء قالها لي هيمنجواي: ملاحظات عبر عقد من المراسلة»، ليليان روس، نشر المقال في مجلة «ذا نيويوركر» بتاريخ ١٧ مايو ١٩٩٩.

كان سطح المكتب يخلو من أوراق وكتب صاحبه التي وصفها جورج بليمبتون في مجلة «باريس ريفيو» كاتبًا: «***يحوي المكتب كومة من الخطابات إلى جوار دمية محشوة بالقطن على شكل أسد من تلك التي تباع في مسارح برودواي، حقيبة قماشية تحوي أسنان الحيوانات الضارية وتماثيل خشبية لأسد وحمارين وحشيين وخنزير بريًّا وخرتيتًا، وعددًا لا نهائيًّا من الكتب***».

على ذلك المكتب كانت تجلس فاليري، مساعدته الشخصية في الستة أشهر التي قضتها في فينكا بيهيا في عام ١٩٦٠، لتتولى الرد على رسائله وفقًا لما يمليه عليها، والتي تذكر أنه كان يهتم فقط برسائل العمل، بينما يترك لها حرية الرد على رسائل القراء. في تلك الفترة، لم يكن مزاجه جيدًا نتيجة لتصاعد الأحداث السياسية بين حكومة كاسترو اليافعة والولايات المتحدة، وبسبب حالته الصحية المتردية ونضوب خياله فلم يكن يكتب كثيرًا. وكان إذا ساعدته قريحته على الكتابة يقص عليها ما دونه في ذلك الصباح. أما إذا لم يتحدث عما كتبه، فتعرف أنه يمر بتلك الفترات التي يمر بها أغلب الكُتَّاب وتعرف باسم حبسة الكاتب.

على الحائط في مقابل مكتبه يستقر في المنتصف رأس جاموس بري محنط، وأسفله توجد مكتبة صغيرة، على سطحها عدة لوحات تصور الطبيعة والغابات. وبجوارها مكتبة ضخمة بارتفاع الحائط تضيق رفوفها بالكتب المتراصة جنبًا إلى جنب. إلى جوار المكتبة، خزانة لأحذية صاحب البيت المتنوعة، أحذية برقبة (بوت) وأخرى خفيفة تسمى موكاسان وغيرها، تلاصقها خزانة أخرى مغلقة لم تتح لي فرصة رؤية ما بداخلها وربما كانت ملابسه.

تدوين آخر

استكملت جولتي حول البيت في الشرفة الخارجية وصولًا إلى زاوية الضلع الرابع حيث يوجد الحمام الخاص بصاحب المنزل. ويسيطر عليه اللون الأبيض، الحوائط، بلاطات القيشاني، حتى المغسلة وحوض الاستحمام، المرحاض، والبيديه (مرحاض الشطف)[٦٨]، كلها بيضاء. تقع المغسلة في مواجهة النافذة التي تطل منها، لكنها تشغل يسار الباب من داخل البيت، إلى جوارها خزانة بيضاء صغيرة تحوي ضلفتين ودرجًا علويًّا، تليها مكتبة مملوءة بالكتب تجاور مقعد المرحاض مباشرة، مؤكدةً عادة الروائي الشهير القراءة أثناء قضاء الحاجة، ويروي مدير منزله لسنوات رينيه فياريال أن هيمنجواي كان يترك كتبه على الأرض مقلوبة على الصفحة التي يقرأ فيها، فصممت زوجته ماري خزانة كتب للحمام، نفذها بانشو، نجار البلدة، لتضم جميع كتبه الملقاة.

في الجانب الآخر، تشاهد حوض الاستحمام وإلى جواره البيديه، ثم ميزان الجسم ذا الذراع مثل الذي تراه لدى الأطباء[٦٩]، وبجانبه على الحائط تلحظ أرقامًا وتواريخ دونت بخط اليد. فقد كان هيمنجواي

(٦٨) يشبه البيديه المرحاض، لكنه يحوي صنبورًا ويستخدمه الغربيون للتنظيف بديلًا عن الشطافة التي نستخدمها نحن العرب.

(٦٩) الميزان ذو الذراع مزود بموازن لبيان وزن الثقل. ويتحرك الموازن على طول الذراع حتى يزن الثقل، وتوجد علامات على الذراع لتحديد الوزن. ويستعمل كثير من الأطباء هذا النوع من الموازين في وزن المرضى.

حريصًا على تسجيل وزنه بشكل يومي، بناء على طلب طبيبه، بعد حادث الطائرة التي تعرض لها في عام ١٩٥٤. قرأت تلك المعلومة في مصادر عدة لكنني لاحظت في رسائله التي تسبق ذلك التاريخ بسنوات، اهتمامه بتسجيل وزنه ومشاركته للقريبين منه، فمثلًا أول مرة كانت في رسالة كتبها إلى محرره الأدبي ماكسويل بيركنز في عام ١٩٢٨ يقول فيها: «***لديَّ ركبة من الصفيح وأكره السقوط بقوة ولا أهتم بها أبدًا- لكن لأنني أزن ٢٠٨ أرطال***»، وفي رسالة أخرى في عام ١٩٣٣: «***أزن ١٨٧ رطلًا. نزلت من ٢١١***»[٧٠]. ويستمر الروائي الأمريكي، في تسجيل وتوثيق زيادة الوزن أو انخفاضه عبر الرسائل. ويبدو أن اهتمامه بخفض وزنه بدأ معه من سن مبكرة فقد كان في التاسعة والعشرين في الرسالة الأولى، وكان يفعل ذلك خوفًا على ركبته التي أصيب فيها خلال الحرب العالمية الأولى، كما تكشف رسالته إلى بيركنز. ولاحقًا بعدما انتقل إلى كوبا، كان يزن نفسه أيضًا بانتظام، حتى لو كان بعيدًا عن حمامه، يستمر في تدوين وزنه. ففي رسالة إلى صديقه الشاعر والمحرر في صحيفة نيويورك تايمز هارفي بريت، كتبها من رحلته في أفريقيا مطلع عام ١٩٥٤، يقول: «***الآن أزن ١٨٦. كنْتُ ثابتًا عند ١٩٠-١٩٢ لفترة طويلة***»[٧١].

تلاحظ في الحمام أيضًا حقيبة جلدية مستطيلة باللون البني وضعت فوق خزانة الكتب، يستقر أعلاها رفان خشبيان صغيران، رصت عليهما زجاجات مختلفة لكن يلفت النظر من بينها مرطبان زجاجي مليء

(٧٠) «الرسائل» الجزء الأول، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع».
(٧١) «الرسائل» الجزء الثاني، ترجمة: الشاعر عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع».

بمادة الفورمالين وبداخله أحد الزواحف، وفي غرفة المكتب أيضًا مرطبان آخر يحفظ حيوانًا آخر اصطاده صاحب البيت، فلم يكن مغرمًا فقط بتحنيط رؤوس الحيوانات التي يصطادها ولكن الزواحف أيضًا. ويحكي خادمه فياريال أن الحرباء المحفوظة في المرطبان الزجاجي في الحمام، كانت قد أبدت شجاعة نادرة في مواجهة إحدى قطط هيمنجواي، لذا قرر تقديرًا لشجاعتها أن يحتفظ بها.

وفي خزانة الكتب الموجودة في الحمام يمكن قراءة عنوان كتاب عن الساحر المعروف هوديني، وآخر عن الصيد بعنوان «لعبة الصيد الكبرى والمغامرة» لرجل الأعمال الأمريكي ماركوس دالي.

والحقيقة أن الكتب المتناثرة في كل مكان في هذا البيت تستفزك لمحاولة تبين عناوينها واكتشاف ماذا كان يقرأ صاحب البيت، والتعرف على ذائقته واهتماماته، وإن كنت لم أفلح آنذاك في فك طلاسمها، ساعدتني الصور لاحقًا.

ومن الحمام نصل إلى النافذة الأخيرة في الضلع الرابع من البيت، والتي تكشف عن غرفة نوم إضافية طليت جدرانها باللون الوردي، وتحوي سريرين فرديين عليهما مفرشان باللون ذاته، تستقر بينهما طاولة صغيرة. وعلى الحوائط علقت عدد من اللوحات ورؤوس الأيائل. تضم الغرفة أيضًا خزانتين للملابس لونهما أبيض ومكتبتين صغيرتين ممتلئتين عن آخرهما بالكتب. وفوق أحد السريرين، المجاور لباب الغرفة، لاحظت لوحة مرسومة لهيمنجواي بجانبه رأس ظبي، يظهر فيها بلحية بيضاء. تبدو الغرفة مجهزة للضيوف أو لأولاده

عندما يزورونه، وقد أقامت فيها مساعدته فاليري، التي روت في كتابها «الركض وراء الثيران: سنواتي مع آل هيمنجواي» ذكرياتها في فينكا خلال إقامتها فيها.

أفضل دليل

بعد انتهائي ورفيقي من مشاهدة غرفة الضيوف، عدنا أدراجنا باتجاه البرج، واستوقفنا المنظر الرائع من قمة التل حيث تشاهد بيوت سان فرانسيسكو دي باولا ممتدة على السفح وصولًا إلى هافانا. كانت الشمس ساطعة، تكشف بوضوح تفاصيل المشهد، في حين يمنحنا صاحب البيت لقطة أخرى في وقت لن يمكننا أن نفوز به، حينما يصفه في ساعات الصباح الباكر من بين سطور إحدى رسائله إلى ليليان روس، يقول فيها: «***إنها الخامسة والنصف صباحًا، وقد بدأت تظهر خيوط الضوء الآن قبل أن تشرق الشمس، وتبدو التلال رمادية بتأثير الندى من الليلة الماضية***»(٧٢).

نزلنا بضع درجات تفضي إلى الجانب الخلفي من الحديقة لالتقاط الصور، ووقفنا قريبًا من مشرفتين كانتا تستندان على حافة الشرفة، الأولى تبدو في منتصف الثلاثينيات، ذات شعر قصير ومجعد يضفي عليها جاذبية، والثانية أكبر منها ربما تكون في بداية عقدها السادس بشعر

(٧٢) «أشياء قالها لي هيمنجواي: ملاحظات عبر عقد من المراسلة»، ليليان روس، نشر المقال في مجلة «ذا نيويوركر» بتاريخ ١٧ مايو ١٩٩٩.

أقصر وناعم، والاثنتان سمراوان من الكوبيين ذوي الأصول الأفريقية. سألتنا ذات الشعر المجعد إذا كنا نرغب أن تلتقط صورة معًا فاعتذرت لها بالإسبانية، بينما قالت لي زميلتها: «زوجكِ وسيم»، ابتسمت قائلة: «ليس زوجي»، سألتني: «إذنْ خطيبكِ»، أجبتها: «لا بل صديق»، لا أعرف لما أطلقت عليه ذاك الوصف، ربما لما جمعنا من شغف بصاحب المكان، والوقت الذي قضيناه في ضيافته. قمت بالترجمة سريعًا للشاب الذي كان قد ابتعد قليلًا. تتميز المرأة الكوبية بجرأة واضحة تكشفها طريقة مشيها في الشارع وحرية جسدها في الحركة وحديثها وتعبيرها الصريح عن رأيها، كما فعلت المشرفة الخمسينية. تبادلت مع الاثنتين حديثًا قصيرًا انتهزت خلاله الفرصة لأسأل عن بقية غرف البيت، فقالت ذات الشعر القصير، واسمها مارجاريتا: إن غرفة زوجته ماري لا يمكن مشاهدتها من الشرفة، والمطبخ أيضًا، لذا لا يسمح برؤيتهما. أما الغرفة التي كنا نقف قريبًا منها، فقالت إنها كانت مخصصة في البداية لقطط هيمنجواي وزوجته ماري حيث بلغ عددهم نحو ٣٠ قطًّا وقطة، وبعد بناء البرج نقلوا إليه، وحولوها لغرفة للضيوف. وأضافت أن غرف الخدم تقع في القبو، وقد أصبحت مخزنًا لحفظ أوراق هيمنجواي الكثيرة. تحدثت مارجاريتا أيضًا عن غرفة نومه وأضافت معلومات قالها لي مسبقًا رفيقي سام، وعندما سألتها عن تلك اللوحة الموجودة في غرفة الضيوف لهيمنجواي، قالت إنها لأوسكار فياريال، لم أتعرف على الاسم حينها ولم تضف هي معلومات عنه.

كان الحديث مع المرأتين مشجعًا لي لأن أطرح سؤالًا بشأن ما قرأته قبل رحلتي عن هذا البيت، وما قاله أحد حراس المكان عن سماعه خطوات داخل المنزل في الليل، ورؤيته في بعض الأحيان خيال شخص يرتدي قميصًا وبنطلونًا قصيرًا مثلما اعتاد صاحب البيت. سألتهما هل صحيح أن روح هيمنجواي لا تزال تسكن بيته؟ وهل حقيقي ما ذكره بعض الحراس؟ ضحكت مارجاريتا ضحكة واسعة أظهرت جمال أسنانها البيضاء التي تتباين مع بشرتها السمراء فأضفت عليها فتنة خلابة، وقالت: «سمعت عن هذه الحكايات بالفعل، نحن الكوبيون شعب يعتقد في مثل تلك الخرافات ويؤمن أجدادنا ببعض الآلهة مثل يمانجا[٧٣] وغيرها، لكنني شخصيًّا لا أصدق ذلك.. ربما كان ذلك الحارس الذي قرأتِ ما قاله قد تناول كثير من الرُّم في تلك الليلة». قالتها بالعامية الإسبانية فبدت الجملة كأنها تقول لي بالعامية المصرية (تقل العيار حبتين)، اقتربت زميلتها الأكبر سنًّا بشعرها القصير جدًّا كالصبيان وقالت إنها من سكان المنطقة وكانت تسمع في طفولتها قصصًا كثيرة مماثلة وهي تصدقها متسائلة ولِمَ لا؟! كأنها تقصد ولِمَ لا تظل روح هيمنجواي في المكان الذي أحبه حد العشق، وشعر أنه وطنه، وبدأت تحكي كيف تحافظ كوبا على وجوده حيًّا بينهم حتى اليوم.

عندما أتذكر ذلك الحديث، أدرك أنني تأثرت بكلمات السيدة الأكبر عمرًا، ربما وجدت لها صدى في نفسي، أو لأنني كنت أرغب

(٧٣) يمانجا: إحدى آلهة ديانة يوروبا، وتتبوأ مكانًا بارزة في الثقافة الأفروأمريكية، وقد جاءت إلى أمريكا من قبل العبيد القادمين من إفريقيا قبل مئات السنين.

في أن أصدقها، أو لأنها تبرر الإحساس المستمر بأن هيمنجواي بالفعل حي هناك ويقود خطواتي في أثره.

انتهيت من الحديث مع مارجاريتا وزميلتها التي نسيت أن أسالها عن اسمها، والتفت أبحث عن رفيقي الشاب فلم أجده، اختفى مثلما ظهر، ولم أره ثانية حتى تركت فينكا بيهيا. وحتى اليوم لا أعرف لماذا ظهر هذا الشاب لي يومها؟ أكان وجوده علامة جديدة بشأن ضرورة استكمال مشواري في أثر هيمنجواي؟ فكما ذكرت مسبقًا عن اعتقادي في العلامات والمواقف التي نمر بها ونعتبرها أحيانًا صدفة، لكنها تكون علامة لشيء أكبر، فكل شخص قابلته في رحلتي كان يفتح الأبواب التي تقربني من صاحب نوبل؟ وربما كان لقائي مع سام ليعرفني فقط بكتاب رينيه فياريال قهرمان المنزل، وأمين سر صاحبه، والذي عامله الروائي الأمريكي كابن له منذ أن كان في الحادية عشرة من عمره، وكانت زوجته ماري تردد دومًا أنه ابنهما الكوبي، حتى أن رينيه اختار عنوان كتابه «الابن الكوبي لهيمنجواي»، الذي وفقًا لما قاله سام: «أفضل دليل تقرؤه عند مشاهدة فينكا».

كنت منبهرة بكل ما شاهدت وأتساءل طوال الوقت كيف استطاعت الحكومة الكوبية الحفاظ على البيت بكل هذا النظام، وكان سام قد تحدث عن الجهد الرائع الذي قام به رينيه فياريال لتحقيق ذلك. لذا بحثت عن الكتاب بعد عودتي وقرأته وعرفت منه جانبًا آخر من شخصية الكاتب الشهير، وقررت نقل وصفه للمنزل لنرى فيه المكان في أيام صاحبه.

ورينيه فياريال كان واحدًا من صبية بلدة سان فرانسيسكو دي باولا، رآهم هيمنجواي وهم يلعبون البيسبول خارج أسوار المكان، في أول زيارة له للبيت، وبعد انتقاله إليه، تطورت علاقته بهؤلاء الصغار، وعمل بعضهم لديه، ولكن رينيه الذي يقع بيت عائلته مجاورًا لفينكا، هو مَن ارتبط بالمنزل وصاحبه لنحو ثلاثين عامًا تقريبًا، فحتى بعد مغادرة صاحب «العجوز والبحر» كوبا والحياة، ظل رينيه فياريال أمينًا على المكان، وتولى لاحقًا منصب مدير «فينكا بيهيا.. متحف هيمنجواي»، بأمر مباشر من فيديل كاسترو، وسيرد ذكر تفاصيل ذلك في حينه.

وخلال قراءة كتابه، وجدت إجابات كثيرة عن أسئلة كانت تدور في خيالي وقتها، وعند تدوين تفاصيل الزيارة بعد عودتي مباشرة، مثلًا تلك اللوحة التي شاهدتها في غرفة الضيوف لهيمنجواي، وقالت مشرفة المكان إن صاحبها هو أوسكار فياريال، عرفت من كتاب رينيه أنه شقيقه. ففي المقدمة، يحكي عن آخر زياراته إلى فينكا مع ابنه وشقيقيه في عام ١٩٩٦: «***وفي الغرفة الفينيسية***[٧٤]، ***التقط راؤول صورة لثلاثتنا أسفل اللوحة التي رسمها له شقيقي أوسكار في أواخر عقد الأربعينيات، حيث مرت سنوات طويلة منذ اجتمعنا نحن الثلاثة داخل هذا البيت***». وقد رسمها أوسكار تعبيرًا عن امتنانه لهيمنجواي الذي لاحظ خلال زياراته لمنزل أسرة فياريال، شغف أوسكار بالرسم، فأحضر له أدواته من ألوان زيت وفرش.

(٧٤) نسبة إلى مدينة فينيسيا الإيطالية.

بعد انتهائي من مشاهدة غرف البيت من الشرفة الخارجية المحيطة به، واختفاء رفيقي، أكملت الجولة وحدي متجهة أولًا نحو البرج العالي المطل على السهل المحيط بالمكان، والواقع في نهاية الضلع الأيسر من المنزل. هذا البناء المكون من ثلاثة طوابق لم يكن موجودًا عند شراء هيمنجواي المزرعة، بل قامت زوجته ماري بإضافته في عام ١٩٤٩ بمناسبة عيد ميلاد زوجها الخمسين، بغرض أن توفر له مكانًا هادئًا للكتابة بعيدًا عن ضوضاء المنزل. لكن قليلًا ما كتب هيمنجواي في غرفته في هذا البرج، حيث يقول في إحدى رسائله: «***أفتقد الضجيج الذي يسببه الخدم خلال ممارستهم للأعمال المنزلية صباحًا***».

عند مدخل البرج، قابلت عدد من موظفي المكان، أشار أحدهم إلى الغرفة السفلية واصفًا إياها بأنها المخصصة لحفظ أدوات الصيد، وبداخلها شاهدت عددًا من الصور المرسومة لصاحب المنزل، وللأسماك التي كان يصيدها، وعلى حوائط الغرفة ذات اللون الأزرق السماوي علقت لوحات مختلفة الأشكال والتصاميم منها فراشات ملونة.

الغرفة التالية كانت فارغة تقريبًا فأدركت أنها تلك المخصصة للقطط، وفي الطابق الأخير زرت مكتبًا جديدًا لهيمنجواي، لكنه كان الأكثر ترتيبًا بين غرف المكتب الموزعة في أرجاء المنزل. الجدران مطلية بلون السماء فبدت مريحة للناظر، مع إضاءة طبيعية ناعمة تدخل إليها عبر النوافذ الموزعة في جميع جوانبها، لكنها في الوقت نفسه كانت خالية من روحه التي لمستها سواء في غرفة العمل أو المكتبة، من ازدحام أوراقه وأغراضه، رغم وجود خزانتين مملوءتين بالكتب.

تتصدر الغرفة منضدة كبيرة مخصصة للكتابة من الخشب البني الفاتح، خلفها كرسي يبدو غير مريح بالمرة، بينما يوجد أمامها كرسي آخر من البامبو (الخيزران) بظهر مرتفع ومقعدة طويلة تتيح مد القدمين، على طراز شيزلونج وتعني بالفرنسية كرسيًّا طويلًا، حيث يمكن للجالس أن يفرد قدميه ويسترخي خلال قراءة الكتب أو المجلات، في حين تلاحظ إلى جواره تمامًا، خزانة من الخشب البني، بتصميم حلزوني أسطواني هرمي مبتكر، قسمت رفوفها الثلاثة طوليًّا على قياس المجلات، مع ذلك كانت خاوية. وخلف الشيزلونج توجد خزانة كتب نصفية، تستقر أعلاها لوحة مرسومة لهيمنجواي بملابس الصيد في رحلات السفاري، يجلس ممسكًا ببندقيته وبجواره ينام على الأرض حيوان التشيتا.

في الزاوية اليسرى لطاولة الكتابة توجد وحدة أدراج متوسطة الارتفاع يعلوها تمثال صغير، أمامها منظار فلكي يستند على حامل ثلاثي الأرجل، وقد وجه المنظار نحو النافذة المطلة على السهل، صوب خليج هافانا، ليتيح له مراقبة قاربه «بيلار» خلال وجوده في الميناء أو في كوهيمَر، البلدة القريبة منه.

في تلك الغرفة رسمت الإيطالية الجميلة أدريانا إيفانتشيتش، خلال إقامتها في فينكا، اللوحة التي احتلت غلاف روايته «العجوز والبحر». وأدريانا في الوقت نفسه هي ملهمة شخصية ريناتا في روايته «عبر النهر ونحو الأشجار» (١٩٥٠)، التي كتبها هيمنجواي بعد لقائه بها في عام ١٩٤٨، كما اختار إحدى لوحات أدريانا لغلاف تلك الرواية. وقد التقى

الروائي الشهير الحسناء الإيطالية حينما كان يزور مدينة فينيسيا مع زوجته وشاهدها في ليلة ممطرة كما ذكر في إحدى رسائله إلى صديقه تشارلز سكريبنز: «***حيث قابلت أدريانا وهي تنتظر ساعتين في المطر للذهاب إلى صيد البط***». ونشأت بينه وبين أسرتها صداقة، فقد قاموا باستضافته وماري في قصرهم، وبدوره دعاهم لزيارته في بيته في الجزيرة الكاريبية، وبالفعل زاره شقيقها جانفرانكو أولًا ثم لحقت به أدريانا ووالدتها. وقد أقامت عائلة إيفانتشيتش في فينكا فترة طويلة، خصوصًا الأخ الذي كان يسعى لشراء مزرعة في كوبا، ولأنه بقي نحو ستة أشهر في غرفة الضيوف، أُطلق عليها لاحقًا الغرفة الفينيسية نسبة لمدينة ضيفها.

وقع هيمنجواي أسيرًا لحسن الفتاة الإيطالية التي يصفها فياريال في كتابه بالحورية، فقد كان الروائي الوسيم محبًّا للنساء الجميلات كما يقول في رسالة إلى ليليان روس[٧٥]، عن زيارة النجمة الهوليوودية آفا جاردنر له في فينكا: «***جاءت فقط لمدة ثلاثة أيام فقط. فلم يكن ضغطًا، وأحب أن أنظر إلى النساء الجميلات وسوف أرحل معها في القارب غدًا ومع ماري ومابيتو مينوكال. لقد كانت ذكية بقدومها بلا مراسلين ولا مصورين واستخدام اسم آن كلارك***».

كما عُرف عنه ارتباطه بعلاقات غرامية متعددة بالإضافة إلى أربع زيجات. وتختلف الروايات عن علاقته بأدريانا التي كانت تصغره كثيرًا في العمر، حيث تشير بعضها إلى أنها كانت إحدى حبيباته، الأمر الذي

(٧٥) «أشياء قالها لي هيمنجواي: ملاحظات عبر عقد من المراسلة»، ليليان روس، نشر المقال في مجلة «ذا نيويوركر» بتاريخ ١٧ مايو ١٩٩٩.

تسبب في نشوب خلافات كثيرة بينه وبين زوجته ماري. لكن رسائله في تلك الفترة تكشف عن طبيعة تلك العلاقة بوصفها تمزج بين التعلق العاطفي والأبوة، أو ربما حب من طرف واحد، فهو يبدأ كل رسالة لها دومًا بكلمة «ابنتي» ويختمها موقعًا «بابا»، مع ذلك كان يعبر دومًا عن حبه قائلًا: «***أحبك كثيرًا جدًّا***». وفي رسالة كتبها من نيس بعد زيارته لها في فينيسيا ضمن جولته في أوروبا صيف ١٩٥٤، يقول: «***يا ابنتي، تعرفين كم أفتقدكِ والرحيل كان مثل البتر. شكرًا على أنكِ طيبة وجميلة معي. يا ابنتي، أحبكِ وأفتقدكِ كثيرًا جدًّا. تعرفين أننا ربما كنا في وضع جيد تمامًا ومع الأمور السيئة لم نقاتل قط. أحبكِ كثيرًا جدًّا ودائمًا***»(٧٦).

كما تتضمن مكاتباته إلى أصدقائه تلميحات عن تعلقه وحبه لها، فمثلًا كتب إلى ناشره تشارلز سكريبنر يقول: «***كما أحب أن تموت أدريانا بحيث أحب ماري كما ينبغي أن تُحَب؛ أتمنى. وضع جميل. ترى ماذا يمكن أن تفعل إزاءه يا جنرال؟***». وفي رسالة تالية يؤكد استلهامه لبطلة روايته من حبه حيث يقول له: «***لم تفهمه ولم يعجبك ولن تصدق وجود أي فتيات مثل ريناتا حتى تقابل أدريانا***».

وعلى الرغم من هيامه الواضح والذي استمر لسنوات كما تشير بعض السطور في خطابات أخري، لكنها تظهر اهتمامًا يجمع بين العاطفة والأبوة، فقد كان هيمنجواي وقتها في الخمسين من عمره بينما الفتاة الإيطالية في التاسعة عشرة، وربما كان سر تعلقه بها هو رغبته في

(٧٦) «الرسائل» الجزء الثاني، ترجمة: الشاعر عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع».

إنجاب فتاة، الأمر الذي لم يتحقق في زيجاته السابقة، فقد كان يشعر بميل عاطفي، خصوصًا في تلك الفترة نحو الفتيات الصغيرات بالإضافة إلى ما يعرف عنه باعتنائه دومًا بمَن هم أصغر منه ونقل تجاربه وخبراته لهم، وتحكي سكرتيرته فاليري: «***كان من دواعي سروره أن يكون الشباب حوله، يحب أن يخبرهم عن كثير من أمور الحياة، وينقل لهم خبراته، حينما كنا في بامبلونا في إسبانيا، في بداية علاقتي معه، كنا، أنا ومجموعة من الشباب، نلتقي معه بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحًا، ونجلس في أي مقهى أو حانة في الساحة، وغالبًا ما يكون هناك نقاش حول موضوع يختاره حسب برنامج اليوم، سواء عن الثيران وأنواعها، وسلالاتها أو عن مصارعي الثيران***»(٧٧).

على باب غرفة المكتب في الطابق الثالث في البرج، وقفت أتأمل المنظر الذي كان يطل عليه صاحب نوبل من أعلى، السفح الممتد إلى أسفل تغطيه الأشجار والطبيعة الخضراء الساحرة للجزيرة الفاتنة، تتناثر وسطها بيوت البلدة.

بعد انتهائي من زيارة البرج الملحق بالشرفة الخارجية، نزلت نحو الحديقة حيث توجد دورات مياه كانت مخصصة لمساعديه والعمال في البيت، أما اليوم فقد خصصت لموظفي ورواد المكان. على بعد خطوات منها لافتة دون عليها: «حمام السباحة، ملعب التنس، حلقة صراع الديكة وقبور الكلاب». وكانت اللافتة تشير إلى ممر طويل تظلله الأشجار الباسقة الموزعة على جانبيه.

---

(٧٧) من حوارها مع جيمس بلاث المنشور في كتاب «تذكر إرنست هيمنجواي»، ويتضمن مجموعة حوارات أجراها المؤلفان جيمس بلاث وفرانك سايمونز.

يهبط الممر منعطفًا نحو اليمين قليلًا، وفي نهايته تجد حمام السباحة حيث اعتاد صاحب البيت السباحة نصف ميل يوميًّا كنوع من الرياضة. كان الحمام فارغًا، تشاهد بداخله خمس درجات نصف دائرية على اليسار، أعلاها تعريشة تستقر فوق عدد من الأعمدة المضلعة على الطراز الروماني، تشبه تلك الموجودة في الشرفة. تحت التعريشة توزعت عدة أرائك خشبية باللون الأبيض، وفي الزاوية توجد غرفة صغيرة كانت تُستخدم لتبديل الملابس، وإن كان من المعروف أن هيمنجواي وزوجته وضيوفهما كانوا يسبحون كما ولدتهم أمهاتهم، من دون ملابس تمامًا، وكان محظورًا على العاملين في البيت الاقتراب من منطقة حمام السباحة في ذلك الوقت. ويروي أحد خدم المنزل أنه أثناء إقامة النجمة آفا جاردنر في ضيافة «بابا»، لم يكن يعلم بوجودها في حمام السباحة وعندما شاهدها تخرج منه عارية، أصابه الرعب وجرى مسرعًا ليختفي عن الأنظار خوفًا من تعرضه للتوبيخ من أصحاب البيت. بينما يحكي فياريال في كتابه، أنه شاهد مرة صبية البلدة وقد قفزوا سور البيت، وتسللوا عبر الحديقة ليتلصصوا على النجمة الهوليوودية الفاتنة. وخلف التعريشة كان ثمة ملعب صغير للبيسبول أصبح مهجورًا اليوم، لكنه الملعب الذي شهد تدريبات فريق نجوم جيجي للبيسبول الذي تحكي عنه فاليري دنبي سميث (هيمنجواي) وأيضًا رينيه فياريال في كتابه.

نجوم جيجي

عاشت فاليري دنبي سميث في فينكا بيهيا ستة أشهر فقط، لكنها ظلت مساعدة للروائي الشهير حتى وفاته، وصاحبت زوجته خلال زيارتها اللاحقة للبيت لمدة خمسة أسابيع، لمعاونتها في جمع متعلقاتها وبعض أغراض زوجها الراحل وأوراقه وعدد من المقتنيات واللوحات، وشحنها إلى الولايات المتحدة قبل أن تسلم مفاتيح البيت للحكومة الكوبية. وتذكر فاليري كيف كان البيت ممتلئًا بالحياة في وجود إرنست وماري والخدم السبعة الذين كان هيمنجواي يعاملهم كأفراد من العائلة، ففي أمسيات الجمعة التي تبث فيها مباريات الملاكمة من ماديسون سكوير في نيويورك، كان يجمع الخدم وأهل البيت والأصدقاء حول المذياع ليستمعوا جميعهم إلى المباراة، وكان يتولى التعليق في كثير من الأحيان.

وفي إحدى زياراتها اللاحقة للمكان بعد تحويله إلى متحف، التقت فاليري التي كانت قد تزوجت من ابنه جريجوري هيمنجواي وأصبحت تحمل لقب العائلة، بثلاثة من سكان سان فرانسيسكو دي باولا ممن عاصروا صاحب نوبل وهم أوسكار بلاس فيرناندیث، وألبيرتو راموس (وتدليله فيكو)، وأومبيرتو هيرناندیث، وكانوا من أعضاء فريق البيسبول الذي كَوَّنَه هيمنجواي وكان يضم أيضًا رينيه فياريال.

وقد بدأت حكاية ذلك الفريق عندما كان مجموعة من أبناء الحي، ومن بينهم الأسماء السابقة، يلعبون البيسبول خارج أسوار

فينكا بيهيا المهجورة بعصي خشبية، وفي أول مرة جاء هيمنجواي لمشاهدة البيت قبل أن يستأجره، تبادل معهم الحديث وسألهم ماذا يلعبون، وعندما عرف أنهم مولعون مثله بالبيسبول، اشترى لهم لاحقًا الكرات والمضارب والقبعات الخاصة باللعبة، وعند زيارة ابنيه باتريك وجريجوري في عطلة الصيف، تولى تدريب المجموعة على البيسبول، مكونًا فريقًا أطلق عليه «نجوم جيجي»، وهو اسم التدليل لجريجوري الذي كان محبًّا للعبة مثل والده وانضم للفريق، وطلب من خياط البلدة أن يقوم بتفصيل ملابس رياضية لهم. وكان الصبية ينادونه في البداية بكلمة السيد بالإنجليزية «مستر»، لكنهم وجدوا جيجي يناديه بابا، فقلدوه.

استمر نشاط الفريق كل صيف حتى عام ١٩٤٣، ثم توقف لانشغال هيمنجواي في الحرب العالمية الثانية وسفره المتكرر، في حين ظلت علاقة عدد من أعضاء الفريق ممتدة بالبيت وصاحبه. ويروي رينيه فياريال أن هيمنجواي استعان بشقيقه الأكبر بوبيتو، للعناية بالقطط والكلاب والقيام ببعض المهام له مثل إحضار البريد من مكتب بريد سان فرانسيسكو دي باولا وغيرها، حتى توفي بوبيتو فجأة في حادث سيارة، فتكفل الكاتب الشهير بمصاريف جنازته. ولما كانت أسرة فياريال تسكن في بيت ملاصق لسور فينكا، طلب من رينيه أن يحل محل شقيقه. التحق الفتى اليافع بالمكان الذي كان بمثابة الجنة بالنسبة لطفل مثله، ينتمي إلى أسرة فقيرة، ويحكي في كتابه عن المساعدات الجمة التي قدمها هيمنجواي له ولعائلته، والدروس التي تعلمها منه وعن عمله

اليومي في إطعام قطط هيمنجواي والعناية بها وبكلابه وببقية الطيور التي كان صاحب نوبل يربيها في بيته مثل الديكة والحمام. وعندما بلغ رينيه السابعة عشرة، خلا منصب مدير المنزل فعينه الكاتب وزوجته محله وأصبح رئيسًا للخدم وقهرمانًا مسؤولًا عن إدارة فينكا بيهيا.

كما انضم فيكو من فريق البيسبول للعمل في البيت أيضًا وتدرب على يد الطاهي رامون وقد ساعد في إعداد وليمة من الأطباق الصينية لحفل عيد ميلاد هيمنجواي الخمسين في عام ١٩٤٩، وفقًا لما رواه لفاليري هيمنجواي.

المرفأ الأخير

سرت بمحاذاة حمام السباحة، حيث توجد أربعة شواهد قبور صغيرة دونت عليها أسماء أربعة من كلابه وهم بلاك، ونيجريتا، وليندا ونيرون، التي أراد صاحبها أن تبقى إلى جواره، كما كان يخطط لأن يُدفن هو أيضًا في حديقة البيت، بينما لم يضع علامات على الأماكن المدفونة فيها قططه، منعًا لظهور الأرواح الشريرة كما حكت لي مارجاريتا.

خلف تلك الشواهد، يوجد ملعب التنس الذي تشير إليه لافتة صغيرة، وقد تم تظليله وتحويله إلى مرسى أرضي لقاربه «بيلار»، وكان الروائي الأمريكي قد أوصى عند وفاته بمنحه لجريجوريو فوينتس، ربان القارب وصديقه، الذي احتفظ به لفترة، لكنه لم يتمكن من الإنفاق على

صيانته، فأعاده للحكومة الكوبية ليوضع في فينكا. يستقر القارب على خمس قواعد خشبية ترفعه عن الأرض، بينما يحيط به ممر خشبي عالٍ يصعد إليه بسلالم، تجعلك في مستوى مساوٍ للجالس داخله، ويتيح الممر الالتفاف حوله ومشاهدته من جميع الزوايا والتقاط الصور.

يبدو القارب مثل كل شيء في فينكا، كأنه ينتظر صاحبه، معدًّا لاستقباله لينطلق في رحلة صيد جديدة، بعد أن تم ترميمه وإعادة طلائه[٧٨]، كأنه هزم الزمن وصار صالحًا للإبحار.

يرفرف علم كوبا أعلى مقدمة القارب المدببة بلونها الأخضر، بينما يشاهد علم الولايات المتحدة في الجانب على سارية متوسطة الطول. وتوجد أسفل المقدمة، في بطن القارب، القمرة الرئيسة، أما دفة القيادة فتقع في النصف الخلفي المكشوف حيث نرى على الجانبين أريكتين خشبيتين تغطيهما حشيتان من الجلد الأخضر، المجدد بالطبع، وبينهما كرسي خشبي دوار لصاحب القارب. وقد حفر اسم «بيلار» على جانبه، وأيضًا في المؤخرة وإلى جواره كلمة «كي ويست» مشيرة إلى مكان سكنه في الولايات المتحدة وقت شرائه.

يبلغ طول القارب نحو ١٢ مترًا وقدُ صنع في بروكلين، نيويورك من قبل شركة ويلر شيبيارد لصناعة القوارب، وهي الشركة ذاتها التي قامت بتصنيع يخت «جران ما» الذي أقل فيديل كاسترو ورفاقه من

(٧٨) رممت الحكومة الكوبية القارب ضمن اتفاقية التعاون مع مؤسسة فينكا بيهيا التي أسستها جيني فيليبس حفيدة ماكسويل بيركنز، محرر هيمنجواي.

ساحل المكسيك إلى كوبا في عام ١٩٥٨، والمعروض حاليًا في ساحة متحف الثورة في العاصمة هافانا.

اشتراه هيمنجواي في عام ١٩٣٤ بنحو ٧٤٩٥ دولارًا أمريكيًّا، بعد عودته من رحلة سافاري في أفريقيا، حيث توقف في نيويورك وكان قد حصل لتوه على مستحقاته من مجلة «إسكواير» مقابل مجموعة من القصص القصيرة والمقالات، ليتوجه من فوره إلى مقر الشركة في كوني آيلاند ويختار هذا التصميم «بلاي ميت». وقد طلب إجراء عدد من التعديلات على التصميم الأساسي، من بينها تبديل لونه الأبيض إلى اللونين الأسود والأخضر مع الخشب البني، ووضع حواجز الهواء لاحتواء الأسماك، وإعداد محرك مزدوج، وخفض رافدة القارب بمقدار ١٢ بوصة، وإضافة بكرة من الحبال العريضة في المؤخرة للمساعدة في سحب الأسماك الكبيرة.

واختار هيمنجواي أن يسمي قاربه «بيلار»، وهو اسم له دلالات متعددة لديه، أولها وأشهرها هو أنه تدليل زوجته الثانية بولين، كما كانا ينويان إذا أنجبا فتاة أن يسمياها به، لكنه أيضًا اسم القديسة بيلار في مدينة سرقسطة في إسبانيا، البلد التي يكن لها الكاتب الأمريكي معزة خاصة، وقد أطلقه على بطلة روايته التي تدور حول الحرب الأهلية الإسبانية «لمن تُدق الأجراس؟»[٧٩].

انطلق هيمنجواي بهذا القارب في رحلات الصيد في مياه فلوريدا، كي ويست وماركيساس كيز، والخليج قبالة الساحل الكوبي. كما قام

(٧٩) أندرو فيلدمان، في كتابه «إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية».

بثلاث رحلات إلى جزر بيميني، وتعتبر سيرته فيها من مآثرها، كما تشكل مسرح الأحداث في روايته «جزر في التيار».

استعان هيمنجواي بقاربه في أغراض أخرى غير الصيد، بدأها في المساهمة في البحث العلمي بالتعاون مع مؤسسة سميثونيان، حيث اصطحب العلماء من المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في أمريكا لدراسة الأسماك والأحياء البحرية في الساحل الكاريبي خلال سنوات الثلاثينيات، وخصوصًا سمك المارلين المنتشر في خليج المكسيك إلى جانب أنواع أخرى من سمك القرش، وقد ورد ذكرها والحديث عن خصائصها في مقالاته المنشورة في مجلة إسكواير الأمريكية في الفترة من ١٩٣٣-١٩٣٧ وفي روايته «العجوز والبحر».

وفي النصف الأول من الأربعينيات، استخدم هيمنجواي قاربه في التفتيش عن الغواصات الألمانية في المياه الإقليمية الكوبية، وإبلاغ البحرية الأمريكية عنها بعد حصوله على موافقة وتصريح من الحكومة الفيدرالية وبالتعاون مع سفارة بلاده في هافانا.

أما في الأوقات العادية، فكان يخصص يومي السبت والأربعاء لرحلات الصيد، وعادة كان يذهب في الصباح الباكر، كما تروي سكرتيرته فاليري. بينما يقول مدير منزله فياريال، إنه كان يصطحب أصدقاءه وضيوفه في رحلات قد تستمر لأيام. وقد تلقى خبر حصوله على جائزة بوليتزر في الرواية في ٤ مايو ١٩٥٣ حينما كان في رحلة على متن «بيلار» يصطاد في منطقة «كايو بارايسو»، وسمع النبأ عبر الراديو. ويظهر تأثير تأملاته لمياه المحيط بشكل واضح في روايته التي

استلهمها من حبه للصيد «العجوز والبحر»، وأيضًا في رواية «جزر في التيار» التي نشرت بعد وفاته.

أنهيت جولتي حول القارب، وعدت إلى الممر المظلل بالنخيل والأشجار، متخذة طريقي إلى أعلى التلة باتجاه المنزل. وقفت مجددًا أتأمل البيت وتمثال صاحبه الذي انتصب في مواجهته، يراقبه ويرحب بضيوفه. كنت كمن يعيش في حلم أو داخل فيلم سينمائي، لم أكن حتى ذلك الوقت قد شاهدت الفيلم الذي أُنتج في عام ٢٠١٥، بعنوان «بابا هيمنجواي في كوبا» وصور في فينكا وعلى قارب مماثل لبيلار، لكنني حرصت على مشاهدته عقب عودتي مباشرة، لأشعر أنَّ الحياة تدب في البيت المهجور الذي عادت إليه الحياة، وحمام السباحة الخالي امتلأ بالمياه وبالحكايات.

قبل ٦٠ عامًا

شاهدت فينكا بيهيا بعيني، وتأملت تفاصيلها في الواقع ومن خلال الصور، وحاولت البحث عن إجابات لأسئلتي في مختلف الكتب، ومن خلال أرشيف الحوارات التي أجريت مع صاحب نوبل خلال سنواته في كوبا، وعبر رسائله، لكن عندما بدأت في قراءة كتاب «الابن الكوبي لهيمنجواي»[٨٠] الذي يروي فيه رينيه فياريال مدير منزله

(٨٠) صدر الكتاب في عام ٢٠٠٩ عن منشورات جامعة كنت، بعدما قام راؤول فياريال، ابن رينيه بتسجيل ذكريات والده لمدة عامين على شرائط كاسيت ثم صياغتها في كتاب حمل عنوان «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة».

ذكرياته مع صاحب البيت منذ وطئت قدم الكاتب الأمريكي فينكا، عشت معه تفاصيل يومه وعلاقته بزوجاته وجيرانه ومَن يعملون لديه. التقيت ضيوفه وأصدقاءه، وشهدت مواقفه مع كثير من المحيطين به ومن تعاملوا معه، ردود أفعاله وتصرفاته، تفاصيل كثيرة قربتني أكثر من الشخصية الحقيقية للروائي العالمي كنت أتمنى نقلها جميعها، لكن للحفاظ على الحقوق الأدبية للمؤلف، ولأنني لا أترجم كتاب فياريال، سأكتفي في السطور التالية باختيار فقرات تصور لنا فينكا في زمن هيمنجواي قبل ٦٠ عامًا وأكثر. كيف كان شكل البيت ومحتوياته وهل اختلفت عمَّا شاهدتُهُ خلال زيارتي؟ وكيف كانت حياة صاحبه فيه؟!

يبدأ فياريال وصفه من البوابة، ويشرح تفاصيل تاريخية تتعلق ببناء المكان فيقول مثلًا عن مرآب البيت، الذي اشتريت منه تذكرتي وحيث يوجد مكتب مديرة المتحف: «***تم بناؤه لإيواء عربات الخيول، ثم أُجريت عليه تعديلات لاستيعاب سيارات هيمنجواي الثلاث - الكرايسلر الحمراء ذات السطح الأبيض، والبليموث الصفراء المكشوفة، وسيارة بيويك ستيشن***». ثم ينتقل للبنجالو أو الكوخ الخشبي المخصص للضيوف إلى اليمين قبل نهاية الممر الصاعد إلى البيت، وفيه أقامت أدريانا ووالدتها وكثير من أصدقاء هيمنجواي ممن يستضيفهم لفترات طويلة.

وبعدها يبدأ بوصف المنزل قائلًا: «***تؤدي خمس درجات خرسانية طويلة إلى المدخل الرئيس للمنزل. تغطي شجرة القابوق (السيبا) المهيبة واجهة المنزل وتهدد السطح بفروعه. كانت تلك الشجرة المفضلة لدى هيمنجواي. لم يسمح لأي شخص بتقليم الشجرة أو الاقتراب منها أثناء حياته***». لم ألحظ عدد

درجات السلم الخرسانية المؤدية إلى المدخل، فقد كنت أتأمل تفاصيل أخرى، كما لم أشاهد تلك الشجرة التي تحدث عنها فياريال في مقدمة كتابه، لكن ذكرتْ جيني فيليبس أيضًا، عند زيارتها للمكان في ٢٠٠١، أن شجرة القابوق لم تكن موجودة، وعندما سألت مشرفي المكان قالوا إنها أُزيلت بعد كبر حجمها وامتداد فروعها أعلى سقف المنزل حتى أصابته، وتسببت جذورها الممتدة أسفله في خلخلة أجزاء من الأرضيات.

ويكمل فياريال وصفه: «***يحتوي المنزل على ثلاث مجموعات من الأبواب الفرنسية، تفتح على الشرفة التي تلتف حول المنزل، لتصبح أوسع في الجزء الأمامي، المواجه الجنوب. في المقدمة، توفر العريشة ظلًّا مريحًا خلال أشهر الصيف الحارة، ومكانًا لطيفًا للقراءة والاستمتاع بالنسيم. تحتها، يوجد صهريج من السيراميك يحتفظ بمياه الأمطار. في أيام الأربعاء، كانت لي لي، اختصاصية تجميل الأظافر، تغسل شعر هيمنجواي وماري بتلك المياه حيث كانت ماري تعتقد أنها مفيدة للشعر***». وللأسف لم أنتبه إلى ذلك الصهريج، وأتمنى اليوم العودة مجددًا إلى البيت لأشاهده.

ثم ينتقل فياريال إلى داخل المنزل ويصف أول رأسي ظباء رأيتهما فيقول إنهما من نوعية إمبالا، اصطاد هيمنجواي واحدة من رحلة سافاري في أفريقيا عام ١٩٣٤ والثانية في العام ذاته من رحلة صيد في كينيا. ثم يصف رأسي غزالتين أخريين يزينان العمودين اللذين يدعمان المدخل المقوس بين غرفة الطعام وغرفة المعيشة: «***على كل عمود يتدلى رأس غزال اصطادهما صاحب البيت في صن فالي***».

ويضيف «***على الجانب الشرقي من غرفة الطعام توجد ستُّ نوافذ كبيرة، عادة ما تكون مفتوحة للسماح للنسيم بالتدفق عبر المنزل. تم تصميم الطاولة والكراسي الكبيرة من قبل ماري وبناها النجار الإسباني بانشو من خشب الماهوجني الكوبي الثمين***». ويوضح فياريال أن هيمنجواي كان يجلس عادة في نهاية الطاولة وظهره إلى النوافذ الكبيرة، وماري في المواجهة، أما إذا كان هناك ضيوف على العشاء، فإنه يجلس في الطرف الشمالي من الطاولة وظهره إلى الأبواب الفرنسية الكبيرة في نهاية غرفة الطعام، وماري على يمينه. وذلك لأن هذين المكانين يسمحان له بالتأمل في لوحته المفضلة «المزرعة» لخوان ميروه، والتي شاهدت نسخة منقولة عنها في المكان ذاته في البيت؛ لأن اللوحة الأصلية لم تعد موجودة اليوم. فكما يروي فياريال أنه في عام ١٩٥٧، أقنع متحف الفن الحديث في نيويورك هيمنجواي بإعارة هذه اللوحة لمعرض، ومن يومها لم تعد اللوحة إلى كوبا. وفي عام ١٩٨٦، تبرعت بها أرملته ماري في وصيتها إلى المتحف الوطني للفنون في العاصمة واشنطن.

كان وصفه دقيقًا لدرجة أنني خلال قراءة الكتاب كنت أعيد مشاهدة الصور التي التقطتها مجددًا وأبحث عما يصفه، وشعرت بأنه يقدم لي جولة خاصة داخل البيت، لا يصف فيها الأثاث فقط وإنما دوره في حياة صاحبه فيشير إلى كرسي هيمنجواي المفضل، قائلًا: «***في الجهة الجنوبية الغربية من غرفة المعيشة، بالقرب من مجموعة النوافذ على الجدار الجنوبي، حيث كان يجلس ويقرأ في منتصف فترة ما بعد الظهر وكلبه المخلص بلاكي ينام عند قدميه. قليل من الضيوف كان يُسمح لهم بالجلوس على***

هذا المقعد الذي تجد بجواره طاولة صغيرة بها دلو ثلج، ونوعين من الويسكي، وزجاجة من الفيرموث الجاف، وزجاجة من الجين ماركة جوردون، وبعض زجاجات المياه المعدنية والتونيك». لم تكن تلك أنواع الزجاجات التي شاهدتها عند زيارتي واحتفظت بصورة لها، ولكن ما كتبه فياريال كان الأقرب للروتين اليومي، غير أن زيارة رينيه الأخيرة لفينكا كانت في عام ١٩٩٦، أي ٢٥ عامًا تفصل بين ما رآه وما رأيته، وربما كان المسؤولون عن المتحف يستبدلون الزجاجات من المخزون في قبو البيت.

وبينما يتحدث فياريال عن جهاز الفونوغراف يقول: «***يقع الفونوغراف الذي قدمه «لي صامويلز» لصديقه في الطرف الجنوبي الغربي من غرفة المعيشة. كان ذوق هيمنجواي في الموسيقى انتقائيًّا للغاية، كان يستمتع بالأنواع الموسيقية المختلفة، لكن معظمهما من الموسيقى الكلاسيكية والجاز. تضم مجموعته باخ وسترافينسكي وبيني جودمان ولويس أرمسترونج وسيجوفيا وأيضًا أعمال صديقته العزيزة مارلين ديتريش***».

ويصف رينيه اللوحات المعلقة على الجدار في مواجهة المدخل إلى جوار باب غرفة هيمنجواي، فيقول: «***فوق خزائن الكتب على الحائط معلقة نسخة طبق الأصل من لوحة جويا لأحد الأطفال الملكيين، هدية من إرنست إلى ماري خلال إحدى رحلاتهما الأوروبية***». وتختلف هذه اللوحة عن تلك التي رأيتها للقطة من مصارعة للثيران حيث تصور مجموعة البيكادوريس على الخيول ينقضون برماحهم على الثور.

أما «***أرضية غرفة المعيشة فهي مغطاة بحصيرة اشتراها هيمنجواي في الصين في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي خلال شهر العسل مع زوجته الثالثة،***

مارثا جيلهورن. فقد اتصل حينها هاتفيًّا بأوتو بروس، صديق من أيام كي ويست كان يعتني بفينكا في ذلك الوقت، وطلب منه القياسات الدقيقة لغرفة المعيشة وغرفة نوم مارثا. وصلت الأبسطة المنسوجة يدويًّا بعد شهرين». لم تكن تلك الحصيرة مفروشة عند زيارتي حيث شاهدت أرضيات البيت جميعها عارية، يقول رينيه عن هذا الحصير: «***بعد بضع سنوات، تضرر الحصير المفروش في غرفة مارثا بسبب تسريب السقف في أعقاب الإعصار، وكان لا بد من التخلص منه***».

يكمل فياريال جولته في وصف البيت منتقلًا إلى غرفة هيمنجواي التي أطلق عليها غرفة العمل حيث كان يكتب ويرتاح القيلولة، والملحق بها غرفة مكتب. ويمنحنا فرصة تتبع الكاتب، ومشاهدته خلال يومه واكتشاف طقوسه وعاداته في القراءة والكتابة: «***كان فراشه، حيث يقرأ وينام القيلولة، مغطى بالمراسلات والمجلات والكتب. كان بابا يقرأ أكثر من كتاب في وقت واحد، واضعًا الكتاب مفتوحًا ووجهه لأسفل لتحديد الصفحة التي توقف عندها، قبل التقاط الكتاب التالي. ويفعل الشيء ذاته مع المجلات، «لايف» و«لوك» و«فيلد أند ستريم» و«ذا نيويوركر». وعلى الأرض بجوار الفراش تقف زجاجة مياه معدنية من ماركة فيشي، وكان يشرب مباشرة من الزجاجة ويفضلها أن تكون في درجة حرارة الغرفة. وعلى طاولة خشبية صغيرة بجوار النافذة الكبيرة على الجدار الجنوبي، يوجد زوج من نظارات القراءة على رأس عدد من مجلة «سي فرونتيير». على الجانب الآخر من السرير، طاولة صغيرة وبجوارها سلة خوص كبيرة بثلاث أرجل معدنية. كانت السلة المستديرة والعميقة هي المكان الذي توضع فيه الكتب والمجلات والمراسلات التي وصلت حديثًا، وكان بابا يتصفحها في الوقت الذي يناسبه***».

ويروي فياريال عادات هيمنجواي الصباحية بتفاصيل أكثر محدِّدًا لباسه وفطوره وأمورًا أخرى: «***ينهض صباحًا في حوالي الساعة السادسة، ويمشي بحذر في المنزل محاولًا عدم إزعاج أي شخص. كان فخورًا بقدرته على التسلل بهدوء شديد. وكثيرًا ما قال: «يرجع الأمر لكوني صيادًا». كانت غرفتي تقع تحت غرفة نوم ماري، لذا كنت أسمعه عندما يستيقظ مهما حدث، فقد كان ضخم البنية وأرضيات البيت قديمة، غالبًا ما تحدث صوتًا. ورغم أنني لا أحتاج إلى الاستيقاظ قبل الثامنة لتقديم الإفطار، كنت أصحو مبكرًا، وأصعد إلى الطابق العلوي حيث أراه يقوم ببعض التمارين الصباحية مثل الإطالة ومد الساقين. بعد ذلك يذهب إلى غرفة عمله ويبدأ الكتابة. خلال أشهر الصيف الحارة كان يرتدي سروالًا قصيرًا دون قميص ويقف حافي القدمين، أما إذا كانت الأرض باردة، كان يرتدي حذاء موكاسان قديمًا أو يقف فوق جلد الكودو المفروش أمام خزانة الكتب. كل صباح يشحذ عدة أقلام رصاص ويضعها بجانب الآلة الكاتبة ثم يشبك مجموعة من الأوراق البيضاء على اللوح ذي المشبك. ذات مرة عرضت عليه شحذ أقلامه، لكنه أجابني: «هذا جزء من عملي». وكان عندما ينتهي من الكتابة في ورقة، يخلعها من المشبك ويضعها على خزانة الكتب ووجهها لأسفل وفوقها صخرة كبيرة من المعدن كثقل حتى لا تتحرك. كان يكتب الأجزاء الوصفية والسردية على الآلة الكاتبة؛ والحوارات بخط يده بقلم رصاص. وفي نهاية كل يوم عمل، يحصي عدد الكلمات التي كتبها، ويسجل العدد وتاريخ اليوم على الغلاف الداخلي لصندوق أوراقه، ثم يضع المخطوطات في الصندوق ويغلقه حتى لا يرى أحد مسوداته. في اليوم التالي، يقرأ كل ما كتبه في اليوم السابق ممسكًا بقلم رصاص في يده. كنت أراه أحيانًا يشطب الكلمات أو يغيرها، لكنني لم أره أبدًا يحذف أي شيء، فقد كان يكتب بثقة ودقة.***

يتكون الإفطار من كوب من الجريب فروت أو عصير البرتقال، وإبريق من الماء الساخن يكفي لكوبين من الشاي الأسود من دون سكر، وبيضتين مقليتين أو مسلوقتين، وشريحتين من الخبز المحمص، وثلاث شرائح من لحم الخنزير المقدد. كان يقدم إحدى البيضتين وشريحتين من لحم الخنزير المقدد في وعاء منفصل لقطه المفضل بويز، أو بوي كما يدلله أحيانًا والذي كان يشارك «بابا» القيلولة حيث ينام على صدره».

وعن رأس الجاموس الوحشي المعلق في مواجهة مكتبه في الغرفة الملحقة، والتي أثارت إعجابي ووصفتها بأنها تطل من عينيها نظرة حقد وقساوة، يحكي فياريال: «***يتدلى رأس يثير الإعجاب لجاموس أفريقي من حافة القارة عند رأس الرجاء الصالح على الجدار الشرقي لمكتبه، المجاور لغرفة عمله على الجانب الشمالي وله نفس أبعاد غرفة العمل. أطلق هيمنجواي النار على الجاموس الأفريقي في بلدة ماساي ووصف سلسلة الأحداث المحيطة بالمطاردة في قصته «حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة». أسفل رأس الجاموس، توجد خزانة كتب، وُضعت عليها البندقية التي استخدمها في قتل الجاموس، كما استخدمتها زوجته الثانية بولين فايفر خلال رحلة سفاري في عام ١٩٣٤. على قمة خزانة الكتب المجاورة إلى الجنوب، كانت هناك ثلاث لوحات صغيرة: «نصب تذكاري في آربرت» لبول كلي، و«مصارع الثيران» لخوان جريس، ولوحة أخرى لأندريه ماسون، أخذتهم أرملته ماري بعد وفاة «بابا» في عام ١٩٦١. وتضيق خزانة الكتب والتي تجاورها بالعديد من المجلدات الثمينة في الأدب الكلاسيكي***».

أما الصور التي وُضعت أسفل زجاج طاولة المكتب، فيكشف فياريال عن أصحابها وأيضًا الأغراض المرصوصة فوقها، «**في منتصف الغرفة يوجد مكتب خشبي كبير يحتوي مجموعة منتقاة من الهدايا التذكارية من جميع أنحاء العالم. فكلما عاد هيمنجواي من رحلة، يترك تذكارًا صغيرًا على المكتب و خراطيش فارغة من بندقية الصيد في تلك الرحلة. أما المفتاح المعدني الكبير الموجود أعلى المكتب فهو هدية من عمدة ماتانثاس**[٨١] **عندما عاد بابا من أوروبا على متن باخرة إيل دو فرانس عبر المحيط الأطلسي. كما تنتشر فوق المكتب تماثيل خشبية صغيرة منحوتة يدويًّا من رحلات السفاري الأفريقية في عام ١٩٥٤. وتحت الزجاج الذي يغطي الجزء العلوي من المكتب صورة للشرائط العسكرية لابن هيمنجواي الأكبر، جاك، بالإضافة إلى صورة لماري في زيها العسكري أثناء الحرب العالمية الثانية وصورة أخرى لمارلين ديتريش**».

يصف فياريال أغراضًا أخرى في غرفة المكتب، قد لا تبدو ملحوظة للزائر العادي ولا يعرف خلفياتها مثل حرملة رصت أعلى خزانة الأحذية: «**الرف العلوي مغطى بحرملة مصارع الثيران قدمها له سيدني فرانكلين، مصارع الثيران الأمريكي الشهير وصديق هيمنجواي. وقد رصت عليها عدة سكاكين غريبة الشكل: خنجر ياباني، وسكين صيد عتيقة كبيرة، وسكاكين حربة من حروب مختلفة، وخنجرا بونتيا**[٨٢]**. أما الأكثر إثارة للاهتمام في المجموعة هو سكين أفريقية مغطاة بأصداف وخرز ملون جميل، ولها جراب**

(٨١) مدينة في كوبا.

(٨٢) خنجر يستخدم في نهاية مصارعة الثيران عند إنهاء حياة الثور.

بالزخرفة ذاتها. وتستند على رف الأحذية عصي للمشي أعطتها قبائل الماساي وواكامبا الأفريقية لـ«بابا» في عام ١٩٥٣».

ومن قبائل الماساي أيضًا عرف هيمنجواي أنهم يستخدمون شحم الأسد كمرهم للعضلات، ويحكي فياريال تلك المعلومة واصفًا زجاجة غريبة فوق الرف العلوي الثاني في حمام «بابا»: «***وفي آخر رحلاته السفاري الإفريقية اكتشف أن قبيلة الماساي تستخدم شحم الأسد كمرهم لتخفيف آلام العضلات. وبعد نجاح عملية صيد الأسود، أحضر بعضًا من شحمها إلى كوبا في قنينة فارغة من ويسكي هيج بينش***».

من الحمام يكمل فياريال جولته وصولًا إلى غرفة المكتبة التي يصف أثاثها كما رأيته تمامًا ما عدا رأس وجلد أسد كان قد اصطادته ماري ويلش في إحدى رحلات السفاري، وأيضًا يتحدث عن أريكة لم تتح لي النافذة رؤيتها، وكانت المفضلة عند ماري والنجم جاري كوبر، كما يكشف جانبًا آخر من طقوس «بابا» في الكتابة: «***على الجدار الغربي عُلق جلد ورأس أسد بلبدة سوداء اصطادته ماري في رحلة سفاري عام ١٩٥٤، وقد أخذته معها إلى الولايات المتحدة في ١٩٦١، حيث رأيته عندما زرت شقتها في مدينة نيويورك. كانت ماري تستمتع بقيلولتها على الأريكة الطويلة في المكتبة، والتي من خلالها تشاهد صيدها الثمين معلقًا على الجدار. كانت الأريكة، المغطاة بجلد ورأس نمر، المكان المفضل أيضًا للنوم لدى النجم جاري كوبر لأن طولها مناسبٌ لقامته حيث كان طوله يفوق طول أسِرَّة الضيوف. خلف الأريكة توجد طاولة نصف دائرية من خشب الماغوا أرجلها على شكل أوراق المانجو، وهي تصميم آخر لماري، كان هيمنجواي يجلس عليها لكتابة رسائله،***

ويستخدم السيف المدبب لسمكة أبو سيف كثقالة ورق للمراسلات الصادرة. كما كان يضع على المكتب ختمه الشخصي الذي يقول: «أنا لا أكتب الرسائل أبدًا»، وكان يستخدمه للرد على المراسلات غير المرغوب فيها. وفي هذه الغرفة، على هذا المكتب كان يُجري التعديلات النهائية على رواياته وقصصه بالقلم الرصاص بعد مراجعة المسودة النهائية».

عندما راجعت صوري كانت معظم الأغراض الأخيرة التي تحدث عنها فياريال موجودة على المكتب، لكنك لن تعرف أبدًا فيما كان يستخدمها صاحبها لولا حكايات شاهد عيان عاش معه وراقبه ونقل ذلك لنا.

وأخيرًا يسرد تفاصيل غرفة النوم الرئيسة لأصحاب البيت، غرفة ماري وزوجها، التي لا يسمح برؤيتها اليوم، ويصف أثاثها ومحتوياتها: ***«صمم أوتو بروس السرير بحجم كبير (كينج) عندما تزوج هيمنجواي من مارثا جيلهورن. أجرت ماري العديد من التغييرات على أثاث البيت كله، بعد مجيئها إلى فينكا، ومنها غرفة نومها حيث صممت خزانة كتب خلف السرير مباشرة عند مسند الرأس وفيها احتفظت بكتب البستنة والطبخ وتزيين المنزل. وكل الأثاث الذي أضافته ماري إلى البيت كان من تصميمها وتنفيذ بانشو النجار. توجد خزانة كتب أخرى أسفل السرير بها المزيد من كتبها المفضلة، وفي أعلى خزانة الكتب توجد المجلات. صُنع المكتب والخزانة ذات الأدراج من خشب الماهوجني الكوبي وتتميز بتصميمات زخرفية جميلة. تم تنجيد الكرسي المصنوع من نفس الخشب بجلد سمكة قرش اصطادتها ماري أثناء رحلة صيد إلى كايو بارايسو. على الجدار الشمالي، توجد مرآة عتيقة على الطراز الفينيسي وعلى***

يسارها وضعت أيقونة مادونا من القرن الرابع عشر مصنوعة من الذهب عيار ٢٣ قيراطًا والتي تم شراؤها خلال إحدى رحلات هيمنجواي إلى إيطاليا. كما توجد على الجدار نفسه لوحة لإرنست شابًا رسمها له والدو بيرس، وأطلق عليها «إلى إرنست واسمه المستعار طفل بلزاك». فوق إحدى خزائن الكتب على الجدار الشرقي، يوجد رأس ظبي من أحد تذكارات ماري من سفاري كينيا عام ١٩٥٣. ويحوي حمَّام الغرفة لوازم استحمام ماري. في تلك الغرفة نام الزوجان إرنست وماري، حيث كان «بابا» ينام على الجانب الأيمن من السرير المواجه للنوافذ الجنوبية، مما يوفر إطلالة رائعة على شجرة القابوق (السيبا) المفضلة لديه».

لم يضف مؤلف الكتاب عند وصفه غرفة الضيوف والبرج كثيرًا عما شاهدته في زيارتي سوى معلومة لوحة هيمنجواي التي رسمها شقيقه أوسكار والتي ذكرتها مسبقًا. لكن التفاصيل التي حكاها عن صاحب البيت وعاداته وطقوسه أعادت الحياة إلى ذلك المكان، كما فعل بعد رحيل هيمنجواي عن فينكا وعن عالمنا من خلال حفاظه على إرث الروائي الأمريكي ليظل متحفًا حيًّا ينقلنا إلى زمنه وعصره وحياته. فالدور الذي قام به مدير المنزل في السنوات اللاحقة لوفاة صاحبه، وبعد تحويله إلى متحف، هو ما يجعل فينكا بيهيا يختلف عن غيره من المتاحف والبيوت المماثلة للأدباء والمشاهير في أي مكان آخر، أو كما شعرت شخصيًّا. بالإضافة إلى حرص الحكومة الكوبية على أن يظل شاهدًا على سنوات الأديب الشهير في واحدة من أجمل بقاع الأرض بطبيعتها وأهلها.

شاهد حي

لم يكن الحفاظ على بيت هيمنجواي ومقتنياته منذ وفاته واستلام الحكومة الكوبية له من أرملته ماري ويلش، مهمة يسيرة. فقد خضع البيت للتجديد والترميم مرات عديدة، بدأت على يد رينيه فياريال مدير المنزل، الذي يحكي في كتابه أنه بعد رحيل الروائي الأمريكي عن كوبا في يوليو ١٩٦٠، عقب نجاح حركة ٢٦ يوليو في ثورتها وتوليها زمام السلطة، أقام رينيه في البيت ليحافظ عليه كما اعتاد منذ طفولته أن يتولى حراسة المكان عند غياب صاحبه وسفره. وبعد وفاة هيمنجواي في يوليو ١٩٦١، بأيام قليلة، زاره ضيوف غير متوقعين، فقد لاحظ رينيه توقف سيارتين سوداوين عند بوابة البيت، هبط منها مجموعة من رجال ميليشيات الثورة، وعندما ذهب إليهم ليعرف سبب الزيارة، وجد بينهم قائد الثورة فيديل كاسترو يصاحبه عدد من الضباط. تجول كاسترو في أرجاء البيت بمصاحبة فياريال الذي قدم له شرحًا وافيًا عن مقتنيات البيت والقصص والحكايات والذكريات المتعلقة بها كما عاصرها أو سمعها من صاحبها، فانبهر كاسترو معلقًا «هذا متحف حي».

وبعد زيارة الزعيم الكوبي بأسابيع، جاءت ماري هيمنجواي، أرملة الكاتب الراحل لتحصل على متعلقاتها وزوجها وتسلم البيت للحكومة. في أعقاب ذلك، اضطر مدير المنزل للرحيل بعد احتلاله من قبل مجموعة من الثوريين الشباب. وفي عام ١٩٦٢، زار فيديل كاسترو

المكان مجددًا، وفُوجئ بما تعرض له من تلف للأثاث والمحتويات، على يد هؤلاء الثوريين، وطلب إعادة فياريال إلى البيت الذي صار وقتها خاضعًا لإشراف وزارة الثقافة الكوبية، وتحول رسميًّا إلى متحف، وعينه مشرفًا عامًّا ومديرًا له. وطوال الأربعة أعوام التالية تولى رينيه، بمعاونة الذين كانوا يعملون سابقًا في خدمة هيمنجواي، إعادة كل شيء على ما كان عليه قبل مغادرة صاحبه كوبا، متعلقاته وأغراضه رصت في مكانها كأيام حياته، وظل فياريال أمينًا للمتحف ومشرفًا على العاملين فيه حتى عام ١٩٦٨ عندما تقدم باستقالته، وبعدها بأربع سنوات، هاجر إلى الولايات المتحدة، ولكنه في كل زيارة إلى وطنه، كان يزور فينكا بيهيا، حيث كان العاملون في المتحف والمشرفون عليه يستعينون به في التأكد من أن مقتنيات البيت وأثاثه في أماكنها الصحيحة.

ومنذ افتتاح فينكا كمتحف يحظى بشعبية كبيرة ويزوره نحو أكثر من ١٢٠ ألف شخص سنويًّا، كان جميع العاملين فيه والحكومة أيضًا حريصون على الحفاظ عليه في أفضل حال. لكن في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي في عقد الثمانينيات، وتأثر كوبا اقتصاديًّا نتيجة ذلك، والفقر والجوع والمعاناة التي عاشها الكوبيون، ظهرت ملامح الانهيار على المكان، بعدما تركت الرطوبة الشديدة وحرارة الطقس بصماتها على البناء الخارجي وعلى بعض محتوياته وأثاثه.

وفي مطلع الألفية، عقب ٤٠ عامًا من رحيل صاحبه، بدأت علامات الوهن تصيب المنزل، والتي تجلت في عدد من الانهيارات المتتالية التي لم تعد الحكومة الكوبية قادرة على التعامل معها جميعها.

وفي حين كان البيت الذي زرته في ٢٠٢٠ يبدو كأن صاحبه رحل عنه بالأمس وكان الأثاث والجدران في حالة ممتازة، وذلك نتيجة عمليات من الترميم شاركت فيها الولايات المتحدة برغم المقاطعة السياسية بين البلدين. فقد تمت تلك العمليات بتعاون ثقافي،كانت وراءه «مؤسسة فينكا بيهيا» التي أنشأتها جيني فيليبس حفيدة ماكسويل بيركنز صديق هيمنجواي والمحرر الذي تولى تحرير أعماله لسنوات في دار سكريبنر للنشر.

وتروي فيليبس أنها أثناء زيارتها هافانا في عام ٢٠٠١، بصحبة زوجها ومجموعة من الأصدقاء، ذهبت إلى متحف الروائي الشهير، وعندما أخبرت المشرفين عليه أنها حفيدة محرر هيمنجواي سمحوا لها بالدخول وحظيت بفرصة للاقتراب من كتبه ومكتبته وكل أغراضه، واكتشفت أيضًا أن هناك مجموعة من المراسلات بين جدها والروائي الأمريكي محفوظة لديهم، ولم تنشر من قبل، لكن لم يسمحوا لها بالاطلاع عليها. وقتها أدركت الكنز الذي يضمه ذلك المكان، كما لاحظت أثناء تواجدها داخل المنزل انهيارًا في سقف بعض الغرف نتيجة للأمطار، وأخبرها المشرفون على المنزل عندما سألت عن شجرة «القابوق» الشهيرة التي كان هيمنجواي يحبها والواقعة عند مدخل البيت أنهم اضطروا لقطعها بعدما امتدت جذورها أسفل أساسات البيت مهددة إياه بسقوطه. كان واضحًا أن المكان محتاجًا إلى ترميمات وتجديدات، وأدركت جيني أن الحكومة الكوبية لن تتمكن وحدها من القيام بها.

بعد عودتها إلى الولايات المتحدة سعت جيني وزوجها للحصول على موافقة من الكونجرس على التعاون بصفة استثنائية مع الحكومة الكوبية لتجديد وترميم هذا الأثر المهم المرتبط بواحد من أشهر الأدباء الأمريكيين في القرن العشرين. وقامت بتكوين مؤسسة «فينكا بيهيا» مع عضو الكونجرس الأمريكي جون بي ماكجوفن الذي كان يتمتع بعلاقات طيبة مع مسؤولين في الحكومة الكوبية. وخلال أشهر قليلة، كان الرئيس الكوبي فيديل كاسترو وعضو الكونجرس ماكجوفن يوقعان اتفاقية التعاون بين الحكومتين للحفاظ على هذا الإرث العالمي، يوم ١١ نوفمبر ٢٠٠٢ في احتفالية صغيرة أقيمت بجوار حمام السباحة في فينكا.

تشمل الاتفاقية العمل على جمع وتسجيل كل الوثائق الموجودة في قبو المنزل أو مرآب السيارات الذي تحول ليكون مقرًّا للمكاتب والمخازن، وتحويلها إلى مستندات رقمية وحفظها. وقد تم ذلك بالتعاون مع عدة مؤسسات أميركية من بينها مركز أبحاث العلوم الاجتماعية في نيويورك، أحد المؤسسات الرائدة في ذلك المجال. وقد وفر المركز المساعدة التقنية للخبراء الكوبيين لحفظ جميع رسائل وأوراق الكاتب الأمريكي رقميًّا وضمها إلى مجموعة هيمنجواي في متحف ومكتبة جون إف كينيدي في بوسطن بولاية ماساشوستس، على أن تبقى الأوراق الأصلية في بيته. وشملت تلك المرحلة حفظ ورقمنة نحو عشرة آلاف مستند، و٤٥٠٠ صورة، وخمس نسخ نادرة من مخطوطات أعماله.

ومنذ عام ٢٠٠٥، بدأت عملية ترميم البيت نفسه على مراحل مختلفة قامت بها مجموعة شركات أمريكية ومهندسون كوبيون تحت إشراف الحكومة الكوبية. وقد افتتحت مراحل الترميم الأولى في ٢٠٠٧، كما وُضعت أجهزة تكييف في كافة الغرف للحفاظ على المقتنيات داخل البيت خلال فصل الصيف شديد الحرارة، وتم توفير شبكة للتخلص من مياه الأمطار لحماية الأسقف والأساسات. وخضع القارب «بيلار» للتجديد وإعادته إلى حالته الأصلية، على يد مجموعة من بناة السفن في كوبا تحت إشراف فريق أمريكي متخصص.

كل المعلومات السابقة عرفتها بعد عودتي سواء من كتاب فياريال أو من موقع المؤسسة، فقد أدهشتني خلال الزيارة الحالة الرائعة للبيت، فالبناء من الخارج لا يوجد فيه شرخ واحد أو تآكل، أما الأثاث فجديد ولامع، والقماش مزهر بألوان زاهية، لم أشعر أنه مر نحو ٦٠ عامًا على ترك هيمنجواي لبيته.

في كل مكان يحمل رائحته في هافانا عرفت شيئًا عن الروائي الأمريكي، في غرفته بالفندق أو في حاناته الأثيرة، كنت أقترب منه شيئًا فشيئًا، من شخصه، من حياته، لكن في بيته في فينكا، كنت أخطو داخل دنياه وعالمه بكل تفاصيلهما. فالمكان لا يزال يحمل روح صاحبه كأنه يعيش فيه، يكشف لك عن أسرار تلمحها في عنوان كتاب أو صفحة منه. وتروي جيني فيلبس، أنه خلال زيارتها الأولى التقطت من مكتبته كتاب يتناول الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وهو مذكرات أحد قوادها الجنرال جوناثان «ستونوول» جاكسون، وفتحته بالصدفة على صفحة

دَوَّنَ فيها هيمنجواي رقمًا، وعندما ذهبت جيني إلى الصفحة المذكورة وجدت جملة تحتها خط، منها تبينت مصدر عنوان روايته «عبر النهر ونحو الأشجار» (١٩٥٠). وتضيف أنه حينها أدركت كيف تشكل فينكا بيهيا مستودعًا لخزائن من الأسرار لم تكتشف بعد عن الروائي الشهير. كما حدث ذلك أيضًا مع الكاتب والباحث أندرو فيلدمان بعدما قضى عامين يفحص رسائله وأوراقه في فينكا وكشف الكثير منها في كتابه[٨٣] ومقالاته، وما وجده الباحث الكوبي فيرناندو كريستوبال خلال بحثه في مكتبته، واستخلص منه علاقاته بمعاصريه من الروائيين في كوبا. قرأت كل ما توصلوا إليه بعد عودتي، ولكنني أحسست مثلهم خلال رحلتي، أن هذا المكان يخفي الكثير من الحكايات، وكلما شاهدت الصور أو لقطات الفيديو التي سجلتها، كنت أستعيد كل التفاصيل مجددًا كأني هناك مرة أخرى.

وتكرر الأمر ذاته مع فيلم «بابا هيمنجواي في كوبا»، الذي يحكي لمحات من سنواته فيها، وصور في فينكا بيهيا خلال فترة من العلاقات الودية القصيرة بين البلدين، تسببت فيها إدارة الرئيس السابق باراك أوباما، الذي قام أيضًا بزيارة إلى الجزيرة لأول مرة منذ بدأت القطيعة في ستينيات القرن الماضي. خلال مشاهدتي للفيلم، شعرت كأن الحياة دبت في هذا البيت العتيق، فالممثل الذي يقوم بدور هيمنجواي يشبهه كثيرًا في الملامح، والممثلون يتحركون داخل الغرف التي رأيتها خالية من البشر، وحمام السباحة عادت إليه مياهه وحياته، وطاولة الطعام لم

(٨٣) «إرنستو: القصة غير المروية عن هيمنجواي في كوبا الثائرة».

تعد أطباقها فارغة، وهيمنجواي وضيوفه يلتفون حولها.

كتب سيناريو الفيلم الصحفي الأمريكي دين بارت بيتيكليرك الذي ربطته علاقة صداقة بالأديب الشهير وزوجته يروي تفاصيلها في الفيلم. وتدور الأحداث حول صحفي شاب يعتبر هيمنجواي مثله الأعلى، ويكتب إليه رسالة بذلك المعنى. وفي أحد الأيام يتلقى مكالمة هاتفية منه يدعوه إلى زيارته في بيته في فينكا ومشاركته رحلة صيد. وخلال تلك الزيارة يتقرب دين من الكاتب وزوجته ماري، إلى حد أنه أصبح بمثابة ابن لهما في السنوات الأخيرة من حياة الروائي الأمريكي.

يتيح الفيلم، الذي صُوِّر في فينكا في عام ٢٠١٣، مشاهدة الغرف والأماكن التي لا يمكن مشاهدتها في الحقيقة مثل كوخ الضيوف أو غرفة ماري، مع ذلك لا نحصل على فرصة كافية لمشاهدة أثاث الأخيرة بأكمله كما وصفه فياريال، أو بورتريه هيمنجواي بريشة والدو بيرس. كما يعيد الفيلم قاربه «بيلار» إلى الحياة، على الرغم أن التصوير لم يتم في القارب الحقيقي، الذي برغم ترميمه وتجديده تمامًا، لا تسمح حالته بوضعه في المياه والإبحار به، فأخشابه مر عليها قرابة المائة عام، لذلك استعان مخرج الفيلم بنسخة مشابهة قدمتها له الشركة التي صنعت اليخت الأصلي.

والممتع في الفيلم هو أنك تشاهد تلك الرحلات، الأمر الذي لا يمكن أن تحصل عليه خلال زيارتك إلى فينكا، بالإضافة إلى صورة حقيقية لحياته في بيته، بكل تفاصيلها، طقوس الكتابة، وتسجيله لعدد الكلمات التي يكتبها كل يوم، هوية أصدقائه، والحفلات والولائم،

سباحته عاريًا في حمام السباحة، حتى تدريبه البيسبول لصغار البلدة، على الرغم أن الفيلم يتناول العامين الأخيرين في حياة هيمنجواي واحتفال زوجته ببلوغه ٦٠ عامًا في عام ١٩٥٩، ووفقًا لما قرأته من سيرة حياته، تلك التدريبات الخاصة بالبيسبول كانت خلال طفولة ابنه جريجوري وفي بدايات الأربعينيات. لكن يبدو أن المخرج أراد تقديم صورة متكاملة عن سنوات الأديب الشهير في كوبا حيث تضمن الفيلم بعض اللقطات في حانته الأثيرة فلوريديتا، وإقبال روادها لالتقاط الصور معه وعدد كؤوس الدايكيري التي كان يشربها.

وإذا كان الفيلم لم يقدم، في رأيي، صورة عميقة لكاتب مثل هيمنجواي عاش حياة حافلة، منحته خبرات متعددة، ونال أهم وأرفع الجوائز الصحفية والأدبية، لكن يُحسب له الاقتراب بشكل حميم من حياته في لؤلؤة الكاريبي، متيحًا للمشاهد الذي لم يسافر إلى كوبا التلصص على جانب من حياة الأديب الأمريكي الشهير فيها.

* * *

كوهيمَر.. البحر من دون العجوز

أنهيت جولتي في فينكا بيهيا، البيت الخاوي من سكانه، حمام السباحة الفارغ من مياهه، والقارب الذي يستقر على البر، ومقبرة ٤ من كلاب صاحب المكان، وتمثاله في ساحة المنزل يستقبل الزوار. عدت إلى سائق سيارة الأجرة حيث ينتظرني في الساحة الواسعة التي تظللها الأشجار أمام المرآب، اشتريت من الكافيتيريا التي صف سيارته إلى جوارها، قنينتَي مياه وعبوتَي آيس كريم، وأثناء تناولنا للمثلجات التي جاءت في وقتها لتلطف وطأة الطقس وساعات انتظاره لي، طلبت منه المرور ببلدة كوهيمَر ومطعم الشرفة في طريق عودتنا إلى وسط هافانا. وافق السائق الطيب تاركًا لي تحديد قيمة المشوار الإضافي، ملامحه كوبية أصيلة، أسمر، تخطى الستين بقليل، يذكرك بسائقي التاكسي في شوارع القاهرة، أو كأنه خرج من أحد أفلام صلاح أبو سيف أو كمال الشيخ، أو بوجه سانتياجو العجوز كما يصفه صاحب فينكا في بداية روايته: «***كان الرجل العجوز نحيلًا تنتشر التجاعيد العميقة في أنحاء وجهه، وقد ظهرت على وجنتيه بثور سمراء من سرطان الجلد الحميد الناشئ من انعكاس أشعة الشمس على مياه البحر في هذه المنطقة الاستوائية***»(٨٤).

(٨٤) من النسخة العربية لرواية «العجوز والبحر»، ترجمة د. غبريال وهبة، الدار المصرية اللبنانية، طبعة خاصة ضمن إصدارات مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨.

لم تكن كوهيمَر ومطعمها الشهير «لا تيراثا» (الشرفة) ضمن برنامج زياراتي في هافانا، رغم أن مَن قرأ «العجوز والبحر» قد يود رؤية القرية التي رسم هيمنجواي من ملامحها مشاهد روايته ومن شخصيات صياديها وحكاياتهم شخصية سانتياجو العجوز وقصته، واختار حانتها مسرحًا لبعض أحداث روايته. ومع أنه لم يقدم وصفًا تفصيليًّا لحانة الشرفة من الداخل، لكنَّ ذكرها في عدة مواضع ونقل الحوارات التي تدور فيها، يثير الفضول بشأن شكلها وأجوائها.

تبعد كوهيمَر عن فينكا بيهيا نحو عشر دقائق بالسيارة، وربما أقل، فلم أحسب الوقت أو شاهدت الطريق، كنت أفكر فيما حدث لي ولماذا تغيرت رحلتي وأصبحت من زيارة إلى هافانا، يشغل هيمنجواي جانبًا منها إلى رحلة اقتفاء كل أثر له فيها. خصوصًا وأنني لست متخصصة في كتاباته، ولكنني قرأت بعضها أو شاهدت الأفلام المأخوذة عنها. لم أعرف حينها السبب، واليوم أجد أنني كنت أقترب منه شيئًا فشيئًا، فقد أراد لي صاحبي بعد زيارة بيته أن أستكمل الصورة عن سنواته في فينكا بالذهاب إلى كوهيمَر، لأشاهد مياه خليجها الذي انطلق منه سانتياجو في رحلته أو هو نفسه في رحلاته. وربما يسعده في مرقده، أن أقضي أيامي في العاصمة الكوبية، أدور حوله فقط لأتعرف إليه وأكتشف المدينة من خلاله وأصبح مفتونة مثله بتلك الجزيرة وأهلها، وأمنيتي أن أعيش وسطهم باقي حياتي كما فعل، أكتب وأقرأ فقط لأسير على خطاه الأدبية أيضًا.

تقع قرية كوهيمَر، التي يعود تأسيسها للقرن السابع عشر، في الساحل الشمالي للجزيرة على بعد عشرة كيلومترات شرق العاصمة هافانا، على خليج مائي صغير، يصب فيه نهر كوهيمَر المأخوذ منه اسم القرية، وقد استخدم هيمنجواي هذا الخليج كمرفأ لقاربه.

في الشارع الرئيس، مارتي ريال، يوجد مطعم «لا تيراثا» أو الشرفة كترجمة حرفية للاسم. ويعتبر أكبر مطاعم البلدة وأهمها ويرجع تاريخ تأسسيسه إلى عام ١٩٢٥، على يد المهاجر الإسباني دون مانويل جارثيا رودريجز في ٢٠ مايو ١٩٢٥ كمستودع للنبيذ وبوديجا أطلق عليه اسم «لاس أريكاس» وهو نبات منتشر في المنطقة. وفي عام ١٩٤٠، اشتراه سالفادور بلانكو وهو تاجر وطاهٍ معروف وقرر تحويله من حانة عادية إلى مطعم على مستوى راقٍ. وبالفعل شاع اسم المطعم وانتشر حتى وصل معظم دول أمريكا اللاتينية وزاره عدد كبير من المشاهير، لكن لم يصنع سمعته العالمية سوى زيارات الروائي الأمريكي الشهير وتناوله طعامه فيه باستمرار، وبالتأكيد الحديث عنه في روايته.

وصلنا المطعم، فوجدته كوصف الرواية (***كانت محلًّا وحانة على قطعة من الأرض شبه مستوية في محاذاة البحر***)، ووجدت مفاجأة أخرى في انتظاري. كان المكان محاطًا بالسقالات الخشبية، حيث تجري عمليات ترميمه وتجديده داخليًّا وخارجيًّا، ولم يكن متاحًا سوى رؤية المبنى من الخارج فقط. تجولت حوله، وشاهدت البحر بجواره، والمنظر الذي تطل عليه نوافذه المهدمة، وحاولت التقاط الصور لما كان يراه صاحب نوبل عندما يجلس بداخله، لكنني لم أستطع اكتشاف طاولته، ولم

يسعدني الحظ بالجلوس عليها والاستمتاع عن قرب برؤية الخليج، أو تجربة أطباق «الشرفة» البحرية الشهيرة.

في الخليج الذي يطل عليه المطعم لم أجد قوارب للصيد ولا سانتياجو، لا أدرى هل لأن الساعة كانت الثانية ظهرًا، وذهب الصيادون للبحث عن رزقهم كما فعل العجوز، لم أنتبه إلى أنني طرحت سؤالي بصوت عالٍ إلا عندما أجابني مرافقي: «لم تعد كوهيمَر بلدة صيد مثل أيام بابا». ليكمل قائلًا إنه نشأ في قرية لا تبعد كثيرًا، وقد شهد في طفولته القريبة من زمن هيمنجواي ازدحام كوهيمَر بالقوارب، حيث كانت من أهم مناطق الصيد في المنطقة، أما اليوم فمثل أشياء أخرى كثيرة في البلاد، فقدت ثروتها من الأسماك وهجرها صيادوها سعيًا وراء مصادر أخرى للرزق، حتى «لا تيراثا» لم يعد مطعمًا أو حانة للصيادين بل صار مزارًا للسياح يبحثون فيه عن أثر جديد للكاتب الأميركي صاحب نوبل. وسألني: «هل تريدين رؤية التمثال الذي صنعه أهل كوهيمَر تكريمًا لهيمنجواي؟»، وافقت بحماس، كنت أود ذلك بالفعل لكنني شردت أفكر فيما قاله. كانت نبرة صوته حزينة كأنه يشكو همه وضيق الحال، لو لم يقابلني اليوم ويحصل على أجر يعادل بالعملة المحلية ٥٠٠ بيزو أو أكثر قليلًا، ما يوازي الراتب الشهري لطبيب في المستشفى الحكومي، كما قيل لي. هؤلاء الأطباء الذين عرفوا بمهارتهم حيث تعرف كوبا بنبوغها في مجال الطب حتى أن وقت انتشار وباء كورونا الذي اجتاح العالم منذ نهاية ٢٠١٩ وحتى تاريخ كتابة هذه السطور، استعانت دولٌ كثيرة ومن بينها الكويت بأطباء كوبيين للمساعدة في الحد من تأثير

فيروس كورونا المستجد كوفيد ١٩ [٨٥]. وسجلت كوبا أدنى أرقام في حالات الإصابة والوفيات به، وكانت هافانا وقت زيارتي لها بمنأى عنه.

تركنا «لا تيراثا» خلفنا واستكملنا طريقنا في شارع مارتي ريال، وفي نهايته انعطف السائق يمينًا فظهرت من بعيد قلعة «توريون دي كوهيمَر» التي شيدها الإسبان لحماية الميناء. يتوسط الساحة المقابلة لها تمثال الروائي الأمريكي، الذي اختار أهل القرية وضعه في المكان الذي طالما أبحر منه بقاربه، ليبقى بينهم كأنه لم يرحل. فقد وقع عليهم خبر انتحاره كصدمة كبيرة لم يصدقها كثيرون منهم عندما نقلتها محطات الإذاعة، وفكروا في تخليد ذكراه بتمثال، لكنَّ الصيادين البسطاء الذي يكسبون قوتهم يومًا بيوم، لم يكونوا يملكون سوى الحديد الموجود في قواربهم، سواء كان مروحة محرك، أو مرساة، وما يشبه ذلك، فجمعوا القطع الحديدية المختلفة وقدموها للنحَّات فرناندو بواتا مارتن، لكنها لم تكفِ سوى لصنع مجسم نصفي وضعوه على نصب صغير وسط دائرة من الأعمدة الرومانية.

وهناك حيث يولي هيمنجواي وجهه شطر الماء، التقيت ورفيقي السائق عددًا من سكان البلدة الذين حيونا بابتسامة واسعة وتبادلوا الحديث معنا، فأهالي تلك الجزيرة ودودون، ومنفتحون على الآخر، ما حببني فيها أكثر وأفهمني سر حب الكاتب الشهير لها.

---

(٨٥) كوفيد-١٩ هو مرض مُعْدٍ يؤثر على الجهاز التنفسي، وهو من سلالة فيروسات كورونا. ظهر أولًا في مدينة ووهان الصينية في ديسمبر ٢٠١٩، ثم تحول إلى جائحة أُصيب بها الملايين في جميع بلدان العالم وتسببت في وفاة أكثر من مليون شخص حتى وقت صدور هذا الكتاب.

على ظهر النصب، لوحة مكتوب عليها كلام بالإسبانية لم أتمكن من قراءته فقد ضاعت الحروف بفعل الزمن والعوامل الجوية، وبالبحث بعد عودتي اكتشفت أن الجملة المكتوبة بالإسبانية هي: «تعبيرًا عن الامتنان من سكان كوهيمَر لمؤلف «العجوز والبحر»، نُصب في ٢١ يوليو ١٩٦٢، في عيد ميلاده الثالث والستين»[٨٦].

وفي طريق العودة، مررنا مجددًا من أمام «لا تيراثا»، فأعدت تأمل المبنى المكون من طابقين ويحتل زاوية شارع مارتي ريال مع زقاق جانبي يصل إلى البحر، تحيط الشرفات بطابقه الثاني، في حين تملأ النوافذ الكبيرة الدور الأرضي مطلة على مياه الخليج الممتدة إلى البحر الواسع. أردت بشدة رؤية المكان من الداخل وأمسكت بهاتفي لأشاهد صوره في موقع البحث الشهير «جوجل» ثم تذكرت أنني في كوبا، حيث لا يُتاح الإنترنت طوال الوقت. وعند كتابة تلك السطور عدت لتأمل الصور التي التقطتها، ومقارنتها بصور التقطها المئات وربما الآلاف من مريدي هيمنجواي ممن أسعدهم الحظ بزيارة لا تيراثا، واكتشفت أنه من أكثر المطاعم أناقة ومن أجمل الأماكن التي ارتبطت باسم الروائي الأمريكي. فنوافذه المطلة على المياه، ذكرتني بواحد من أحب المطاعم إلى قلبي في مدينة الإسكندرية «زفيريون» في منطقة ميناء أبو قير، بشرفته الواسعة المطلة على البحر، لكن نوافذ لا تيراثا كانت أقرب إلى الماء عن زفيريون وكلها مطلية باللون البني ما يمنحه طرازًا كلاسيكيًّا.

(٨٦) كريستوفر بيكر، كتاب الرحلات «كوبا» من مجموعة موون.

من خلال الصور، شاهدت المطعم من الداخل، المشرب والطاولات مصنوعة من خشب الماهوجني الداكن، أما الكراسي فبعضها من الخيزران والبعض الآخر من الخشب. تتوزع الطاولات بجوار النوافذ وفي بقية المكان بشكل عشوائي. خلف طاولة المشرب تتراص زجاجات متنوعة من المشروبات على مجموعة من الرفوف الخشبية الأنيقة، تستقر فوقها لوحة مرسومة لخليج كوهيمَر، تصور مراكب الصيد عائدة بحمولتها من الأسماك وحولها طيور النورس البيضاء، وفي الخلفية تظهر القلعة. وليست هذه هي اللوحة الوحيدة بالمكان بل توجد أكثر من لوحة تصور مشاهد مختلفة للصيد والبحر والمياه الزرقاء الخلابة. يتميز المطعم أيضًا بمجموعته الخاصة من صور هيمنجواي التي تختلف عن بقية المطاعم والحانات الأخرى في هافانا. فتلك المجموعة المعروضة على جدران «لا تيراثا» من تصوير مصور واحد هو راؤول كورواليس ابن كوهيمَر الذي أصبح لاحقًا واحدًا من أشهر المصورين الفوتوغرافيين في البلاد. وتُميز مجموعة كورواليس التي تزين جدارين كبيرين في لا تيراثا أن معظمها بصحبة أهالي البلدة وصياديها، فنجد صورة لهيمنجواي برفقة مجموعة من الصبية يمسك بالحبل ويشد قاربه، وأخرى له وسط الأعمدة الرومانية التي يوجد تمثاله في منتصفها اليوم. صورة ثالثة مع أنسيلمو إرنانديث الذي يقال إنه أحد الذين ألهموه شخصية الصياد العجوز. والشائع أن هيمنجواي تأثر في رسمه لبطل روايته بقائد قاربه جريجوريو فوينتس، لكن هناك قصص كثيرة تشير إلى الصياد العجوز إرنانديث أيضًا، و إلى صياد

ثالث اسمه كارلوس جوتييريث، ليبدو أن هيمنجواي استلهم شخصية سانتياجو من كل الصيادين في كوبا. أما شخصية الفتى مانولين الذي يعاون العجوز في الرواية فهي وفقًا لمصادر متعددة تشبه كثيرًا ماندیتو ابن صاحب مطعم «لا تيراثا».

في أحد الزوايا حيث اعتاد الروائي الأمريكي الجلوس على الطاولة رقم ١١ الواقعة بين نافذتين كبيرتين تطلان على الخليج، تجد تمثالًا برونزيًّا صغيرًا له، تحيط برأسه ذيل سمكة مارلين، صنعه فنان إيطالي اسمه رينزو أورفييتو، تقرأ اسمه على لوحة معدنية صغيرة أسفل التمثال وأيضًا اسم الشخص الذي أهدى التمثال للمطعم.

ومثل الكثير من الأماكن التي عاش فيها هيمنجواي وتركت بصماتها في أعماله سواء في لؤلؤة الكاريبي أو غيرها وتلمح تأثيراتها في رواياته، تأتي بلدة كوهيمَر ومطعم لا تيراثا في الصدارة ذلك ليس فقط لتأثر هيمنجواي بالمكان والشخصيات في روايته، بل لأن قصة صراع الصياد العجوز مع القروش ومع سمكة المارلين تستند أيضًا إلى حكاية سمعها من الصيادين في لا تيراثا حين كان يسهر معهم ويقضي كثيرًا من وقته بصحبتهم قبل خروجه للصيد أوبعد عودته. حكاية صياد نجح في اصطياد سمكة مارلين ضخمة وفي طريق عودته بها هاجمته القروش وأكلت السمكة، ويتبقى منها مجرد رأس وذيل وعظام خالية. كان ذلك خلال سنوات الثلاثينيات، فمنذ عام ١٩٣٤ بدأت علاقة هيمنجواي بكوهيمَر، عندما أحضر قاربه الجديد الذي اشتراه في ذلك العام، إلى خليج كوهيمَر الصغير وانطلق منه مبحرًا إلى عرض المحيط. وفي نهاية

الأربعينيات بدأ العمل فيما كان يطلق عليه كتابًا ضخمًا، وغالبًا ما كان يشير إلى ما يكتبه بعنوان ثلاثية البحر والجو والأرض. وظل يكتب فيها لسنوات حتى أكمل الجزء الأول منها عن البحر وكان مقسمًا لأربعة أقسام، أحداثها تدور بين بيميني وكوبا. وفي عام ١٩٥١ أخذ الجزء الرابع مما كتبه وبنى عليه ما أصبح رواية «العجوز والبحر» والتي أنهاها في ستة أسابيع فقط. بينما أخذت أرملته ماري ويلش الأجزاء الأخرى، ونشرتها بعد وفاته في رواية بعنوان «جزر في التيار».

لم ينقل هيمنجواي في عمله الأشهر فقط قصص الصيادين، وإنما أجواء لا تيراثا وما كان يدور فيه، ففي الصفحة الرابعة من الرواية[٨٧]، نقرأ: «***جلسا في «الشرفة»، وراح كثير من الصيادين يهزؤون من العجوز، ولم يُثْرْ ذلك غضبه. نظر إليه قدامى الصيادين في أسى وحزن. بيد أنهم لم يُظهروا ذلك، وتحدثوا بأدب عن التيار المائي الذي يجرف شباكهم وحبالهم في الأعماق، وعن الطقس الجيد، وعما شاهدوه في حياتهم مع البحر***». تلك كانت الأحاديث التي تدور دائمًا في لا تيراثا في زمن صاحب نوبل وبينه وبينهم. كنت أتمنى وأنا أعيد قراءة الرواية بعد عودتي أن أعيش التجربة ذاتها في لا تيراثا أستمع لأحاديث الصيادين فيها على الرغم من تأكدي أنه اليوم لم يعد حانة للصيادين بل مطعمًا للسائحين.

في الرواية أيضًا يمكنك أن تتلمس ملامح شخصية قائد قاربه جريجوريو فوينتس، أو جريجورين كما كان يناديه، من خلال الأفكار

(٨٧) من الترجمة العربية نسخة مكتبة الأسرة إصدارات عام ١٩٩٨، ترجمة د. غبريال وهبة، وفي الإنجليزية نجد السطور ذاتها في الصفحة الثالثة من الرواية.

التي تدور في رأس سانتياجو وحديثه إلى نفسه خلال رحلة العودة بصيده، فلم تكن علاقة هيمنجواي وفوينتس، علاقة رئيس ومرؤوس، بل صداقة وحوار متبادل بين الاثنين تشي بإعجاب الكاتب الأميركي بجريجوريو منذ لقائهما الأول الذي خطته لهما الأقدار في عرض البحر.

وتروي جيني فيليبس حفيدة ماكس(ماكسويل) بيركنز محرر هيمنجواي، أن هذا اللقاء حدث بالمصادفة، فقد كان جدها في رحلة صيد بصحبة صديقه الكاتب، عندما ضلت مركبهما طريقها بفعل عاصفة هوجاء، وبعد أيام من الضياع والتيه في عرض البحر التقيا صيادًا من جزر الكناري، قدم لهما وجبة طعام ودلهما على طريق العودة. كان هيمنجواي معجبًا بترتيب شكل قارب ذلك الصياد (فوينتس) وفقًا لبيركنز، وعندما اشترى يخته بعد ذلك بسنوات، ذهب يبحث عنه ليوليه مهمة قيادته. وانتقل فوينتس ليقيم في كوهيمَر قريبًا ويصبح واحدًا من أهلها، والأقرب فيهم إلى هيمنجواي، يحكي له الحكايات عن القرية وما يحدث فيها. وكان فوينتس أيضًا الساقي الخاص بهيمنجواي طوال مدة إقامته في البحر، فهو يصنع أفضل الكوكتيلات والمشروبات ومن بينها الموهيتو، الذي لم يتذوقه هيمنجواي في لابوديجيتا كما تروج الحكايات، وإنما من يد فوينتس[٨٨].

أثناء مغادرتنا كوهيمَر، لاحظت بيوتها البسيطة المبنية معظمها من دور واحد، وأيضًا انتشار السيارات الأمريكية القديمة، لم تكن مثل تلك

(٨٨) فيليب جرين، «أن تحصل على واحد وعلى آخر- رفيق كوكتيل هيمنجواي».

الموديلات الفخيمة المكشوفة بألوانها الزاهية التي تشاهدها في شوارع هافانا، يتجول فيها السائحون. كانت كوهيمَر ببيوتها وسياراتها أقرب ما يكون للزمن الذي عاشه الكاتب الأمريكي ببساطته وهدوئه، وتمنيت آنذاك قضاء وقت أطول في تلك البلدة الساكنة القريبة من البحر التي تمنحك شعورًا بالراحة النفسية.

❊ ❊ ❊

فلوريديتا.. ملتقى الأصحاب

بينما تخيلت روحه تصحبني في كل شارع مشى فيه أو مكان سكنه، في هذا المكان تحديدًا التقيته واقفًا في ركنه المفضل يستند بمرفقه إلى طاولة المشرب، يتأمل رواد المكان وضجيجهم، ويستقبل مَن يبحثون عنه مثلي، مرحبًا بهم في حانته الأثيرة «إل فلوريديتا»، التي دخلها بالمصادفة باحثًا عن دورة مياه، فأصبح من أشهر زبائنها وصاحب الرقم القياسي لمشروبها ذائع الصيت «الدايكيري». وبسببه حظيت الحانة بسمعتها العالمية إلى يومنا هذا، وارتبطت باسمه، ويصعب أن يفوت سائح من عشاقه زيارتها دون أن يجرب هذا الكوكتيل المثلج، ويتشارك النخب مع صاحب نوبل في صورة للذكرى بجوار تمثاله المصنوع بالحجم الطبيعي من البرونز، الواقف في زاوية المشرب في المكان الذي طالما وقف فيه الروائي نفسه.

يشغل مطعم وحانة «فلوريديتا» موقعًا رئيسًا على خريطة هافانا الجغرافية والثقافية والتاريخية على حد سواء. تأسس البار في عام ١٨١٧ تحت اسم «لا بينيا دي بلاتا» وتعني ثمرة الأناناس الفضية، لكن نال شهرته الحقيقية، في مطلع عشرينيات القرن الماضي، حينما كانت هافانا تسعى بقوة نحو الحرية والحداثة والتطور، وإنشاء عاصمة

على الطراز الأوروربي، تشبه مبانيها أكبر المدن في القارة البعيدة، كالكابيتوليو، والجران تياترو أو المسرح الكبير ويحمل حاليًا اسم الباليرينا أليثيا ألونصو. ويقع «فلوريديتا» في ناصية شارعي أوبيسبو ومونسيرات، قريبًا من الساحة الممتدة أمام ذلك المسرح حيث تفصل بينهما الحديقة المركزية أو بارك ثنترال التي يتوسطها تمثال المناضل الكوبي خوسيه مارتي.

في ذلك الموقع الاستراتيجي، تلمحه بلونه الوردي المميز ولافتته ذات الحروف المضيئة، ويذكر الصحفي البيروفي عمر زيفايوس[٨٩] أن فلوريديتا خلال تلك الفترة كان ملتقى النخبة المثقفة في العاصمة الكوبية، متسائلًا هل حدث ذلك نتيجة وجود الروائي الأمريكي فيها، فكوَّن حلقة ثقافية أم بسبب السمعة التي اكتسبها المكان في سنوات العشرينيات على يد صاحبه كونستانينو ريبالايغوا بيرت، المهاجر الإسباني الذي جاء إلى كوبا ككثير من مواطنيه ليستقر فيها في أعقاب الحرب العالمية الأولى والدمار الذي لحق بالاقتصاد في أوروبا. كان كونستانتينو ساقيًا (بارمان) ماهرًا استطاع أن يطور في مشروب الدايكيري الذي نشأ في جنوب شرق الجزيرة، وتحديدًا في مدينة سانتياجو دي كوبا، ويقدمه بالشكل المعروف اليوم. فهو أول من استخدم الثلج المجروش الناعم وأضافه إلى الرُّم الشهير في كوكتيل فاخر، ليصبح رمز الحانة التي تغير اسمها إلى «إل فلوريديتا». وتصير حانته «مهد الدايكيري»، الجملة التي تراها خلف المشرب على خزانة

(٨٩) « هيمنجواي المجهول»، (أربع حكايات غير معروفة عن الكاتب في بيرو والعالم).

من خشب الماهوجني مطلية باللون الأحمر، وقد دونت بحروف ذهبية بارزة، باللغتين الإنجليزية والإسبانية:

«The Cradle of the Daiquiri» أو «La Cuna del Daiquiri».

كان لقائي مع صاحب نوبل في فلوريديتا، بعد انتهائي من زيارة فينكا وكوهيمَر، فقد عدت إلى هابانا بييخا، لأسير مجددًا في شوارعها على خطاه. انطلقت من فندق «أمبوس موندوس» يسارًا في شارع أوبيسبو حتى نهايته. كانت المدينة القديمة قد تخلصت من صخبها النهاري، واختفى منها السياح والباعة الجائلون والفنانون الهواة، وهدأت حركة البيع والشراء في متاجرها، فعند الساعة السادسة تغلق المحال أبوابها، وتبقى فقط المطاعم والحانات. أما سماء هافانا فتلونت بدرجات القرمزي تعلن انسحاب آخر خيوط الشمس وراء المحيط، تاركة المدينة في ظلام خافت أضفى عليها مسحة رمادية باهتة كأنها صورة بالأبيض والأسود، في حين تتألق لافتة فلوريديتا المضيئة، ليبدو المشهد بأكمله لقطة من أفلام هوليوود في الأربعينيات؛ حيث مباني المدينة التاريخية نصف مظلمة، وأنغام موسيقى صاخبة تحتل الخلفية، تزداد كلما اقتربتُ منه، حتى فتحت الباب الزجاجي، لأصبح داخل الفيلم ذاته وقد اكتسى بالألوان.

تحتفظ حانة فلوريديتا بطرازها الكلاسيكي كما تشاهدها في صور هيمنجواي القديمة، حيث خشب الماهوجني، بلونه البني الداكن يتقاطع في أناقة مع اللون الأحمر للحوائط والأثاث المخملي. يستقر في مدخل الباب مجسم ضخم لكأس مشروب الدايكيري بالفوهة

المخروطية الواسعة، وفي الركن على اليسار فرقة موسيقية صغيرة تمتد أمامها الطاولات الممتلئة بالزبائن والتي تشغل المساحة بين الباب والمشرب المزدحم أيضًا حيث لا مكان لتقف عنده أو تجلس على أي من الكراسي المصطفة أمامه، بينما يقف تمثاله في نهاية المشرب. وحوله زوار المكان يتهافتون على التقاط الصور معه ومشاركته نخب كوكتيل الدايكيري، الذي لن تجد سواه تقريبًا على الطاولات أو في أيدي الواقفين.

كان صوت مغنيتي الفرقة وصخب الموسيقى وهمهمة الزبائن تصنع خلفية مناسبة للمشهد الذي صرت جزءًا منه، وشعرت أنني سأسمع من بعيد صراخ المخرج يعترض على تطفلي أو يصيح «ستوب»، لكن ذلك لم يحدث، بل وجدتني أشارك في تصوير الفيلم الحقيقي الذي أعيشه، اقتربت من المشرب ووقفت أراقب الساقي المنشغل بإضافة المكونات المختلفة إلى عدد من الخلاطات الكهربائية الموضوعة أمامه، فسألته فيما يستخدمها، لكن الساقي لم يجبني، بل بادر رجل يقف إلى جواري قائلًا: «في صناعة الدايكيري مشروب هيمنجواي». في تلك اللحظة تخيلت صوتًا يهمس لكن هذا لم يكن مشروب هيمنجواي، وإنما «دوبل فروزن دايكيري»، رددت بصوت مرتفع موضحة: «وهو نسخة مضاعفة من المشروب المثلج، من دون سكر، سمي بعد رحيله «بابا دوبلي»، وتعني مشروب «بابا المزدوج»، شعرت بالفخر من معلوماتي، فحياني الرجل الواقف رافعًا كأسه، في حين ابتسم الساقي واسمه أليخاندرو، كما دُوِّنَ على سترته الحمراء، مؤكدًا كلامي بنظرة ودودة.

كان الأديب الشهير يخشى الإصابة بمرض السكري؛ لذا يفضل مشروبه قليل السكر، مع جرعة مضاعفة من الرُّم، وتروي هيلاري ابنة شقيقه، عن لقائه الأول مع هذا الكوكتيل، أنه في ظهيرة أحد الأيام أثناء زياراته الأولى إلى هافانا، دخل الحانة باحثًا عن دورة مياه ليقضي حاجته، وفي طريقه للخروج، سمع الجالسون يتجادلون بشأن الدايكيري، فطلب كأسا وبعد أول رشفة قال للساقي وصاحب المكان كوستانتي: «أريد كأسًا أخرى بجرعة روم مزدوجة وسكر أقل»، وهكذا صنع علاقته الخاصة مع فلوريديتا ومشروبها، وأصبحت تلك الحانة هي مكانه المفضل في المدينة.

وقد وصفه هيمنجواي في روايته «جزر في التيار»: «***يبدو مشروب الدايكيري المثلج، الذي تم خلطه بطريقة متقنة، مثل مياه البحر الذي تسقط فيه الأمواج بعيدًا عن قوس سفينة تسير بسرعة ثلاثين عقدة***»، ويكمل واصفًا مذاقه على لسان بطل الرواية توماس هدسون: «***لا تشعر فيه بوجود طعم الكحول، بل عندما تشربه يمنحك إحساس الانزلاق على منحدر جليدي، ثلوجه خفيفة كالرذاذ***».

ويروي فيليب جرين في كتابه[٩٠] أن هيمنجواي تحدى كونستانتين في أحد أيام عام ١٩٤٢ وشرب ١٧ كأسًا من بابا دوبلي، أي ١٧ جرعة مضاعفة من الدايكيري، وإلى اليوم لم يكسر أي من رواد فلوريديتا هذا الرقم. وفي إحدى رسائله لزوجته الثالثة مارثا جيلهورن بتاريخ ٥ يونيو ١٩٤٣، كتب هيمنجواي يحدثها عن كونستانتين والدايكيري،

(٩٠) فيليب جرين، «أن تحصل على واحد وعلى آخر – رفيق كوكتيل هيمجواي».

ويقول: «***كل شيء رائع هنا في الناسيونال، ولا ينقصه إلا وجودكِ عزيزتي، لو تستطيعين فقط مشاهدة المنظر من غرفتي مطلًا على تيار الخليج البديع، وآه من كوكتيلات الدايكيري التي لا يصنعها شخص مثل العجوز كونستانتينو***».

كان المكان مزدحمًا للغاية، لكنني تجولت في المطعم الملحق وبقية الأرجاء وانتظرت حتى خلا مقعد إلى جوار تمثاله، أتاح لي موقعي في زاوية المشرب تأمل كيف يتم عمل الدايكيري في الخلاطات الكهربائية ذات الدورق الزجاجي، فقد كان الساقي يملؤها بالثلج من براد أسفل المشرب، ثم يضيف عصير الليمون المركز، والسكر، ومزيدًا من الثلج، ثم يضرب المكونات مع إضافة الرُّم مباشرة من الزجاجة على الخليط أثناء دوران الخلاط، لاحظت أنه مثل ساقي لابوديجيتا لا يستخدم كأسًا للعيار بل يصب الرُّم من الزجاجة مباشرة، وكذلك باقي المكونات اعتمادًا على خبرته. وأخيرًا، يصب الخليط الأبيض الذي يشبه رغاوي أمواج البحر، في الكؤوس ذات الفوهة الواسعة المخروطية الشكل المرصوصة أمامه ثم يقدمها للزبائن.

تلفتت حولي لأشاهد صور هيمنجواي تنتشر على الجدران المحيطة بنا، فعلى اليسار يوجد تمثال نصفي آخر له، أسفله صورته مع الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، يظهر فيها هيمنجواي مرتديًا نظارته الشمسية يقترب من كاسترو ويحدثه كأنه يهمس في أذنه، هذه الصورة بالتأكيد من المجموعة التي تم التقاطها في لقائهما الوحيد خلال مسابقة الصيد في مايو ١٩٦٠. وأعلى التمثال صورة أخرى له يصافح فيها كاسترو، تتوزع حولها مجموعة أخرى من الصور للكاتب الشهير

في المكان، من بينها صورته واقفا في ركنه المفضل مع مجموعة من الأصدقاء، وأخرى في احتفال رأس السنة عام ١٩٥١ وفقًا للتاريخ المدون عليها، وثالثة بصحبة زوجته ماري وأصدقائهما نلمح من بينهم النجم المعروف سبنسر تراسي أمام طاولة المشرب حيث تتراص كؤوس الدايكيري الفارغة، وصورة رابعة لزوجته ماري تعزف على الجيتار.

كان فلوريديتا مكانًا للاحتفال ولقاء الأصدقاء وأيضًا بديلًا عن الوطن، يقول هيمنجواي في حواره مع روبرت مانتج[٩١]: «***عندما أشعر بحنين لبلدي، آتي إلى فلوريديتا، ففي أي وقت ستجد أمريكيين، وبالتالي أستعيد أجواء الحانات هناك، أتحدث معهم في الأمور المشتركة كالبيسبول وغيرها بلكنة أمريكية ومزاج ومزاح متشابهين***». ويضيف: «***قد تكون فلوريديتا أقرب إلى أمريكا من نواحٍ عدة أكثر من نيويورك ذاتها***».

يعتز فلوريديتا بعراقته فقد احتفل في عام ٢٠١٧ بمرور قرنين من الزمان على افتتاحه تحت اسم «لا بينيا دي بلاتا»، وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يتغير كثيرًا. لكن مع حصول كوبا على الاستقلال وانفصالها عن إسبانيا في عام ١٨٩٨، بدأت هافانا تتطلع نحو الشقيقة الكبرى الولايات المتحدة التي ساعدتها على نيل استقلالها، وبدأت المشروبات الكحولية الأمريكية والكوكتيلات المتنوعة تغزو حاناتها. وفي عام ١٩١٠، وصل هافانا الشقيقان سالا باريراس قادمين من إقليم

(٩١) أجرى روبرت مانتج الحوار عقب حصول هيمنجواي على نوبل، وأعاد نشره في «ذي أتلانتيك» في عام ١٩٦٥.

كاتالونيا في إسبانيا، اشتريا الحانة وقاما بتجديدها وإطلاق اسم «لا فلوريدا» عليها تيمنًا بكل ما هو أمريكي. وأصبحت الحانة مقصد الطبقة الراقية من رجال الأعمال والأدباء وغيرهم، وكعادة الكوبيين في تصغير الأسماء، صارت «فلوريديتا» وهو الاسم الموجود إلى يومنا هذا. قام الأخوان باريراس بتعيين ساقٍ محترف من أبناء منطقتهما يُدعى كونستاتينو ريبالاجوا بيرت، وخلال سنوات قليلة اكتسب المكان سمعة كبيرة وحقق كونستاتينو نجاحًا باهرًا، واشترى فلوريديتا وأصبح المالك الجديد. وقد عمل الـ «جران كونستانتي» كما كان يطلقون عليه وتعني كونستانتي العظيم، على تطوير مشروب الدايكيري خصوصًا بعد اكتشافه للماكينة التي تصنع الثلج المجروش الناعم، ما يمنحه الشكل والمذاق الذين تحدث عنهما هيمنجواي، وهو مَن قام أيضًا بالتركيبة الخاصة بمكونات الدايكيري التي تقدم اليوم في فلوريديتا.

ويعتقد الكثيرون أنه لولا ارتباط اسم كاتب كبير مثل هيمنجواي بالمكان لما حاز تلك الشهرة العالمية حتى يومنا هذا، لكن الأكيد أن فلوريديتا كان يتمتع بسمعة كبيرة خلال الثلاثينيات اعتمادًا على اسم ساقيه ومالكه. ويذكر الناقد الرياضي الأمريكي جاك كودي عند زيارته هافانا في مطلع تلك السنوات أنه عندما سأل الساقي في فندق «ناسيونال» أهم فنادق العاصمة آنذاك، عن أفضل حانة وأفضل ساق فأجابه بلا تردد الجران كونستانتي في فلوريديتا. وباستطلاع الآراء في أكبر الحانات وقتها «سلوبي جو» وحانة فندق إشبيلية وغيرها، أجمع السقاة أن كونستانتي هو أفضلهم في هافانا.

وفي كل عام تقام مسابقة لتتويج الساقي الذي يستحق لقب ملك الدايكيري، تيمنًا بصاحب المكان، ويأتي لحضور تلك المسابقة كثير من السقاة العالميين احتفالًا بهذا المشروب الكوبي التقليدي. كل هذه الأسباب جعلت مجلة «اسكواير» الأمريكية تصنف «فلوريديتا» في عام ١٩٥٣ من بين أشهر ٧ حانات على مستوى العالم. وفي عام ١٩٩٢ منحته الأكاديمية الأمريكية لعلوم الطهي جائزة خمس نجوم الماسية بوصفه ملك الدايكيري. وقد رأيت لوحة معدنية صغيرة مدون عليها اللقب الذي منحته إياه مجلة اسكواير، أسفل صفحات المجلة محفوظة داخل إطار خشبي رقيق. لم تكن هناك فرصة للتحدث مع الساقي أليخاندرو عن هيمنجواي، فقررت العودة في وقت آخر أقل صخبًا.

في عصر اليوم التالي دعاني مضيفي في هافانا، كما أحب أن أسميه أحيانًا، إلى حانته الأثيرة مرة ثانية، حيث كانت خاليةً وهادئة في غياب الفرقة الموسيقية والزبائن. اخترت مقعدًا على المشرب أمام الساقي وطلبت مشروبًا غازيًّا، فأعاد طلبي مستوضحًا كوكا كولا أم بابا دوبلي؟ أبديت دهشتي لأن الساقي أليخاندرو (وتنطق أليهاندرو) تذكرني بالرغم من مرور العشرات بل المئات عليه يوميًّا، واعتبرتها في سري علامة أخرى من مضيفي، فأجابني أن مَن يعرفون مشروب «بابا دوبلي» عادة يكونون من المهتمين بالكاتب الأمريكي وحياته، وفي الغالب يعودون مرة ثانية، فابتسمت وقلت: «وها أنذا قد عدت»، ولسان حالي يقول: وربما أعود مرات ومرات. كانت سيرته كافية لبدء الحديث

عن صاحبي، خصوصًا بعدما أخبرته عن مهنتي والمقال الذي أكتبه عن هيمنجواي. حكى لي أليهاندرو أنه التحق بالعمل في فلوريديتا عام ١٩٩٨، وكان مساعدًا لأنطونيو ميلان، آخر السقاة الذين عاصروا الروائي الأمريكي بعد استلامه الراية من الجران كونستانتي الذي توفي عام ١٩٥٢. وكان ميلان يحفظ وصفات المشروبات عن ظهر قلب، وقد علمها لأليهاندرو الذي ينقلها بدوره لمساعديه.

وكشف لي أليهاندرو مثلًا أن مشروب «بابا دوبلي» كان الجران كونستانتي يغير في مكوناته، كأن يضيف إليه عصير الجريب فروت بدلًا من الليمون فيصبح أكثر مرارة. وعندما سألته كيف يمكنه صنع كميات كبيرة بمقادير مضبوطة من دون استخدام معيار محدد للرُّم، فكما رأيت يضيفه مباشرة من الزجاجة، قال: أراقب حركة الثلج في الخلاط وعندما أرى هناك حفرة تتشكل في وسطه عند الوصول لمقدار الرُّم المضبوط، أدرك بخبرتي في صنع الدايكيري أن هذا يكفي وأن الكوكتيل سيكون مذاقه مضبوطًا.

وعن زيارات هيمنجواي وعلاقته بالمكان، قال: إن «بابا» كان يأتي كثيرًا إلى فلوريديتا فلم يكن يقضي سهراته فيها فقط بصحبة الأصدقاء، بل أضاف أنه سمع من ميلان الذي نقل بدوره عن الجران كونستانتي، أنه كان يأتي وحده في فترات الظهيرة، في سنوات الثلاثينيات، ليراجع روايته «لمن تُدق الأجراس؟»[٩٢].

(٩٢) كتبها خلال إقامته بفندق أمبوس موندوس في الثلاثينيات، ونشرت في عام ١٩٤٠.

خلال تلك السنوات أيضًا، تعرف الروائي الأمريكي في فلوريديتا إلى امرأة ذات جمال خاص هي ليوبولدينا رودريجز، ستجمعه بها علاقة ممتدة. كان هيمنجواي، خلال زياراته الأولى للمدينة بمفرده، يتردد على فتيات الهوى في مناطقهن الشهيرة آنذاك، ساحة سان فرانسيسكو دي أسيس، قريبًا من الميناء، أو ساحة البخار (لابلاثا دي فابور) عند مبنى الكابيتوليو، الذي يفصله عن فلوريديتا شارع واحد. وكانت ليوبولدينا فتاة ليل لكن مختلفة، ذات حضور وجاذبية طاغية، حينما مرت بجواره في الحانة، لفتت نظره بلون بشرتها الخمرية الناعمة كالحرير وشعرها الأسود، الأوصاف التي تنطبق على شخصية ليليانا لا أونيستا في روايته «جزر في التيار»[٩٣]، حيث استلهمها من ليوبولدينا بملامحها وحركاتها، ويصفها قائلًا: « ***كان أثرها يمتد حتى نهاية طاولة المشرب، وهي تتحدث مع الرجال الذين يجلسون خلال مرورها بينما تبتسم للآخرين، فهي تمتلك ابتسامة ساحرة وعينين داكنتين وشعرًا أسود خلابًا*** ».

كانت ليوبولدينا تتمتع باحترام الجميع في فلوريديتا، ويسمح لها بارتياد المكان من دون مرافق، كما يذكر أندرو فيلدمان في كتابه[٩٤] نقلًا عن ابنة شقيقتها إلسي بوليت، التي تعمل في راديو كوبا، وتحكي أن خالتها كانت شخصية جذابة، تختلف عن غيرها من النساء اللاتي كن يعشن بمفردهن في ذلك الزمن ويرتبطن بعلاقات حرة مع الرجال، فلم تكن تشبه فتيات الليل، بل كانت مثقفة ولبقة وذات حضور آسر،

(٩٣) نشرتها أرملته ماري ويلش بعد وفاته في عام ١٩٧٠.

(٩٤) «إرنستو: القصة غير المروية عن هيمنجواي في كوبا الثائرة».

ومن تتحدث معهم، فهم إما يعجبون وإما يغرمون بها. كما حدث مع الروائي الأمريكي، الذي ارتبط معها بعلاقة امتدت لسنوات، ولم يتعامل معها كامرأة سيئة السمعة، بل كملهمة وصديقة، وكان يتكفل بمصاريفها وإيجار شقتها في شارع لا إنفانتا في هافانا القديمة. وتذكر إلسي المولودة في عام ١٩٤١، أنها التقته في طفولتها خلال زياراتها لخالتها، وكانت ليوبولدينا أيضًا تذهب إليه في بيته في فينكا، في غياب زوجته الثالثة مارثا، وقابلت ابنه الأكبر جاك خلال زيارته لوالده مطلع الأربعينيات.

كما يحكي الصحفي كامبوامور أن هيمنجواي وليوبولدينا كانا يتحدثان بالساعات خلال سهرات المجموعة في فلوريديتا، وكانت ترافقه في كل مكان تقريبًا، فتذهب معه إلى حلبات الملاكمة ليشاهدا صديقه كيد تورنيرو، ونادي اليخت والإستاد. كما كانت تقرأ له أوراق التاروت التي تستكشف الطالع، وقد تنبأت بفوز روايته «العجوز والبحر» بجائزة، وهو ما حدث بالفعل. ويتحدث عنها هيمنجواي في رسالته إلى صديقه والاس ماير عقب حصوله على جائزة بوليتزر في عام ١٩٥٣، حيث يقول: «***أنا متأكد من أن عاهرتي العجوز ليوبولدينا التي كتابها المفضل هو ما تسميه «قصص قصيرة كثيرة جدًا بقلم إرنست هيمنجواي» احتفلت بالجائزة مع أصدقائي الآخرين في فلوريديتا. ربما تعتقد ليوبولدينا وشركاؤها أنها جائزة نوبل وهم ينتظرونني للعودة وإنفاق المال***»[٩٥].

(٩٥) «الرسائل» الجزء الثاني، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع».

وتُعرف ليوبولدينا بأنها قارئة جيدة، وهي الوحيدة التي سمح لها بأن تقرأ مخطوطات رواياته، وقد أضافت بملاحظاتها ونقدها لكتاباته كثيرًا، وهي أيضًا من قربته من الثقافة الشعبية، وكانت صاحبة فكرة إهداء ميدالية نوبل إلى كنيسة العذراء «لا بيرخن دي لا كاريداد دل كوبري»، وفقًا لما رواه كامبوامور.

وقد استمرت علاقتهما حتى وفاتها في منتصف الخمسينيات،كما تؤكد ابنة شقيقتها، أن تلك العلاقة الممتدة منذ الثلاثينيات تتطابق مع ما حكاه في «جزر في التيار» عن امتداد الصداقة نحو ٢٥ عامًا بين ليليانا التي استلهمها من ليوبولدينا وبطل الرواية توماس هدسون. وقد أنفق هيمنجواي على علاجها عندما أُصيبت بالسرطان، ودفع تكاليف جنازتها، وصاحَبَها حتى مثواها الأخير. وتوجد صورة وحيدة لهما معًا، التقطها كامبوامور، وهما يجلسان متقابلين كل منهما يمسك بكأسه، وبينما تنظر ليوبولدينا التي تغطي شَعرها بوشاح أبيض بنقاط سوداء في كأسها، ترى إرنست هائمًا، عيناه معلقتان بها في نظرة محب ولهان، حرص على أن يغرق حبيبته بالحب والاهتمام حتى بعد وفاتها. فقد دفع لحارس المقابر نقودًا كي يضع الورد على قبرها كل يوم حتى أثناء غيابه عن كوبا. وقد عثر الصحفي والكاتب البيروفي عمر زيفايوس على تلك الصورة إلى جوار سرير هيمنجواي في غرفته بفندق «أمبوس موندوس»[٩٦].

(٩٦) لم تكن الصورة موجودة عند زيارتي للغرفة.

ويُلقي زيفايوس المزيد من الضوء عن حياة ليوبولدينا قبل هيمنجواي، من خلال لقاءاته مع بعض أفراد أسرتها، ويقول إنها لم تعرف أبوها، لكنها نشأت مع والدتها التي كانت تعمل في بيت إحدى الأسر الثرية، حيث تلقت تعليمًا جيدًا مع أبنائها. وعندما كبرت تمكنت من السفر إلى إسبانيا، والتقت السياسي المعروف خوسيه أنطونيو بريمو إي ريفيرا، مؤسس الكتائب الإسبانية فالانخيس، وارتبطت بعلاقة عاطفية معه، ثم عادت إلى كوبا في الثلاثينيات وتعرفت على الروائي الأمريكي. وأصبحت ضمن مجموعة الأصدقاء الكوبيين الذين كان يقابلهم في فلوريديتا، وتضم الروائي إنريكِه سيربا والصحفي فيرناندو ج. كامبوامور والطبيب خوسيه لويس هيريرا سوتولونجو وشقيقه المحاسب روبيرتو هيريرا سوتولونجو وآخرين(٩٧).

ظلت فلوريديتا الحانة المفضلة للكاتب الشهير حتى بعد انتقاله إلى فينكا، فقد كان يتردد عليها بشكل مستمر. وتتردد بعض الحكايات عن خلافات حدثت بينه وبين زوجته مارثا جيلهورن؛ لأنه كان يسهر في فلوريديتا كثيرًا. كما كان يدعو ضيوفه الذين يزورونه في فينكا ليتذوقوا الدايكيري من أيدي الجران كونستانتي، من بينهم النجمة آفا جاردنر وسبنسر تراسي وإيرول فلين وجاري كوبر. وكان يحتفل فيها بالمناسبات المختلفة كما تظهر صورته في حفل رأس السنة استقبالًا للعام ١٩٥١. وعند حصوله على وسام كارلوس مانويل دي ثيسبيديس، في يوم ميلاده الخامس والخمسين في ٢١ يوليو ١٩٥٤ من الرئيس

(٩٧) «هيمنجواي المجهول»، (أربع حكايات غير معروفة عن الكاتب في بيرو والعالم).

الكوبي فولهينسيو باتيستا في احتفالية أُقيمت في نادي اليخت، أعقبها حفل مع الأصدقاء في فلوريديتا.

ووفقًا أيضًا لمساعدته الشخصية فاليري دنبي سميث، كان يتناول العشاء يوم السبت في فلوريديتا، مضيفة أنها احتفلت هناك بعيد ميلادها العشرين، في عام ١٩٦٠، بصحبة إرنست وماري اللذين غنيا لها أغنية عيد ميلاد سعيد بالإسبانية.

في فلوريديتا، تقدمت خطوة أخرى من عالمه، ليزيح صاحب نوبل النقاب عن أسرار جديدة من حياته. كأن سعيي في أثره وزياراتي لكل تلك الأماكن في هافانا هو مجرد بداية تشويقية، تأتي بعدها الحكايات التي كنت أكتشفها في كل كتاب أو مقال عنه أو منه.

❊ ❊ ❊

دوس إرمانوس.. المخبأ المثالي

في عصر نهاري الثالث في هافانا، كنت أجلس في مطعم دوس إرمانوس، أتنسم هواء البحر ورائحته التي أعشقها، ثم شعرت أن هذا هو المكان المثالي للكتابة، بالرغم من أنه يقع أمام محطة وصول البواخر «تيرمينال سييرا مايسترا»، مع ذلك كان الشارع خاليًا وهادئًا. بنوافذه الكبيرة المطلة على البحر من بعيد، وطرازه العتيق وأثاثه المصنوع من الخشب الماهوجني البني الداكن، وجدرانه باللون الرملي الباهت، كان المكان يبدو في رأيي أقرب ما يمكن أن يستهوي كاتبًا للجلوس فيه للكتابة أو لمراجعة نص يكتبه، وسرحت بخاطري لا بد أن هيمنجواي كان يأتي إلى هنا في منتصف النهار هربًا من حرارة الطقس في وسط المدينة ليختبئ من الجميع، يكتب أو يقرأ. كنت أعرف أنه يكتب بالقلم الرصاص أولًا ثم يعيد نسخ ما خطه على الآلة الكاتبة، وكان يفعل ذلك عادة في الصباح الباكر، مع ذلك تخيلته يراجع مخطوطات رواياته ومقالاته في هذا المكان الآسر، وربما كتب بعض أجزاء منها بخط اليد.

بالرغم من وجود فرقة موسيقية تؤدي الألحان الكوبية المختلفة، كان المكان يمنح الشعور بالعزلة، خصوصًا إذا جلست في الزاوية بعيدًا، لتراقب المشرب والجالسين حوله، أو تنظر عبر النافذة إلى الشارع، حيث تأتيك رائحة البحر من بعيد فتحمل لك ذكرى ما تفتقدها. كنت أتخيل أن هيمنجواي يدون أفكاره في مفكرة صغيرة أو في دفتر يحمله معه. استغرقتني تلك الخواطر حينها وأنا أجلس في مكان آخر من أماكنه المفضلة في هافانا.

وأثناء بحثي في أثره على الإنترنت بعد عودتي، عثرت على ما يؤكد خواطري في مقال نشرته مجلة «فانيتي فير» الأمريكية في أكتوبر ٢٠١١، يروي كاتبه سكوت بيرج كيف تم العثور على رسائل وأوراق هيمنجواي في عام ٢٠٠٢ (٩٨). ويقول إنه سافر بصحبة جيني فيليبس حفيدة ماكس بيركنز محرر روايات هيمنجواي، وزوجها وساندي سبينر الباحثة في جامعة بنسلفانيا، بعدما سعت حفيدة بيركنز لنيل موافقة السلطات الكوبية للبحث عن مراسلات والدها وهيمنجواي، واستطاع الأربعة ومنهم كاتب المقال مراجعة ما احتفظت به حكومة كوبا من وأوراق ووثائق لصاحب نوبل. ويتحدث عن عثوره بين تلك الأوراق ومسودات الروايات والقصص غير المنشورة، على ١٢ صفحة مكتوبة بالقلم الرصاص تقدم نهاية أخرى لرواية «لمَن تُدق الأجراس؟».

(٩٨) ضُمت رسائل هيمنجواي المحفوظة في متحفه في كوبا إلى مجموعاته الأخرى من الخطابات، وتتولى جمعية هيمنجواي نشرها مع مطبوعات كامبريدج برس، مقسمة إلى سنوات ومراحل. والمقرر صدورها في ١٧ جزءًا، صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء أولها في ٢٠١١ وآخرها في يوليو ٢٠٢٠.

كان اكتشاف بيرج في مقاله، يرجح فكرتي في أنه ربما قام بمراجعة مخطوطه في هذا المطعم؛ لأنه كتب أجزاء كبيرة منها خلال إقامته بفندق «أمبوس موندوس» القريب. كما ذكر لي ساقي «فلوريديتا» أن هيمنجواي كان يجلس ويراجع روايته ذاتها هناك، فلمَ لا يكون قد وزع مراجعتها بين المكانين؟ وربما يكون قد تعرف إلى «دوس إرمانوس» أولًا وكان يقضي فيه أوقاته خصوصًا خلال النهار باعتباره في رأيي المخبأ المثالي لكاتب، وهو الذي دعاني لأزور المكان في ساعة عصاري كما كان يفعل.

كنت قد انتهيت من جولة في متحف الثورة القريب من هافانا القديمة، ثم وجدتني أسير باتجاه ساحة الكاتدرائية (بلاثا دي لا كاتيدرال) فتذكرت مقالة عن فندق الأديب الشهير، كنت أحملها معي وأود تركها لإسبيرانثا جارثيا مشرفة غرفته في الفندق. فبينما كنت أرتب أوراقي التي اصطحبتها معي من الكويت، صباح ذلك اليوم، وتتضمن بعض المقالات عن صاحب نوبل، كان من بينها موضوع منشور في صحيفة الإندبندنت بتاريخ نوفمبر ٢٠١٨، ويحوي صورة إسبيرانثا وحديثًا معها، ولما كنا في مطلع ٢٠٢٠، قلت لنفسي ربما لم تتطلع عليه، وقررت زيارتها ثانية لأعطيها إياها، توجهت إلى الفندق، لكنني لم أجدها فتركتها في مكتب استقبال النزلاء مع رسالة صغيرة أشكرها على ما قدمته لي خلال زيارتي التي ربما فتحت الباب لكل ما حدث تاليًا.

عند مدخل الفندق، قابلتني نسمة باردة قادمة من اتجاه البحر، خففت سخونة الطقس، فعلى الرغم من أننا كنا في شهر فبراير، إلا أن شتاء الجزيرة الاستوائي تصل فيه درجات الحرارة في بعض الأيام إلى

أكثر من ٣٠ درجة. كانت تلك النسمة بمثابة دعوة لنزهة على خليج هافانا، تصفحت تطبيق الخرائط على هاتفي، فوجدت أن الميناء الذي استقبل الروائي الشهير يوم وصوله في ربيع ١٩٢٨ يقع قريبًا، في شارع (أفنيدا دِل بويرتو)، وأمامه يوجد مطعم «دوس إرمانوس»، أحد الأماكن في لائحة مزاراتي. اتبعت إرشادات الخريطة، عبرت أولًا ساحة الأسلحة «بلاثا دي أرماس» المعروفة بأنها سوق بيع الكتب القديمة، لكنني لم أشاهد أي كتب، ثم مررت في الزقاق الواقع بين فندق سانتا إيزابيل و «إل تمبليت» أو المعبد وهو أثر يشبه معبدًا إغريقيًّا يحتفي بتأسيس المدينة في عام ١٥١٧. وكلما اقتربت من البحر، كان الهواء البارد يرطب قيظ الثانية ظهرًا. وفي النهاية، لمحت مياه المحيط الزرقاء الداكنة. وعندها انعطفت يمينًا نحو (ترمينال دي سييرا مايسترا) أو ميناء البواخر الذي انطلق منه الروائي الأمريكي إلى شوارع «هابانا بييخا» فأسرته وأبقته إلى جوارها سنوات.

كنت أفكر أنه ربما كان يتجه نحو البحر بحثًا عن نسمة صيفية باردة عندما تشتد الحرارة في فترة الظهيرة، حاملًا كتبه وأوراقه إلى ذلك المطعم الذي ربما كان أول الأماكن التي ارتادها في الجزيرة. كانت المسافة نحو ١٠ دقائق سيرًا على الأقدام، استمتعت فيها بالهواء الرطب المنعش. لأجده أمامي فجأة، بأبوابه الخشبية العتيقة، التي تشير إلى زمن تأسيسه في أواخر القرن التاسع عشر، يحتل زاوية زقاق صغير يسمى صول، وتعني الشمس بالإسبانية، يتقاطع مع شارع الميناء. لم يلفت نظري طرازه البسيط، فلم يكن مطعمًا فخمًا، تحيط به الإضاءة المزخرفة

كفلوريديتا، بل كان اسمه مكتوبًا فوق باب الدخول بحروف بارزة طُليت باللون البني الداكن، ولولا أنني لمحت على الجدار الخارجي، لوحة معدنية قديمة دائرية الشكل، حفر عليها «دوس إرمانوس- مطعم ١٨٩٤»، لما انتبهت إليه. كما رأيت تحتها لوحة أخرى مستطيلة كبيرة عليها الاسم والتاريخ مرة أخرى، وجملة بالإسبانية تقول: «هنا رفع هؤلاء كؤوسهم نخب الصداقة وحب الحياة» ثم أسماء أشهر زوار المكان، الشاعر الإسباني المعروف فِدريكو جارثيا لوركا، والروائي الكوبي إنريكِه سيربا، والنجم الأمريكي مارلون براندو، وإرنست هيمنجواي، وصديقه النجم السينمائي الأمريكي إيرون فلين.

يحافظ «دوس إرمانوس» على طرازه القديم، مثل كثير من المحال والمتاجر والمطاعم التي تراها في العاصمة الكوبية الخالية من مظاهر المدنية الحديثة أو سلاسل مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية. مع ذلك يذكرك بالحانات التي تشاهدها في أفلام رعاة البقر، بطرازه الذي يسيطر عليه اللون البني، وحيث يقع المشرب المصنوع من خشب الماهوجني داكن اللون في مواجهة الباب بمساحة طولية تشغل نصف المكان تقريبًا، وأعلاه دُوِّن اسم المطعم مجددًا بالخط ذاته المستخدم على الواجهة الخارجية. تتناثر الطاولات حول المشرب، وبينها تقف فرقة موسيقية صغيرة من أربعة عازفين تعزف الموسيقى. كما تغطي الجدار المجاور للمشرب، خزانات خشبية بواجهات زجاجية، رصت بداخلها زجاجات المشروبات، خصوصًا النبيذ، تليها عدة طاولات تشغل ركنًا مربعًا أمام باب المطبخ والمدخل المفضي إلى دورات المياه.

في ذلك الركن البعيد، جلست إلى جوار إحدى النوافذ الواسعة التي تتيح رؤية الشارع بالكامل وتأمل تفاصيله. كانت محطة وصول البواخر «سييرا مايسترا» تخضع للإصلاحات والدهانات الخارجية، فلم أتبين ملامحها، لكنها لم تكن كذلك يوم وصول هيمنجواي لأول مرة إلى كوبا، بالتأكيد كانت أجمل وأكثر حداثة، خصوصًا أنها بُنيت قبل ذلك بأربعة عشر عامًا فقط، في ١٩١٤. كان المطعم بتصميمه البسيط، المناقض لفخامة فلوريديتا، يمنح شعورًا بالارتياح والألفة، وتساءلت هل شاهده يوم وصوله إلى سييرا مايسترا أم اكتشفه مصادفة وهو يتجول في المنطقة؟! ومتى كان يأتي إلى «دوس إرمانوس»، مثلي في الظهيرة، ليتناول غداءه من أطباق المطعم البحرية والتي قررت أن أجربها أنا أيضًا.

سرحت مع رفيق رحلتي في هافانا، فلم أنتبه للموسيقى كثيرًا، حتى جذبتني أغنية أعرفها جيدًا لفرقة «بوينا فيستا سوشيال كلوب» وهي أشهر فرقة موسيقية كوبية، غزت العالم وقدمت حفلاتها في أوروبا وأمريكا منذ منتصف التسعينيات وحتى عام ٢٠١٥، بعد أن سُمح لأعضائها بالسفر إلى الخارج، فبالرغم من القطيعة السياسية والانعزال الذي كانت تعيشه الجزيرة، ظلت الموسيقى سفيرًا للؤلؤة الكاريبي في جميع أنحاء العالم.

صدح صوت المغني العجوز الذي يشبه كثيرًا إبراهيم فيرير مطرب بوينا فيستا وأشهر أعضائها بأغنية محببة إلى قلبي اسمها (Dos Gardenias para ti) وتقول كلماتها: «زهرتان من الجاردينيا

لكِ، يعبران عن حبي ويقولان إني أحبكِ، وأعشقكِ فأنتِ حياتي، زهرتان من الجاردينيا لكِ، يحملان حرارة قُبلة من تلك القبلات التي أعطيتها لكِ ولم تصلكِ أبدًا»[٩٩]. لم تكن الأغنية ذات نغمات راقصة صاخبة، وإنما رومانسية حالمة تناسب هدوء العصاري. أخرجتني موسيقاها الناعمة والكلمات التي أحفظها من حالة التماهي مع المكان والانشغال بهيمنجواي، كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا، ولم يكن هناك كثير من السائحين، فكانت تلك الأغنية ذات الإيقاع الهادئ مناسبة تمامًا لحالتي وحالة المكان شبه الخالي. فهل كان رفيقي في ذاك اليوم، هو مَن أهداني تلك الأغنية آنذاك؟! ربما!

عندما بحثت لاحقًا في تاريخ الأغنية، وجدت أنها صدرت في عام ١٩٤٥، كتبتها ولحنتها المغنية وعازفة البيانو الكوبية إيزولنا غاريللو، واشتهرت في عام ١٩٤٨ عندما غناها دانيال سانتوس. بما يعني أنها كانت شائعة في زمن الكاتب الأمريكي، رفيق أيامي في كوبا، وإن كان الفضل يرجع إلى فرقة بوينا فيستا التي تكونت في عام ١٩٩٦ في وصول هذه الأغنية وغيرها إلينا. فقد اعتمد أعضاؤها، وهم من قدامى الموسيقيين، على تراث الأغاني الكوبية التي ازدهرت خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، ومن أشهر أنواعها الصون والبوليرو والدانزون. خصوصًا وأن معظمهم عاصر هذه الفترة، لذا اختاروا أن يطلقوا على أنفسهم اسم (بوينا فيستا سوشيال كلوب) تيمنًا بأحد أشهر النوادي الاجتماعية في الثلاثينيات والذي شهد ازدهار الموسيقى الكوبية.

---

(٩٩) ترجمة المؤلفة.

ففي تلك الحقبة انتشرت تلك النوادي التي كانت مغلقة على أصحاب المهنة الواحدة أو اللون الواحد، فهناك نوادٍ للبيض من أصول إسبانية، وأخرى للكوبيين من أصول أفريقية، يرتادونها للترفيه ولعب النرد والشطرنج والدومينو وأوراق اللعب وغيرها. فكان هناك نادٍ لعمال السيجار وآخر للاعبي البيسبول وثالث للأطباء والمهندسين، وكان نادي بوينا فيستا الاجتماعي للموسيقيين من الكوبيين ذوي الأصول الأفريقية. وحقق شعبية كبيرة بعد استقطابه لأكثر العازفين والمغنيين موهبة وشهد ازدهار الأنواع الموسيقية المختلفة التي شكت ملامح الموسيقى الكوبية، التي تجمع بين إيقاعات الآلات التي نقلها الأفارقة ممن جلبهم الإسبان في القرن السادس عشر للعمل في حقول زراعة قصب السكر، وبين أنغام الجيتار الإسباني وموسيقى الفلامنكو لتفرز نغمات خاصة، أنتجت موسيقى السالسا والرومبا والتشاتشا وغيرها سواء في جزر الكاريبي أو في مختلف دول أمريكا اللاتينية مثلما حدث مع الجاز في أمريكا الشمالية.

كلما كنت أقرأ عن كوبا وموسيقاها، أفكر أنَّ هيمنجواي لا بد قد اطلع على تلك الموسيقى وسمعها خلال مراحل تطورها، وخصوصًا موسيقى الصون، التي تعتبر أهم أنواعها، وكلمة (El Son) وتعني بالإسبانية الصوت، وتعتبر هي الأصل، فهي تمزج بين بنية الغناء والجيتار الإسبانيين وعناصرهما من جهة، والإيقاعات وآلات قرع الطبول الأفريقية المنتشرة بين قبائل البانتو والأرارا من جهة أخرى.

وتستمد الصون صلابتها من قدرتها على صهر التراث الموسيقي الأوروبي والافريقي معًا.

وتدفعني كل تلك المعلومات لتساؤل، هل كان ارتباطه الكبير وزياراته المتكررة لكل من إسبانيا وأفريقيا هو ما جذبه أيضًا إلى تلك الجزيرة الخلابة التي تلاحقك موسيقاها في كل مكان. وربما أهداني تلك الأغنية مثلًا لأنها من الأنواع الغنائية المفضلة لديه؟ فهي تنتمي إلى ما يُعرف باسم البوليرو، ويُعتبر من أشهر الأنواع الموسيقية الكوبية التي خرجت للعالم، ويعتمد في جذوره على ألحان شعبية إسبانية بالاسم ذاته وإن منحها الكوبيون طابعًا حزينًا يشبه موسيقى وأغاني البلوز الأمريكية.

اعتمد لحن الأغنية على الإيقاع والجيتار، فجعلها رومانسية بامتياز، أضافت لمسة ناعمة على الأجواء، وكانت آخر أغنية ختمت بها الفرقة فقرتها. مع توقف الموسيقى كنت قد انتهيت من تناول طبق شهي من القريدس بالصلصة يُقدَّم مع الأرز الأبيض، وقمت أشاهد الصور المعلقة على الجدران عن قرب وأسجل بكاميرا هاتفي تلك اللحظات الدافئة التي عشتها في «دوس إرمانوس» بصحبته.

تمتلئ الجدران بالصور المتنوعة التي تصور الميناء قديمًا والمطعم في سنواته الأولى حينما كان اسمه (The Two Brothers) وهي تعني بالإنجليزية الأخوين، وهو المعنى ذاته بالإسبانية. كما تنتشر صور زوار المكان من المشاهير وعلى رأسهم مارلون براندو وهيمنجواي بالطبع، خصوصًا صورته مع فيديل كاسترو، وصورة قائد قاربه جريجوريو

فوينتس حينما زار المطعم في عام ٢٠٠١ قبل وفاته مباشرة. لفت نظري أيضًا وجود رسم كاريكاتوري للروائي الأمريكي بلحيته البيضاء الشهيرة. كان رسمًا متقنًا فيه كثير من التفاصيل لهيمنجواي يرتدي قميصًا أخضر ويمسك في يده كأس كوكتيل. وللرسام ذاته، صورة أخرى لوجه جريجوريو فوينتس مرتديًا قبعة البيسبول.

انتهيت من التصوير وخرجت إلى شارع الميناء، اتجهت يمينًا حيث توجد ساحة ألاميدا دي باولا، أقدم مناطق التنزه في هافانا، والتي قرأت فيما بعد أنها كانت قديمًا، حي البغاء الذي تنتشر فيه العاهرات، اللاتي ربما التقى بعضهن هيمنجواي خلال إقامته في هافانا القديمة، فهل كان يسير معي ليدلني على تفاصيل في حياته سأعثر عليها لاحقًا بعد عودتي؟! هل أرادني بالفعل أن أكتب هذا الكتاب عنه باللغة العربية وأروي سنواته في كوبا لقارئ عرفه فقط من خلال رواياته، بينما كتبت باللغتين الإنجليزية والإسبانية كتبًا كثيرة عن حياته وعن إقامته في لؤلؤة الكاريبي. ومجددًا عثرت على إجابة تساؤلاتي في كتاب بالإسبانية تناول علاقته بالصحفي كامبوامور، ويروي فيه الأخير أن ليوبولدينا قرأت أوراق التاروت لهيمنجواي وليوبولدينا أثناء سيرهم الثلاثة في شارع الميناء (أفنيدا دِل بويرتو)[١٠٠].

كنت أتجول بلا هدف وبلا اتجاه، فقط لأتعرف على جانب آخر من المدينة القديمة، ولكن يبدو أن رفيقي الخفي كان يوجهني نحو الشوارع التي يحبها ويسير فيها، حتى وصلنا إلى الساحة القديمة (لا بلاثا بييخا)

(١٠٠) أوسمار مارينيو رودرجيث، «هافانا بين هيمنجواي وكامبوامور».

أقدم ساحات هافانا، والمصممة على نمط الميادين الإسبانية المربعة الشكل المحاطة بالأبنية ذات الطابقين من جميع الجوانب. ومن لابلاثا بييخا وجدتني في شارع أوبيسبو مجددًا، كانت الساعة قد تخطت الخامسة بقليل، ففكرت في المرور على حانة «فلوريديتا» مرة أخرى لربما وجدتها أقل صخبًا وازدحامًا في وقت العصر مع اشتداد حرارة الجو، حيث يكون معظم السياح في بيوتهم وفنادقهم وتركوه لي خاليًا لأعيد اكتشافه مرة أخرى بلا موسيقى أو ناس، وهي الزيارة التي تناولتها تفصيليًّا في الفصل السابق الخاص بحانة كاتبنا المفضلة.

❊ ❊ ❊

سلوبي جوز.. الحانة المنسية

في أعقاب زيارتي الثانية لحانة هيمنجواي الأثيرة فلوريديتا، وعلى بعد خطوات قليلة منها، رأيته بالمصادفة على ناصية شارع سلكته في طريقي عائدة إلى الشقة التي أقيم فيها. لمحت الاسم خُطَّ طوليًّا بحروف بارزة على العمود الأخير من بوائك[١٠١] بناية قديمة على الطراز الكولونيالي[١٠٢]، «سلوبي جوز». كنت أعرف أنه أحد الأماكن التي اقترنت بهيمنجواي، حيث تجد في سيرة الروائي الأمريكي حانتين بالاسم ذاته، واحدة في كي ويست التي عاش فيها مع زوجته بولين من نهاية العشرينيات وحتى نهاية الثلاثينيات، والثانية في هافانا. وتعتبر الحانة الأمريكية هي الأشهر عالميًّا، فهي معروفة بمسابقتها السنوية لشبيه هيمنجواي، إضافة لشطيرة اللحم المفروم التي تحمل اسمها.

كانت زيارة الحانة الهافانية ضرورية، لذا وضعتها ضمن لائحة مزاراتي في أثر الكاتب الشهير، وكنت أنوي البحث عن موقعها

(١٠١) جمع بائكة، وهي مجموعة الأعمدة المتتابعة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف.

(١٠٢) طراز معماري ظهر في الدول التي استعمرتها أوروبا منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين، وشهد إحياء طرز قديمة من العمارة كالفرعونية أو الإغريقية أو الرومانية.

واستكشافها في ذلك المساء، لكن يبدو أن دليلي الخفي كان يقرأ أفكاري ويهديني إلى كل خطوة في تلك الرحلة. عندما مررت من أمامها، لم أسمع ضوضاء زبائنها أو موسيقى تصدح من الداخل، كمثيلاتها في وسط المدينة، فقررت الذهاب إلى شقتي لأرتاح قليلًا على أن أعود بعد ساعات، ربما يكون المكان قد أصبح أكثر صخبًا وممتلئًا بالزبائن كما كان في زمن صاحبي.

في المساء، انتقيت ملابسي كأنني أستعد لموعد غرامي، بلوزة بيضاء بنقاط سوداء كبيرة وتنورة بلون نقاطها، كنت قد تشبعت بالأجواء في العاصمة الكوبية التي جعلتني أشعر بأنني أعيش في أحد مشاهد أفلام الأبيض والأسود، فأسدلت شعري بطريقة تشبه نساء الأربعينيات والخمسينيات، واستعددتُ للعودة إلى عصر رفيق أيامي الماضية في هافانا، في ليلتي الأخيرة بصحبته.

بدت الشوارع في طريقي إلى «سلوبي جوز» شبه خالية، مختلفة عما كنت أراه في المدينة خلال اليومين السابقين من زحام وسياح في كل مكان. قريبًا من الحانة، لاحظت سيارة بيضاء من طراز بونتياك[١٠٣]، كان لونها مناسبًا لما أرتديه وموديلها القديم أيضًا. استأذنت صاحبها في التقاط صورة لي بجوارها، كما يفعل معظم السائحون في هافانا، وافق مرحبًا وقام كخبير بتصويري بأكثر من زاوية، وهو يحدثني عن تصميمها وسنة الصنع، فهي طراز شيفتين إنتاج عام ١٩٤٩، مضيفًا أن

(١٠٣) بونتياك هي علامة تجارية أمريكية لتصنيع السيارات ظهرت في عام ١٨٩٩، وتوقف إنتاجها منذ ٢٠١٠.

هذا الشكل أُنتج بشكل واسع خلال سنوات الخمسينيات، وكانت ملكًا لوالده.

أضفت بذلته البيضاء، كلون سيارته، وسامة وجاذبية على ملامحه الكوبية المميزة وبشرته الخلاسية، فبدا هو أيضًا قادمًا من زمن آخر أو فيلم هوليوودي. كان يعمل مثل كثيرين في تقديم جولات للسياح بسيارته، كعشرات السيارات الأمريكية ذات الألوان المبهجة التي تراها مصطفة في تناغم لوني أمام المسرح الكبير «أليثيا ألونصو»، في الشارع الرئيس لوسط المدينة «باسيو دل برادو»، أو تلمحها تتجول في شوارع هافانا وعلى طريق الكورنيش الشهير، الماليكون. كان القيام بنزهة في السيارة فرصة لا تفوت لاستكمال المشهد السينمائي الذي أصبحت أعيشه بالفعل، وليتحقق الحلم برحلة عبر الزمن لن تحدث إلا في كوبا.

أخذني صاحب البونتياك، واسمه ديفيد، في جولة إلى هافانا العشرينيات والثلاثينيات، تلبية لطلبي، لمشاهدة أهم المباني التي تأسست في تلك الفترة، من بينها جامعة هافانا وحي الفيدادو بأشهر شوارعه لارامبا، وفندق ناسيونال، وفي طريق العودة سرنا في الماليكون. ليداعب هواء المحيط المنعش شَعري من نافذة السيارة المفتوحة، ويقبل وجنتي رذاذ أمواجه الهادرة التي تعبر الحاجز الأسمنتي وتصل إلى منتصف الطريق، وموسيقى السالسا والتشاتشا والرومبا الصادرة من مذياع السيارة تطغى على صوت الموج، لتتراقص دقات قلبي على أنغامها. كانت كلمات الأغنية تقول: «جننتني هذه الفتاة بالطريقة التي

تمشي بها، وكيف تحرك خصرها الصغير، يا أمي، ليس لها مثيل»[١٠٤]، كأن كلماتها تتحدث عمن قلب رحلتي رأسًا على عقب، وشغل أيامي بملاحقته، فهل كانت تلك الأغنية إهداءً جديدًا من رفيقي الخفي، مثل إهدائه هذا الكتاب، أو منحي تجربة لا تُنسى بالعودة إلى عصره، ورحلة أتذكر تفاصيلها كل يوم. انتهت جولة السيارة سريعًا مثل أيامي في العاصمة الكوبية، بعدما أوصلني السائق اللطيف إلى مقصدي في ذلك المساء، مطعم وحانة «سلوبي جوز».

يشغل المكان، جانبًا كبيرًا من شارع أنيماس الذي يربط بين شارعي أجرامونتي وباسيو دِل برادو، أكبر شوارع وسط المدينة، ما يجعل هناك أكثر من باب لدخوله. يحتل مدخله الرئيس زاوية أنيماس وأجرامونتي، حيث دُوِّنَ اسم الحانة بحروف ذهبية وخط مائل على أرضية المدخل المصنوعة من الرخام الأسود. إلى اليمين، تمتد طاولة المشرب الخشبية حتى الباب الثاني في شارع أنيماس، بمساحة تقدر بنحو ١٨ مترًا حيث كان هذا المشرب يصنف الأطول بين حانات كوبا عند تأسيسه في عام ١٩١٧، بل وفي أمريكا اللاتينية. بجوار بابه الآخر، تحتل الجدار مجموعة من الخزائن من خشب الماهوجني البني، تكشف واجهاتها الزجاجية عن مجموعة متنوعة من المشروبات، أمامها طاولة وخزانة عرض نصفية تضم أرففها قناني الرُّم الكوبي الشهير «هافانا كلوب»،

(١٠٤) اسم الأغنية بالإسبانية «**Esa niña, qué cintura**»، وهي أغنية حديثة صدرت في ٢٠١٠ لفريق كوبي شهير اسمه «سيبتيتو سانتياجويرو» أو سباعي من سانتياجو، ويُعتبر من أشهر الفرق الكوبية حاليًا، نال جائزتين من جوائز الجرامي الموسيقية، وتحقق جولاته حول العالم نجاحًا كبيرًا كسفير للموسيقى الكوبية الحديثة.

بينما تستقر على سطحها زجاجة ضخمة من الويسكي ماركة «رد ليبل» الإنجليزية المعروفة، وإلى جوارها صندوق خشبي بجوانب من الزجاج رصت بداخله عبوات من السجائر ماركة «كوهيبا» وصندوق آخر يعرض أنواع متعددة من السيجار المحلي الفخيم. على الواجهة الأمامية السفلية لخزانة العرض النصفية، دُوِّنَتْ جمل دعائية بالإنجليزية والإسبانية، تقرأ فيها «المكان الأمثل الذي يمنحك ذكرى لا تنسى»، «كل أنواع الشطائر والمشروبات طوال اليوم»، و«أفضل أنواع النبيذ والمشروبات الروحية في هافانا». لفت نظري عدم وجود بائع خلف طاولة العرض، كما لم يعترضني أحد خلال جولتي في المكان، كأن العاملين قد اعتادوا زيارات السياح أمثالي.

أعلى إحدى الخزائن، رأيت صورة قديمة لشاب يبدو في عشرينياته، كتب أسفلها «سلوبي جو» ففهمت أنها لمؤسس الحانة التي تحمل اسمه، وإلى يمين ويسار الصورة، دونت الجملة ذاتها مرة بالإسبانية ومرة بالإنجليزية، «سلوبي جوز- تأسست في ١٩١٧- الأول في العالم».

التقطت عدة صور، كانت الجدران جميعها تمتلئ بخزانات مماثلة، رصت بداخلها زجاجات الرُّم وغيرها بالإضافة إلى عشرات الزجاجات المتراصة خلف طاولة المشرب من أنواع فاخرة للمشروبات تشي أنَّها حانة راقية للصفوة يمكن أن تقدم لزبونها أي شيء، على العكس من الأرفف شبه الخالية التي شاهدتها في عدد من المحال والسوبر ماركت الأخرى في هافانا.

في منتصف المساحة المفروشة بعدد من الطاولات والمقاعد الخشبية المرتفعة، تستقر ثلاثة أو أربعة أعمدة زُيِّنَ نصفها العلوي بخزانات أخرى، تغطي الجوانب الأربعة لكل عمود، لكنها لم تكن للمشروبات بل لصور المشاهير من زبائن الحانة. وعلى الرغم من أن الساعة كانت قد تخطت الثامنة، ظل المكان هادئًا وخاليًا من السياح المنتشرين في شوارع ومطاعم وسط المدينة المزدحمة دومًا، والتي قد تنتظر وقتًا في بعضها ليسمح لك بالدخول.

اخترت منضدة مرتفعة، إلى جوار أحد الأعمدة، حيث شاهدت صورة لهيمنجواي، وجلست أتأمل الديكور الذي بدا بالرغم من طرازه العتيق، كأن الزمن لم يترك آثاره عليه أو خضع للتجديدات والترميمات من فترة قريبة، الأمر الذي تأكدت منه بعد عودتي. فقد أغلقت الحانة لمدة خمسين عامًا تقريبًا، بعد تأميم النظام الكوبي لكافة المؤسسات والأنشطة الخاصة خلال فترة الستينيات. وفي عام ٢٠١٣، أُعيد افتتاحها بعد تجديدها ضمن مشروعات إحياء وترميم الأماكن المشهورة في هافانا تحت إشراف مكتب تاريخ المدينة التابع للحكومة، لذا قد لا تجد اسم حانة «سلوبي جوز» في كثير من الكتب التي تتبعت مسار الأديب الشهير في كوبا، فقد ظلت لسنوات الحانة المنسية.

لم يظهر نادل ليسألني عن طلبي، وكان معظم العاملين متواجدين خلف المشرب الذي يجلس أمامه عدد من الزبائن، يطالعون مباراة رياضية تعرضها شاشة تليفزيون علوية، مثل معظم الحانات في الغرب. اتجهت نحوهم وطلبت قائمة الطعام، ألقيت نظرة سريعة لأكتشف أن

أسعارها ليست منخفضة، فالمكان الواقع قريبًا من أفخم فنادق المدينة، مثل فندق إنجلاتيرا وفندق جران أوتيل التابع لمجموعة كيمبنسكي، يبدو مناسبًا للسياح الأثرياء من رواد تلك الفنادق كما كان في سنوات مجده، ملتقى الأغنياء والنجوم والمشاهير، وفقًا للكاتب البريطاني جراهام جرين «***لا يرتاد أبناء هافانا سلوبي جوز، الذي كان دومًا ملتقى السياح***»(١٠٥).

بالإضافة لأسعار أطباقه الغالية الثمن، لم تكن الأجواء تشجع على قضاء السهرة في المكان أو تذوق الشطيرة الشهيرة المعروفة باسمه. كانت آخر ليلة لي في الجزيرة الكاريبية ولم أجرب أطباقها المحلية، فقررت اتباع نصيحة ديفيد، صاحب السيارة الذي قابلته قبل قليل، وزيارة مطعم يقع في بناية مجاورة للحانة، يحمل اسم سوثيداد دي كانارياس، أي رابطة سكان جزر الكناري، ويُعتبر ملتقى أهل المدينة. تراجعت عن فكرة تناول العشاء وتجربة شطيرة «سلوبي جوز»، التي ربما يكون رفيق رحلتي قد تناولها سواء في هذه الحانة أو مثيلتها في ميامي. طلبت كوبًا من عصير الأناناس، الفاكهة الاستوائية التي تشتهر بها الجزيرة، وعدت لطاولتي.

كان المكان أنيقًا بشكل مبالغ فيه، لا يتناسب مطلقًا مع اسمه، فكلمة «سلوبي « بالإنجليزية هي صفة تعني قذرًا أو مهملًا، ويعني اسم الحانة» سلوبي جوز» أي «لـ/ جو المهمل»، وقد قرأت أن مؤسسها

(١٠٥) من مقدمة روايته «رجلنا في هافانا» المنشورة في عام ١٩٥٨، وتحولت إلى فيلم سينمائي أُنتج في العام التالي، وصورت أحداثه في أماكنها الحقيقية في كوبا ومن بينها حانة «سلوبي جوز».

واسمه خوسيه، كان لا يهتم كثيرًا بحانته فكانت أرضيتها مبتلة ومياه الثلج الذائب تسيل أسفل المشرب، وكان روادها من البحارة الأمريكيين ينادونه «جو»، ثم أطلقوا عليه «جو المهمل» والتصق الاسم بحانته أيضًا حتى أصبح اسمها الرسمي في السنوات اللاحقة.

اشترى خوسيه أبيل إي بوتيرو هذا المكان، في عام ١٩١٧، وحوله من بقالة إلى بوديجا[١٠٦]، أطلق عليها اسم «لا فيكتوريا». واشتهر بشطيرة استوحاها من طبق معروف في المطبخ الكوبي وأيضًا في جميع أرجاء أمريكا اللاتينية وهو «بيكاديو»، الذي يحتوي على اللحم المفروم بصلصة الطماطم ويقدم مع الأرز أو الخبز[١٠٧].

وخلال فترة العشرينيات، راجت أعمال حانته نتيجة حظر تداول الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية، ما رفع نسبة السياح الأمريكيين إلى هافانا، خصوصًا والجزيرة الكاريبية صارت تخضع لنفوذ جارتها سياسيًّا واقتصاديًّا بعدما ساهمت الولايات المتحدة في تحرير كوبا من الاحتلال الإسباني بعد خمسة قرون[١٠٨]. شهدت تلك الفترة الزمنية أيضًا شعبية كبيرة لحانة فلوريديتا القريبة من حانة خوسيه

---

(١٠٦) حانة لتقديم النبيذ والخمور والوجبات الخفيفة.

(١٠٧) تشير كثير من المصادر الأمريكية إلى أن شطيرة اللحم المفروم المعروفة باسم «سلوبي جوز» هي أمريكية المنشأ، ظهرت في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين، ما يعني أن أصلها كوبي وتقديمها في الحانة الكوبية كان أسبق.

(١٠٨) شن الثوار الكوبيين حربًا ضد المستعمر الإسباني في ١٨٩٥ ولمدة ثلاث سنوات، عُرفت باسم حرب استقلال كوبا، ثم في عام ١٨٩٨، تدخلت الولايات المتحدة في الحرب وأصبحت حرب أمريكية إسبانية، وانتصر فيها الكوبيون ونالوا الاستقلال وفي المقابل قامت الولايات المتحدة باستعمار منطقة غوانتانامو جنوب غرب الجزيرة باتفاق بين الطرفين.

لوجود ساقيها الشهير كونستانتينو المعروف بالجران كونستانتي[١٠٩]، وكانت المنافسة بينهما مرتفعة، لكن خوسيه أو «جو» حقق شهرة أكبر بين المتحدثين بالإنجليزية من السياح وعلية القوم نتيجة لإجادته الإنجليزية وعمله في الحانات الأمريكية. فقد وصل خوسيه إلى كوبا في عام ١٩٠٤ مهاجرًا من إقليم جاليثيا في شمال غرب إسبانيا، وعمل ساقيًا لمدة ثلاث سنوات في إحدى الحانات الصغيرة الواقعة بين شارعي جاليانو وزانيا، ثم رحل إلى نيو أورليانز لمدة ست سنوات، انتقل بعدها إلى ميامي لست سنوات أخرى. وفي عام ١٩١٧ عاد إلى هافانا برأس مال مناسب لأن يشتري حانته الخاصة على ناصية شارعي أنيماس وزولويتا (أجرامونتي الآن).

وبسبب إقامته الطويلة في الولايات المتحدة، نجح خوسيه في جذب البحارة الأمريكيين إلى حانته التي كانت متواضعة وبسيطة بمشروباته وشطيرته، ولكن بعد ارتفاع الإقبال السياحي على الجزيرة، التي أصبحت مقصد الأثرياء، طور خوسيه الحانة وجعلها مميزة بين مثيلاتها، لتبلغ أوج شهرتها في العقود التالية، وتمتلئ بصور المشاهير ممن زاروها خلال الثلاثينيات وحتى غلقها في منتصف الستينيات. ومن بين أشهر روادها دوق ويندسور إدوارد الثامن، والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، ومن نجوم هوليوود جريتا جاربو، كلارك جيبل، سبنسر تراسي، جون وين، آفا جاردنر، جاري كوبر، وإيرون فلين، وفرانك سيناترا، إضافة إلى هيمنجواي بالطبع.

(١٠٩) تمت الإشارة إليه في الفصل الخاص بحانة فلوريديتا.

رحت أتأمل صورة هيمنجواي، بلحيته البيضاء المميزة، ما يكشف أنها قد تكون في أواخر سنوات حياته، يظهر بالجانب مرتديًا طاقية رياضية، ويتحدث إلى رجلين. وبالبحث عنها، اكتشفت أنها كانت أثناء تصوير فيلم «رجلنا في هافانا» (١٩٥٩)، بصحبة النجم الهوليوودي أليك جينيس والكاتب المسرحي البريطاني نويل كوارد. وقد صُورت أحداث الفيلم المأخوذ عن رواية جراهام جرين وتتناول جاسوسًا بريطانيًّا في العاصمة الكوبية، بعد شهرين من الإطاحة بالديكتاتور فولهنسيو باتيستا، ونجاح ثورة فيديل كاسترو وزملائه.

ذكرني موضوع الفيلم بما قرأته عن «مصنع المحتالين»، وهو ليس عنوان إحدى قصص هيمنجواي، ولكنه الاسم الذي أطلقه على شبكة للجواسيس كونها في هافانا خلال الحرب العالمية الثانية. ويروي رينيه فياريال في كتابه[١١٠]، أنه في خلال تلك الفترة تعرضت ٣٠ سفينة لهجوم من الغواصات الألمانية وانتشرت شائعات عن وجود عدد كبير من الألمان في كوبا، دخلوا البلاد بوثائق مزورة ومساعدات قدمها لهم الإسبان المتعاطفين مع النازية، من المنتمين للكتائب الإسبانية «الفلانخي»[١١١] الذين فروا إلى الجزيرة الكاريبية عقب انتهاء الحرب الأهلية في إسبانيا. ويضيف فياريال أن الهجوم على السفن أغضب هيمنجواي بشدة، فاقترح على المسؤولين في السفارة الأمريكية أن

(١١٠) «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة».

(١١١) الكتائب الإسبانية أو الفلانخي: هو حزب سياسي إسباني لأيديولوجية نقابية مستوحاة من الفاشية، أسسها خوسيه أنطونيو بريمو دي ريفيرا في أكتوبر ١٩٣٣، لعب دورًا مهمًّا في تطور الأحداث التي أدت إلى الحرب الأهلية الإسبانية.

يقوم بطلعات استكشافية في المياه الكوبية بقاربه «بيلار» للتبليغ عن تلك الغواصات، وحتى الحصول على موافقة الحكومة في بلاده، طلب منه السفير الأمريكي آنذاك سبروي برادن استخدام علاقاته بين الإسبان المقيمين وتكوين شبكة جاسوسية، أسماها هيمنجواي «مصنع المحتالين»، وبدأت عملها في أغسطس ١٩٤٢ ولمدة ستة شهور تقريبًا.

ضمت تلك الشبكة ٢٦ عضوًا، اختار هيمنجواي معظمهم من الإسبان المخلصين الذين كان يعرفهم منذ سنواته في إسبانيا لتغطية حربها الأهلية كمراسل صحفي. وقد أدت الشبكة عملها على أكمل وجه، وكانت شبكة ممتازة [١١٢]. رغم ذلك لم يستمر عمله معهم حيث سلم المجموعة إلى جوستافو ديوران، الذي أرسلته واشنطن لمساعدته. وانشغل هيمنجواي بعد ذلك بالجولات الاستطلاعية التي قام بها بقاربه للإبلاغ عن الغواصات الألمانية، وهي المهمة التي كان أكثر حماسًا للقيام بها، وتشير بعض الوثائق أنه استمر فيها حتى نهاية الحرب.

كان اكتشاف ذلك الجانب مثيرًا عن حياة الأديب الشهير التي عاشها طولًا وعرضًا، ورغم أن جميع الوثائق والكتب التي قرأتها، لم توضح إذا كانت أعمال تلك الشبكة دارت في حانة سلوبي جوز أو غيرها، لكن وجود الإسبان الأثرياء من علية القوم والسائحين الأجانب، جعلها في رأيي، مكانًا مثاليًّا لنشاط مشابه. خصوصًا أن ذكرها لا يرد كثيرًا في كتاباته ورسائله مثل فلوريديتا، بل تظهر فقط ضمن الأماكن

(١١٢) وفقًا لوصف سبروي برادن سفير الولايات المتحدة في كوبا آنذاك، عن شبكة هيمنجواي في كتابه «الدبلوماسية والديماجوجية»، المنشور في ١٩٧١.

التي ارتادها مع صديقه جو راسل، أول مَن اصطحبه للصيد في كوبا، للاحتفال بصيدهما الوفير. كما يذكرها أيضًا الصحفي كامبوامور من بين الأماكن التي كان الكاتب الشهير يتسكع فيها برفقة مجموعته، موضحًا: «***كنا نذهب لمشاهدة صراع الديكة أو إلى كازينو مونمارتر، أو سلوبي جوز، أو فندق إشبيلية، وأماكن أخرى في المدينة***»(١١٣).

وإذا كانت الحانة الهافانية لم تأخذ دور البطولة في سيرة كاتبنا، فإن النسخة الأمريكية منها لها حضور قوي، ففيها التقى زوجته الثالثة مارثا، كما أن صاحبها هو جو راسل الذي ربطتهما صداقة ممتدة وهو أول من اصطحبه للصيد في المياه الكوبية. كان إرنست عائدًا لتوه من باريس، حيث استقر في كي ويست مع زوجته الثانية بولين في نهاية العشرينيات. وكانت الخمور ممنوعة آنذاك، وعلم أن راسل يستغل قاربه «أنيتا» في تهريبها من الجزيرة الكاريبية. فذهب ليشتري منه، ثم توطدت علاقتهما بعدما دعا راسل الروائي المحب للصيد لمشاركته السعي وراء أسماك المارلين في صيف ١٩٣٢. واستمرت صداقتهما منذ ذلك الحين وحتى وفاة راسل في مطلع الأربعينيات، بل ظلت حانة الأخير في فلوريدا تحوي مقتنيات الروائي الشهير، ومن بينها مجموعة من رؤوس الحيوانات المحنطة، التي اصطادها خلال رحلاته إلى أفريقيا في تلك الفترة، تزين جدران الحانة، كما عُثر في مخزنها، بعد وفاته على أوراق ومسودات أعمال غير منشورة كان قد عهد بها إلى راسل ليحفظها بعد انفصاله عن بولين واستقراره في كوبا.

---

(١١٣) من كتاب «هافانا بين هيمنجواي وكامبوامور»، أوسمار مارينيو رودرجيث.

وتشير روايات عدة إلى أن الكاتب الأمريكي هو مَن اختار اسم «سلوبي جوز»، لحانة جو راسل في كي ويست التي افتتحها في ٥ ديسمبر ١٩٣٣، وهو اليوم الذي أُلغي فيه حظر بيع الكحول في أمريكا. فقد أسماها راسل في البداية «الخنزير الأعمى» (بلايند بيج)، ثم غيره إلى «النعال الفضي» (سيلفر سليبر)، حتى اقترح عليه هيمنجواي استلهام اسم الحانة الكوبية الشهيرة آنذاك. وسواء كان الكاتب الشهير هو صاحب الاقتراح أم لا فإن ارتباطه بـها كان قويًّا خلال سنوات الثلاثينيات، وهي تعتبر مسرح الأحداث في روايته «أن تملك وألا تملك» التي تدور حول تهريب الكحول بين فلوريدا وهافانا. وقد استلهمها من حكايات جو راسل، ورسم شخصية هاري مورغان قبطان قارب الصيد الذي يعمل في التهريب منه، بينما حانة فريدي في الرواية تشبه بتفاصيلها حانة كي ويست. وفي لوحة للفنان التشكيلي الأمريكي والدو بيرس، يصور فيها الحانة، نلاحظ بين شخصياتها هيمنجواي من ظهره، مستندًا بمرفقه إلى المشرب، يرتدي كعادته طاقية البيسبول الرياضية ويظهر تحتها شعره الأسود، وجانب من وجهه، بينما الساقي الأسمر يصب له مشروبه، وإلى جواره تجلس سيدة جميلة بشعر داكن، هي إلزيرا زوجة بيرس، الواقف في الخلفية ممسكًا في يده غليونًا[١١٤]. وبيرس هو صاحب اللوحة التي كانت تزين غرفة نومه وماري في فينكا[١١٥].

(١١٤) اللوحة مقتنيات خاصة ،وهي ليست الوحيدة التي رسمها بيرس لهيمنجواي أو يظهران فيها معًا، جمعت هيمنجواي وبيرس صداقة ممتدة منذ التقيا في باريس مطلع العشرينيات.

(١١٥) بيته في كوبا، وهي محفوظة الآن ضمن مقتنياته في مكتبة ومتحف جون إف كينيدي في بوسطن، الولايات المتحدة.

وينقل فيليب جرين في كتابه «أن تحصل على واحد وعلى آخر- رفيق كوكتيل هيمنجواي»، عن الساقي سكينر، أن هيمنجواي قابل مارثا جيلهورن في سلوبي جوز كي ويست. كان يقضي كعادته فترة العصر في الحانة، حينما دخلت مارثا ووالدتها، ولفتت نظره بجمالها فانجذب إليها الروائي الوسيم. آنذاك كان هيمنجواي رشيقًا، شعره أسود ولديه شارب رفيع ما جعله يشبه النجم كلارك جيبل. تعرف الروائي المحب للحياة والنساء على مارثا وسرعان ما قضى الثلاثة وقتهم معًا. ويكمل جرين أن هيمنجواي انشغل بالصحفية الجميلة، وظل معها حتى المساء، وتغيب عن وليمة عشاء كانت تقيمها زوجته بولين، ما تسبب في زيادة المشاكل بينهما وتوتر العلاقة.

وبمقارنة ظهور حانة سلوبي جوز الأمريكية في حياة هيمنجواي وإبداعاته، تظل صورته مع أليك جينيس ونويل كوارد حتى الآن هي الرابط الوحيد بينه وبين الحانة الكوبية، مع ذلك لا يمكن تجاهلها عند زيارة هافانا. وإن كنت أتساءل لماذا فتر حماسي بشأن قضاء سهرتي فيها، هل لدورها الخفي في حياته أم لعدم اهتمامه بها كغيرها؟ كما حدث مع الميناء الذي يحمل اسمه، والذي لم أتمكن من رؤيته خلال رحلتي.

* * *

مارينا هيمنجواي.. رحلات وحكايات

لا أتذكر حقيقة سبب فتوري بشأن زيارة الميناء الذي يحمل اسمه، هل كان عامل ضيق الوقت أم لأنني كنت أعلم أن هذا المكان لم يرتبط بوجوده المادي ارتباطًا وثيقًا كالأماكن الأخرى التي عاش أو تسكع فيها؟ فقد سُمِّيَ تيمنًا به، بعد رحيله عن كوبا تكريمًا له ولاختياره مياهها ليمارس فيها هوايته المفضلة نحو ثلاثين عامًا. ومع ذلك لا يمكن أن نغفل في كتاب يتناول سنوات هيمنجواي في لؤلؤة الكاريبي، الحديث عن ذلك الميناء أو عن رحلات صيده التي ذكرها في مقالات عديدة واستلهم منها روايته الأشهر. كما أنه في هذا الميناء، تقام سنويًّا «مسابقة إرنست هيمنجواي الدولية لصيد الأسماك»، التي انطلقت في حياته وبمشاركته، في عام ١٩٥٠، ولم تكن حينها تحمل اسمه، أما الميناء نفسه، فقد أُنشئ في عام ١٩٥٣، لكن لم يُطلق عليه ذلك الاسم إلا في الستينيات.

تقع «مارينا هيمنجواي» على بعد تسعة أميال غرب هافانا، في منطقة سانتافيه، وتُعتبر أكبر موانئ الصيد في الجزيرة، إذ يبلغ طولها نحو ٨٠٠ مترٍ من القنوات المائية التي تتسع لأكثر من ٤٠٠ قارب ترسو على

أرصفتها المتعددة. وتوفر المارينا عدد من الخدمات لقوارب الصيد مثل التزود بالوقود ومياه الشرب، ونقاط للإنترنت والكهرباء. كما توجد مجموعة متنوعة من المطاعم يمكن لأصحاب القوارب ارتيادها بالإضافة إلى فندق صغير لاستقبال وإقامة المشاركين أو المتابعين لمسابقة الصيد السنوية التي تقام في مايو من كل عام، والمخصصة لاصطياد الأسماك كبيرة الحجم المنتشرة في خليج المكسيك. وتمنح المسابقة ثلاث جوائز هي الذهبية والفضية والبرونزية، لصيد أكبر أسماك المارلين أو الدلفين الذهبي الذي يُعرف أيضًا باسم «ماهي- ماهي».

أُقيمت أولى دورات تلك المسابقة في ٢٦ مايو ١٩٥٠، وشارك فيها ٣٦ قاربًا من أفضل قوارب الصيد، أبحرت عبر قناة قلعة المورو، التي تقع في مدخل ميناء العاصمة الكوبية، في اتجاه تيار الخليج[١١٦]، وكان من بين المبحرين هيمنجواي بقاربه «بيلار» ممثلًا عن نادي اليخت الدولي في هافانا. وقد فاز الروائي الأمريكي في أول ثلاث دورات من المسابقة، ما دفع الصيادين وقتها إلى ربطها به وباسمه، لتُعرف خلال سنوات الخمسينيات بـ «مسابقة هيمنجواي لصيد المارلين».

وتُعتبر دورة عام ١٩٦٠، أشهر دوراتها على الإطلاق بسبب مشاركة فيديل كاسترو في المسابقة التي انطلقت من ميناء كوهيمَر يوم ١٢ مايو واستمرت لمدة ثلاثة أيام، وفاز فيها قائد الثورة الكوبية بالمركز الثاني والميدالية الفضية. وتروي سكرتيرة هيمنجواي

(١١٦) تيار الخليج (**Gulf Stream**) هو تيار دافئ وسريع في المحيط الأطلسي، يتكون في خليج المكسيك، ويمتد حتى طرف فلوريدا في الولايات المتحدة.

فاليري في كتابها[١١٧]، أن الروائي الأمريكي تلقى قبلها تحذيرًا من سفير بلاده، خلال زيارته المعتادة على العشاء كل خميس في فينكا، بشأن اعتزام الولايات المتحدة قطع علاقاتها مع كوبا، وبلغه السفير أنه بوصفه شخصية أمريكية مرموقة، عليه مغادرة الجزيرة في الحال وإعلان استنكاره للسياسات التي تمارسها حكومة الثورة. وبالرغم من جدية التحذير التي وصلت إلى حد تهديد الروائي الشهير بعواقب وخيمة، كان حزنه كبيرًا، فوفقًا لوصفها، لم يكن يحب أن يفرض عليه أي شخص أو حتى الوضع السياسي، لذا جاء تصرفه معاكسًا للمتوقع منه حيث بادر بإرسال دعوة إلى قادة الثورة وخصوصًا كاسترو وجيفارا للمشاركة في مسابقة الصيد، التي كانت تعتبر حدثًا دوليًّا، وقبلها الزعيم الشاب بكل ترحيب، وأعلن عن مشاركته التي شكلت خبرًا مثيرًا في الصحف الكوبية آنذاك.

ويذكر أندرو فيلدمان في كتابه[١١٨] أنه في حفل توزيع جوائز المسابقة في مساء اليوم الثالث عندما سلم هيمنجواي الكأس الفضية لكاسترو، قال الأخير إنه مبتدئ في الصيد، فأجابه الروائي الشهير: «***أنت مبتدئ محظوظ. أهنئك أيها القائد. بالنسبة إليَّ، نادرًا ما أكون محظوظًا. لم يكن لديَّ أي حظ خلال المسابقات. بشكل عام، أنا غير محظوظ إطلاقًا!***»، كان ذلك قبيل أسابيع قليلة من مغادرة صاحب نوبل كوبا للمرة الأخيرة. وخلال هذا اللقاء الوحيد بينهما، التقط المصورون عشرات الصور التي

(١١٧) فاليري هيمنجواي، «الركض وراء الثيران: سنواتي مع آل هيمنجواي».

(١١٨) «إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية» الصادر في ديسمبر ٢٠١٩.

نشاهدها حتى اليوم والمنتشرة أيضًا في كل مكان ارتاده الروائي الشهير فيها.

وفي العامين التاليين، توقفت المسابقة، نتيجة للأوضاع السياسية المضطربة في البلاد والهجوم الذي تعرضت له الجزيرة فيما عرف بعملية «خليج الخنازير»[١١٩]. وفي عام ١٩٦٣ استأنفت مرة أخرى لكن على صعيد محلي. وخلال التسعينيات ومع اتجاه الحكومة الكوبية نحو السياحة كمصدر للدخل، استعادت المسابقة عالميتها كما كان شأنها عندما انطلقت مع هيمنجواي، ويشارك فيها المئات سنويًّا من جميع أنحاء العالم سعيًا للفوز بالأسماك المميزة لمياه تيار الخليج والتي جذبت الروائي الأمريكي منذ رحلته الأولى إليها مع جو راسل في عام ١٩٣٢.

تلك الرحلة التي روى تفاصيل كثيرة منها ومن رحلاته التالية في سلسلة مقالات بعنوان «رسالة من كوبا» أو «رسالة من هافانا»، نشرت في مجلة «إسكواير» الأمريكية في الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧. وتكشف تلك الرسائل الكثير من أجواء الصيد في المياه الكوبية، أنواع الأسماك، والفروق والاختلافات بينها، وسلوكياتها عندما تقع فريسة، إضافة إلى الكثير من المعلومات والحكايات التي يسردها هيمنجواي بأسلوبه الشيق.

(١١٩) «غزو خليج الخنازير» (١٧-١٩ إبريل ١٩٦١) محاولة هجوم فاشلة من قوات دربتها وكالة المخابرات المركزية من الكوبيين المنفيين لغزو جنوب كوبا وقلب النظام على فيديل كاسترو.

في الرسالة الأولى[١٢٠]، يصطحب القارئ معه في الرحلة ويعرفه بالقارب وإلي رفقائه، «***القارب هو «أنيتا»، طوله ٣٤ قدمًا، سرعته قوية تناسب تلك الأسماك، مالكه وقائده هو كابتن جو راسل من كي ويست، الذي جلب أول شحنة خمور من كوبا، والذي يعرف عن سمك أبو سيف أكثر مما يعرفه غالبية سكان كي ويست عن حانة «جرونت». والرجل الآخر على القارب هو كارلوس جوتييريث، ٥٤ عامًا، أفضل صياد لأسماك المارلين وأبو سيف في أنحاء كوبا. التقيته منذ ست سنوات في دراي تورتوجاس[١٢١]، وسمعت منه لأول مرة عن سمكة المارلين الضخمة التي فرت منه في كوبا[١٢٢]. يمكنه، حرفيًّا، أن يصيب بظهر يده الدلفين بالرمح في رأسه، ويحفظ عادات المارلين التي درسها منذ أن ذهب للصيد لأول مرة مع والده حينما كان في الثانية عشرة من عمره***».

ويستكمل وصفه لمحتويات القارب، ومن بينها صندوق الثلج فيقول: «***عادة ما يُوضع في المؤخرة ويحوي في جانب منه طُعم أسماك المارلين، بينما يحوي الجانب الآخر جعة وفاكهة مثلجة. أفضل طُعم للمارلين الكبيرة هو الماكريل الطازج أو سمك الكنعد الذي يتراوح وزنه بين رطل وثلاثة أرطال. وأفضل أنواع الجعة هي «هاتوي»، وأفضل الفواكه في الموسم***

(١٢٠) نشرت في سبتمبر ١٩٣٣ تحت عنوان «مارلين المورو.. رسالة من كوبا».

(١٢١) مجموعة جزر تقع في خليج المكسيك قريبًا من ساحل فلوريدا، ٦٧ ميلًا غرب كي ويست.

(١٢٢) تشير تلك الجملة إلى مصدر آخر استلهم منه هيمنجواي فكرة رواية «العجوز والبحر»، كما تؤكد أن شخصية سانتياجو لم يتأثر فيها فقط بجريجوريو فورنتس قائد قاربه بيلار، بل أيضًا بكارلوس جوتييريث وآخرين.

هي المانجو الفلبيني والأناناس المثلج والكمثرى التمساح[١٢٣]***. عادة نأكل كمثرى التمساح على الغداء مع شطيرة، حيث نرش عليها الفلفل والملح والليمون الطازج***».

كما يكشف أفضل مواسم الصيد: «***يمكنك أن تصطاد في كوبا بدءًا من شهر إبريل وطوال الصيف. الأسماك الكبيرة قد تجدها عرضًا حتى منتصف يونيو، فقد رأينا فقط أربعة خلال الموسم، لكن في يوليو وأغسطس، في أي يوم ستبحر فيه يمكن أن تصطاد أسماك تزن ٣٠٠ رطلًا وما يزيد، وأقصد ما يزيد كثيرًا. أكبر سمكة مارلين باعها الصيادون كانت تزن ١١٧٥ رطلًا من دون الرأس والذيل والزعانف، ١١٧٥ رطلًا من اللحم الصافي على الميزان، قل لي كم كان وزنها وهي في الماء؟ وكيف كانت تبدو وهي تقفز لأعلى؟***».

وتحوي أيضًا هذه الرسالة الأولى من كوبا، والتي يزيد عدد كلماتها عن ٢٥٠٠ كلمة، كمعظم مقالاته في «إسكوايَر»، معلومات عن أماكن الصيد في الجزيرة الغنية بأسماك المارلين: «***كدليل على مدى وفرتها، أظهر التقرير الرسمي من أسواق هافانا من منتصف مارس إلى ١٨ يوليو من هذا العام أن أحد عشر ألفًا من أسماك المارلين الصغيرة ومائة وخمسين من أسماك المارلين الكبيرة أحضرها إلى السوق الصيادون من سانتا كروث دِل نورتي، خاروكو، جوانابو، كوهيمَر، هابانا، تشوريرا، ماريانَاو، خايمانيتاس، باراكوا،***

(١٢٣) ويقصد بها ثمرة الأفوكادو، كما كانت تعرف في ذلك الوقت، حيث يشبه الأفوكادو فاكهة الكمثرى في شكله، أما قشرته الخارجية فخشنة لذا كان يطلق عليه في البداية كمثرى التمساح حتى تغييرها لاحقًا إلى أفوكادو، وهي النطق الإنجليزي لاسم تلك الثمرة الاستوائية التي تنتشر بكثرة في تلك المناطق وكانت تعرف باسم «أهواكاتل» (**ahuacatl**) في لغة حضارة الأزتيك القديمة في وسط المكسيك.

بانيس، ماريل وكاباناس. أما أسماك المارلين التي يتم صيدها في ماتانثاس وكارديناس في الشرق وفي باهيا هوندا في الغرب من تلك المدن المذكورة فلا تُشحن إلى هافانا».

وفي موضع آخر منها، يشرح المزيد عن عملية الصيد: «***حينما يكون الصيد في تيار سرعته خمسة أميال في الساعة، حيث تسبح السمكة المعقوفة بالخطاف، دائمًا عكس التيار، في عمق يتراوح بين أربعمائة إلى سبعمائة قدم؛ هناك الكثير لتتعلمه عن تكتيكات الصراع مع السمك الكبير. لكن إحدى الأساطير التي يمكن نسفها هي الأسطورة القديمة التي تقول إن ضغط الماء عند ألف قدم سيقتل السمكة، فالمارلين يموت في القاع فقط إذا علق الخطاف ببطنها. فهذه السمكة اعتادت الغوص في الأعماق، وغالبًا ما تجد غذاءها هناك، وهي ليست مخلوقة مثل أسماك الأعماق التي تعيش دومًا في الأسفل، لكنها خُلقت بحيث تتمكن من الصعود والهبوط في أي عمق***».

ثم يسرد تفاصيل صراعه مع سمكة وزنها ٣٤٣ رطلًا وكيف سحبت الحبل وغاصت في الأعماق ثم سكنت وعندما جذب الحبل واعتقد انها استسلمت عادت لتقاوم وقفزت خارج الماء نحو ٤٤ قفزة في مجمل صراع امتد ساعةً ونصفًا. حينما تقرأ ذلك الوصف التفصيلي في تلك المقالة المنشورة في عام ١٩٣٣، تستدعي ما رواه بعد ذلك بنحو عشرين عامًا في «العجوز والبحر». خصوصًا أنه يستكمل في مواضع مختلفة من المقال حديثه عن أنواع سمك المارلين وسلوكها عندما تلتقط الطعم، مانحًا إياها صفات إنسانية؛ فسمكة المارلين الغاضبة تختلف عن السمكة اللعوبة، وهناك السمكة اللامبالية وأيضًا السمكة

الغبية: «***المارلين السوداء سمكة غبية، فهي قوية للغاية، ويمكنها القفز بشكل رائع سيكسر ظهرك، لكنها لا تتمتع بقدرة التحمل التي تتمتع بها المارلين المخططة، ولا بذكائها. وأعتقد أن معظمها من الأسماك الأنثى العجوزة التي تخطت مرحلة الشباب، وأن العمر هو الذي يمنحها اللون الأسود. فعندما تكون أصغر سنًّا، يكون لونها أكثر زرقة ولحمها أكثر بياضًا***».

وفي رسالته الثانية عن الصيد في هافانا، المنشورة في أغسطس ١٩٣٤، يصف حرارة الشمس وقسوتها في ذروة فصل الصيف: «***الشمس على الماء هي أصعب جزء من صيد المارلين في الساحل الشمالي لكوبا خلال شهري يوليو وأغسطس. تكون هافانا أكثر برودة من معظم المدن الشمالية في تلك الأشهر؛ لأن الرياح التجارية الشمالية الشرقية تنشط حوالي الساعة العاشرة صباحًا وتظل حتى الساعة الرابعة أو الخامسة من صباح اليوم التالي، وهي رياح باردة ولطيفة، ولكن في عرض البحر حتى مع وجود نسيم، تمنحك الشمس ما تتذكرها به. يمكنك تجنب ذلك بالإبحار نحو الشرق مع التيار في الصباح، والصيد باتجاه الشمس، ثم العودة عكس التيار في فترة ما بعد الظهر بحيث تكون الشمس في ظهرك مرة أخرى، لكن الأسماك بين هافانا وكوهيمَر ستضطرك للقيام برحلات ذهاب وإياب متعددة. لن يكون الأمر سيئًا جدًّا لعينيك إذا كنت ترتدي نظارة بعدسات كروكس. صارت عيناي أفضل بكثير بعد مائة يوم في الخليج عما كانت عليه في البداية. لكنها ستمنحك أنفًا أحمر مثل تلك الخضروات الاستوائية النادرة وغير الجذابة. يمكنك أن تحميها بقليل من زيت جوز الهند بيدك اليسرى بينما تمسك البكرة باليد اليمنى حتى تشاهد الطُعم يتأرجح***».

ثم يتطرق في مقاله الثاني إلى أنواع أخرى من الأسماك مثل قرش ماكو وسمك أبو سيف وأبو شراع وغيرها، مستخدمًا أسلوبه السردي المعروف وهو طرح أسئلة من دون إجابات، لإشراك القارئ في العملية الإبداعية، حيث يقارن بين تلك الأسماك وسمكة المارلين: «***لماذا لا يأكل قرش ماكو سمكة المارلين أو سمك أبو سيف المعقوف بالخطاف أو الميت بينما كل أسماك القرش الأخرى تفعل ذلك؟ ما هذا الذكاء أو الشجاعة في سمكة مثل ماكو ترفض السحب عندما تبتلع الخطاف، إلا إذا خدعها الصياد، فقرش ماكو سيمارس تكتيكات مختلفة للهروب والصعود لسطح الماء والراحة خلال صراعه مع الصياد، ما الذي يجعله يحوم حول سمكة المارلين الميتة ولا يقترب منها أو يأكلها؟ الماكو سمكة غريبة. جلده ليس كسمكة قرش، عينه ليست مثل سمكة القرش، زعانفه تشبه سمكة أبو سيف، وفمه أعرض من سمكة القرش ورائحته حلوة وليست مثل القروش، فقط فمه المليء بالأسنان المنحنية التي أعطته اسمه الكوبي (دنتوسو)***[١٢٤]***، هو فم سمكة قرش. ولديه خياشيم سمك القرش***».

في رسالة ثالثة من هافانا يتحدث عن صديقه جو راسل الذي يمنحه اسم تدليل «جوزي»، ويحكي كيف يكون الصيد برفقته ومن دونه: «***في العام الماضي، كان اصطياد السمك الكبير أسهل كثيرًا. عندما كان القارب بقيادة الكابتن جوزيف راسل، المعروف لدى المقربين منه باسم جوزي جرونتس***[١٢٥]***، الذي يستيقظ على الفور، مهما كان نومه عميقًا، ويمسك**

(١٢٤) **Dentuso** ويعني ذا الأسنان.

(١٢٥) جرونتس اسم أشهر حانة في كي ويست في ذلك الوقت.

بمقود المركب بمجرد أن تظهر في الأفق سمكة كبيرة. كل ما عليك أن تقوله هو « امسك بها يا كابتن»، ويكرر جوزي الجملة وينطلق وراءها بالسرعة المطلوبة والزاوية الصحيحة التي تمكن الصياد من إصابتها». ثم يكمل هيمنجواي مقالته كأنه يكتب قصة قصيرة، يروي مشاهد من الرحلة، يزينها بحوار يدور بين الشخصيات الموجودة على القارب، ويحكي كيفية التقاط السمكة للطُّعم، ومقاومتها الموت مسرفًا في نوعها وسلوكها عدما تقع في الفخ.

تكشف تلك الرسائل أو المقالات المنشورة في النصف الأول من الثلاثينيات، عن الكثير من ملامح أسلوبه المميز، السهل الممتنع، المليء بالجمل القصيرة التي يستخدم فيها القليل من الكلمات ليعبّر عن الكثير من الأفكار والأشياء، راسمًا المعنى بأقوى الصور. حيث يُوصف دومًا بأن عمله الصحفي يغلب بشكل كبير على أسلوبه، فيتعامل مع الصور القصصية كما التصوير الفوتوغرافي من حيث التجسيد والتصوير للأفكار، وينقل من مشهد إلى آخر للتشويق بالقطع من فكرة إلى أخرى ومن صورة إلى أخرى.

في مقالاته عن الصيد، تبين لي جانبٌ جديدٌ من شخصية صاحب نوبل متعددة الأوجه التي قد تلمحها في رواياته وقصصه، لكن مهما قرأت من سيرته الذاتية أو مقالاته المنشورة أو حتى أعماله الأدبية لن ترى هيمنجواي كما رأيتُهُ واقتربتُ منه في كوبا، فهو حي في المشهد الكوبي. ولفهمه أكثر عليك أن تذهب إلى هناك، هذا ما جعلني بعد

زيارتي إليها أعيد استيعاب كتاباته بصورة أفضل وألمح شخصيته وسيرته بين سطورها. وقد تكون أيامي في هافانا قد انتهت لكن رحلتي في أثر هيمنجواي لم تنتهِ، فلا يزال هناك الكثير لأكتشفه عن الروائي واسع الانتشار، ربما في بلاد أخرى عبر رحلات جديدة.

❊ ❊ ❊

أستا لويجو.. إلى لقاء قريب

في تلك الرحلة عرفت هيمنجواي وعرفت كوبا من خلاله وبعينيه، أحب أهلها وقال عنهم: «***دفء الشمس الاستوائية يجري في عروقهم ولمعتها في أعينهم***»، هذا ما شعرت به أيضًا خلال وجودي في هافانا، الحميمية التي يقابلك بها أهلها، يستوقفونك في الشارع ليتبادلوا معك حديثًا ودودًا، وإذا كنت تتحدث الإسبانية فسوف يطول الحديث بلا شك، وربما ينتهي بدعوة على قهوة أو تناول الطعام.

وإذا كنت تسير وحدك ستسمع تعليقات إعجاب، سواء من رجل أو امرأة، فسكان تلك الجزيرة بدمائهم الحارة ولون بشرتهم السمراء يشبهوننا نحن العرب كثيرًا، لكنهم أكثر حرية في التعبير عن أنفسهم، وأكثر تصالحًا مع ذواتهم.

رأيت النساء يجلسن على عتبات المنازل، تحدث الجارة جارتها من الشرفة، أو تتبادل معها الحديث من الشارع، خصوصًا بين من يسكنن الطابق الأرضي، حيث تقف واحدة داخل بيتها وراء النافذة المغطاة بالحديد المزخرف لتأمين الشقق، والثانية على الرصيف تحمل أغراضها التي اشترتها من السوق. وفي الصباح، ترى الباعة يفرشون

طاولات لبيع الخضروات والفاكهة أمام البيوت، ومعظمهم من الشباب الذي يسعى لكسب رزق سريع؛ لأنه ما إن تشتد حرارة الظهيرة، حتى يجمعوا ما تبقى معهم ويرحلون. أما في وقت العصاري فالرجال خصوصًا الكبار في السن، يجتمعون في الشوارع الجانبية الضيقة، حول طاولات في عرض الطريق ليلعبوا الدومينو.

وكلما ابتعدت عن المنطقة السياحية ستقابل أهل البلاد الحقيقيين وتلمس طيبتهم وكرم مشاعرهم برغم المعاناة المادية التي يعيش فيها معظمهم، وملامح الفقر التي تركت آثارها على ملامحهم، إلا أنهم أغنياء بقلوبهم المليئة بالحب والهدوء النفسي. كنت أتعرف إلى أهل الجزيرة يومًا بعد يوم، كما أتعرف إلى كاتبي الذي تخليت عن كل شيء من أجله. و في نهاية زيارتي القصيرة تمنيت أن أعود إلى كوبا مرات ومرات مثله، وأن يسعدني الحظ وتأتيني الفرصة التي تجعلني أقضي بقية حياتي فيها.

في صباح نهاري الأخير، لم يكن باقيًا سوى ساعات قليلة قبل التوجه إلى المطار، فقررت أن أقوم بجولة أخيرة في الشوارع التي أحببتها وألفتها، نزلت من بيتي، أو ما أصبحت أشعر أنه صار بيتي، وسرت في الطريق ذاته الذي مشيته اليوم الأول، اتجهت يمينًا ثم يسارًا، عبرت الشارعين المتوازيين مع إندوستريا حتى وصلت إلى شارع دي مارتي، وسرت أسفل البوائك مارة بفندق إنجلاتيرا والمسرح الكبير (الجران تياترو). عبرت الحديقة المقابلة له، بارك ثنترال، حتى وصلت إلى حانة فلوريتديتا على طرف شارع أوبيسبو الذي يشكل أحد مداخل

هافانا القديمة (هابانا بييخا)، كانت مغلقة كالعادة، فهي لا تفتح قبل الظهيرة، مشيت في الطريق الضيق ذي البلاطات الحجرية والحوانيت الصغيرة المتلاصقة، واشتريت من أحدها، مثل أيامي السابقة، شطيرة جبن مع اللحم البارد كالتي يتناولها الكوبيون في فطورهم. شاهدت الصغار في طريقهم إلى مدارسهم، يبتسمون ويضحكون ويسيرون في صفوف خلف معلمتهم. التقطت كثيرًا من الصور لأحد الصباحات العادية في هافانا ثم عدت إلى شقتي.

صنعت قهوتي، لكن هذه المرة على الطريقة الكوبية، بعد أن انتهى مخزوني من حبوب القهوة الذهبية السريعة الذوبان، ماركة «ماكسويل هاوس» التي أحب مذاقها ولا أستغني عنها حتى في رحلاتي، فأصطحب معي مرطبانًا منها. استخدمتُ غَلاّيَة القهوة، الإيطالية الصنع المعروفة باسم (موكا) التي توضع على الموقد فتمنحك فنجانًا مركزًا كالاسبريسو، مستعينة بمسحوق البن المحلي الذي تركه لي صاحب الشقة[١٢٦]. جلست في الشرفة أتأمل تفاصيل بداية نهار آخر في هابانا ثنترو، الحوانيت الصغيرة الملحقة بالبيوت، يفتحها أصحابها، فتجد أحدهم يرش المياه التي نظف بها حانوته على الرصيف أمامه، وآخر يرص بضائعه على طاولة صغيرة على باب محله. تناولت فطوري الكوبي المكون من شطيرة الجبن واللحم مع القهوة، ولم يكن ينقصه سوى الصحبة والبيض المقلي.

(١٢٦) يعتز الكوبيون بمذاق قهوتهم المحلية، التي يُصنع مسحوقها على طريقتهم الخاصة من حبوب القهوة التي تزرع في الأراضي الخصبة لسلسلة الجبال الوسطى في الجزيرة، وتعتبر ثالث أهم منتج في كوبا بعد السيجار والسكر.

انتهيت من طعامي وتأملاتي وتأهبت للرحيل، وفي طريقنا إلى المطار طلبت من رافائيل، صديق صاحب الشقة، الذي أقلني يوم وصولي أن يمر مجددًا بطريق الكورنيش (الماليكون)، في وداع أخير. كانت أمواج المحيط هادئة تنساب في نعومة، ولونه السماوي الرائق كمرآة تعكس أشعة الشمس التي بدأت تشتد مع اقتراب الظهيرة.

في صالة الانتظار في مطار هافانا الدولي، بعد أن أنهيت إجراءات السفر، وقبل الصعود إلى الطائرة، نظرت من النافذة المطلة على مدرج الطائرات حيث ترى من بعيد الأحراش المحيطة بمطار خوسيه مارتي الذي يبعد عن المدينة نحو نصف ساعة بالسيارة، ووجدتني أودع لؤلؤة الكاريبي بالكلمة التي كان يقولها لي أهلها في نهاية كل لقاء بيني وبينهم سواء في المطاعم أو المتاجر: «أستا لويجو»، وتعني أراك لاحقًا أو إلى لقاء قريب، فكلما كنت أقول لهم: «أديوس» أي وداعًا، يجيبونني: «أستا لويجو».

وقد كان لقائي بها قريبًا بالفعل عندما قابلت الصديقة سوسن بشير بعد مغادرتي هافانا بيوم واحد. كنا نجلس في كافيتريا متحف المتروبوليتان في نيويورك، أروي لها تفاصيل رحلتي، واقترابي من عالم الروائي الأميركي، فهتفت سوسن: «هذا يصلح كتابًا»، ووضعنا العنوان معًا. وبعد عودتي إلى الكويت مباشرة، شرعت في جمع المعلومات والقراءة بشكل موسع عن البلد التي بقيت فيها أيامًا قليلة، كأنني أعاود زيارتها مجددًا من خلال الروايات والكتب والأفلام، ومنها على الأخص «رواية حياتي» للروائي الكوبي المعاصر ليوناردو بادورا،

التي تقدم سيرة ملخصة لتاريخ كوبا المعاصر خلال مائة عام تقريبًا، منذ بداية الكفاح ضد المستعمر الإسباني وحتى التسعينيات، وعدد من الوثائقيات التي تروي سيرة كفاح أهلها وسيرة تشي جيفارا، وأيضًا فيلم «هيمنجواي في كوبا». وعندما بدأت مرحلة الكتابة صحبتني إليها مرة ثالثة الصور والفيديوهات التي التقطتها أو شاهدتها على موقع الفيديوهات المصورة «يوتيوب» لهافانا ولهيمنجواي ومراجعتي للأغنيات والموسيقى، عشرة شهور أو أكثر قضيتها في ومع هذه البلاد الساحرة عبر مراحل هذا العمل، وفي النهاية لا أقول لها وله سوى «أستا لويجو».

❊ ❊ ❊

وأخيرًا،

يقول هيمنجواي في حديث ودي مع خادمه الأمين في كوبا لسنوات طوال رينيه فياريال[١٢٧]: «***رينيه، أتعلم متى أكتب بشكل أفضل؟***»، ***كان يقف أمام الآلة الكاتبة، «صباحًا، في الصباح الباكر أبذل قصارى جهدي، يكون ذهني صافيًا وحادًّا بعد ليلة هانئة ونوم مريح. بل إنه من الأفضل أن يكون ما تكتبه خاصًّا بك، يخصك مثل تجاربك الشخصية، هنا ينجح الأمر. لا يهم طول المدة التي مرت إذا كانت الذاكرة لا تزال حية، يمكنك تدوين ما تتذكره بسهولة، والتفاصيل تضيفها بعد ذلك***»[١٢٨].

كنت أقرأ تلك السطور بعد انتهائي من نحو ٩٠ ٪ من هذا الكتاب، وشعرت مجددًا أن كلماته يوجهها إليَّ شخصيًّا، فأنا أكتب دائمًا في الصباح الباكر، عندما يكون ذهني صافيًا بعد نوم عميق. وكنت خلال مراحل كتابة هذه السطور أستيقظ في الرابعة أو الخامسة صباحًا لأكتب مثله، بدءًا من السادسة وحتى العاشرة أو الحادية عشرة. أما جملته التي يقول فيها « ***من الأفضل أن يكون ما تكتبه خاصًّا بك، مثل تجاربك الشخصية***»،

(١٢٧) «الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة»، تأليف رينيه فياريال وابنه راؤول فياريال، منشورات جامعة ولاية «كنت».

(١٢٨) دار ذلك الحديث في أعقاب إعلان فوزه بجائزة نوبل في ٢٨ أكتوبر ١٩٥٤، وكان حينها يقوم بكتابة مذكرات رحلته إلى أفريقيا في عام ١٩٥٣، والتي تعرض فيها لحادثتي طائرة، كادت أن تودي ثانيتهما بحياته.

كانت تعبر عني تمامًا، فهذا الكتاب بقدر ما يروي تفاصيل كثيرة عن هيمنجواي، هو رؤيتي الخاصة لما شاهدته وخبرته خلال أيامي في هافانا.

طوال ثلاثين عامًا عمر رحلتي في الصحافة، كان حلمي إصدار كتاب يحمل اسمي، فبدأت أولًا بالترجمة وصدر لي أول كتاب مترجم، ثم موسوعة المشاهير التي تضم صفحات نشرت في جريدة محلية كويتية، تناولت فيها لمحات من حياة عدد من الشخصيات العالمية في مجالات مختلفة. كأني كنت أحاول عبر تلك الإصدارات تلمس طريقي في الكتابة، الذي وجدته في هذا الكتاب ودلني عليه هيمنجواي عندما سرت على خطاه في كوبا. فقد وضعني الأديب الكبير صاحب نوبل على أول خطوة في مسار أدب الرحلات، وخصوصًا الثقافية منها، التي تروي سيرة روائي أو فنان من خلال المكان الذي عاش فيه أو من خلال آثاره وأعماله. تجربة أتمنى أن أحقق فيها المزيد من الإنجازات، خصوصًا وأنني في كل بلد زرتها، كنت أحرص على زيارة بيوت بعض مشاهيرها، ومتاحفهم وكل ما يرتبط بهم، مقاهيهم المفضلة وأماكن أخرى ربما تشكل رحلة جديدة في كتاب مقبل.

من القلب

شكر من القلب للروائي الكويتي والصديق سعود السنعوسي على قراءته المتأنية وملاحظاته الدقيقة، ولصبره على أسئلتي التي تعلمت من إجاباته عليها الكثير، وللصديقة شروق مظفر لتشجيعها الدائم ومتابعتها مراحل الكتاب، وللصديق محمد حمزة النجار على مساعداته القيمة طوال فترة الكتابة. وفي النهاية أشكر بناتي ليلى وعالية على احتمال انشغالي عنهما مع هيمنجواي وحكاياتي عنه طوال الوقت.

ملحق الصـــور

كوبـــا الســـاحـرة

لقطات من وسط المدينة في الليل حيث الجران تياترو والكابيتوليو

الكاتبة على كورنيش الماليكون

ممشى باسيو دِل برادو

لقطات متنوعة في شوارع هافانا القديمة، موسيقيون ومهرجون وبائعات الورد

الزعيم الكوبي فيديل كاسترو والكاتب الأمريكي إرنست هيمنجواي

كاسترو يحمل كأس فوزه بالمركز الثاني في مسابقة هيمنجواي للصيد في لقائه الوحيد بالكاتب الأمريكي مايو ١٩٦٠

مع زوجته الثانية بولين فايفر على السفينة يوم وصولهم كوبا إبريل ١٩٢٨

مع جو راسل في القارب أنيتا ورحلات الصيد الأولى في كوبا

مع زوجته الثالثة مارثا جيلهورن التي كانت سببًا في شرائه مزرعة فينكا بيهيا

هيمنجواي شابًّا يجلس في شرفة بيته في كوبا

ومع أصدقائه في إحدى حانات هافانا

لا بوديجيتا دل ميديو

تلمح الزحام أمام الحانة الصغيرة من أول الشارع

صورة هيمنجواي مع كاسترو، وإلى جوارها لوحات مرسومة لصاحب الحانة أنخيل مارتينيث

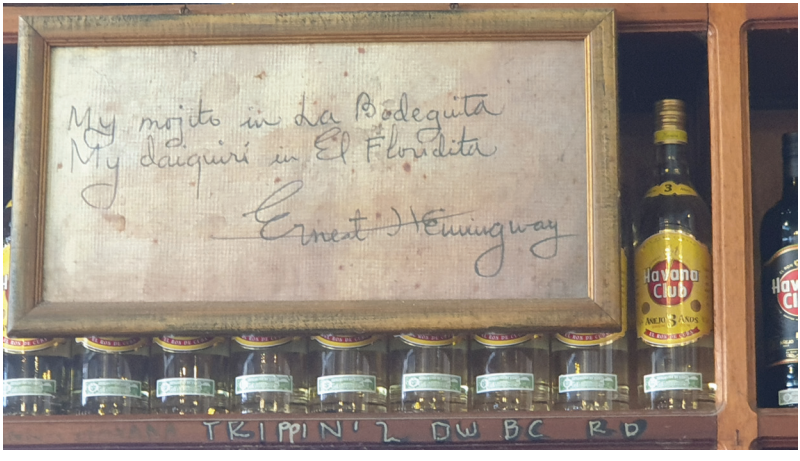

الجملة المنسوبة إلى هيمنجواي في إطارها تزين أعلى المشرب

الساقي أرتورو منشغل في صنع الموهيتو

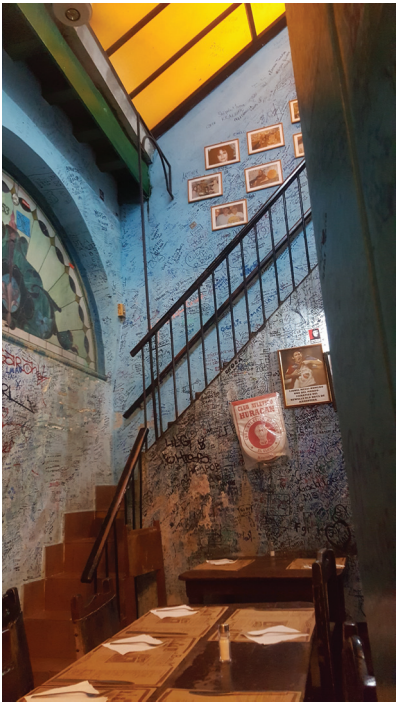

لقطات من داخل المطعم، حيث توقيعات وصور الزبائن والمشاهير تزين الجدران

باب الفندق من شارع أوبيسبو

مدخل الفندق، حيث تزين صور هيمنجواي جدرانه

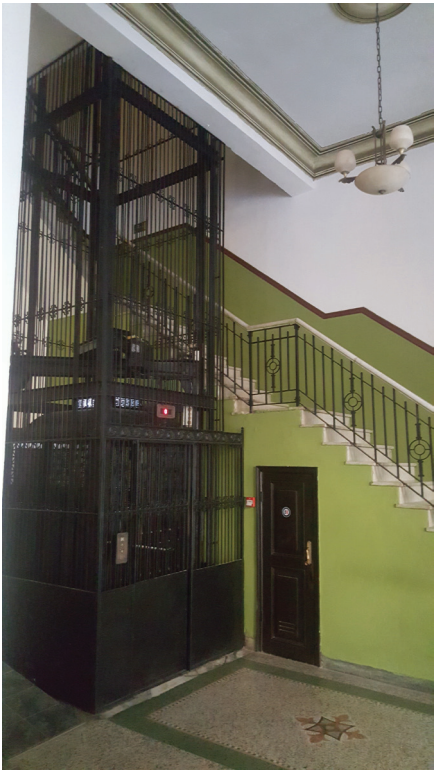

المصعد القديم الذي يعمل منذ بناء الفندق في عام ١٩٢٤

الغرفة رقم ٥١١ في الطابق الخامس، التي سكنها الروائي الأمريكي في الثلاثينيات

اسبيرانثا جارثيا؛ المشرفة المسؤولة عن غرفة هيمنجواي إلى جوار خزانة تضم رواياته

في وسط الغرفة، الآلة الكاتبة التي كان يكتب عليها مقالاته وروايته فوق طاولة بساق حلزونية لضبط ارتفاعها

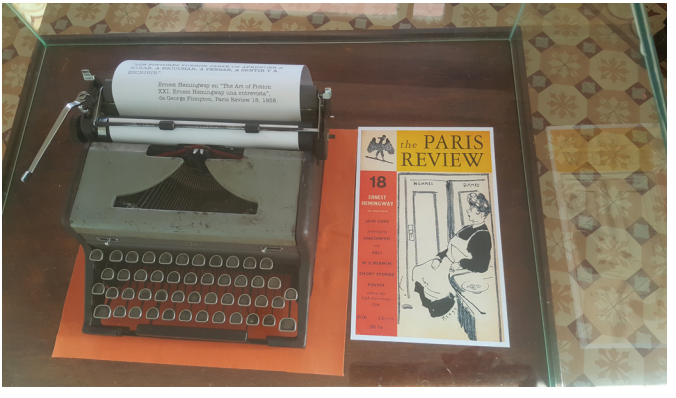

في الأعلى السرير وعليه عدد من مجلة باري ماتش الفرنسية، وفي الأسفل المنظر الذي تطل عليه النافذة المواجهة للسرير

فينكا بيهيا

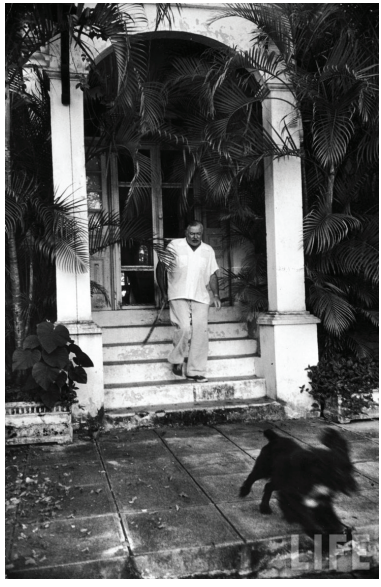

إرنست هيمنجواي أمام مدخل المنزل في فينكا بيهيا أغسطس ١٩٥٢

المؤلفة أمام مدخل المنـزل في فبراير ٢٠٢٠

في الأعلى صورة عامة لمدخل البيت من تصوير المؤلفة وأسفل ملحق الضيوف (البنجالو)

أعلى: صالة المنـزل حيث توجد غرفة المعيشة والقوس المفضي إلى غرفة الطعام، أسفل: إلى اليمين لوحة روبيرتو دومينجو بين رأسي ظباء ومكتبة المجلات وإلى اليسار جانب من غرفة المعيشة حيث يظهر مقعد هيمنجواي المفضل

أعلى: الروائي الأمريكي يقرأ جالسًا على مقعده المفضل وإلى جواره طاولة المشروبات، أسفل: هيمنجواي وإلى جواره تجلس الإيطالية أدريانا إيفانتشيتش

طاولة الطعام معدة في انتظار صاحب البيت وضيوفه وفي الأعلى نلمح
رؤوس الظباء من غنائم الكاتب

أعلى هيمنجواي مع ضيوفه، وأسفل: الكاتب يلاعب قطه المفضل وإلى جواره زوجته الرابعة ماري وخلفه لوحة خوان ميروه « المزرعة».

نسخة من لوحة خوان ميروه في مكانها في قاعة الطعام

أعلى لقطة عامة لغرفة المكتبة، وأسفل جانب منها تظهر فيه لوحة راؤول هينكس الدجاجة وحدوة الحصان، إحدى اللوحات الأصلية الباقية

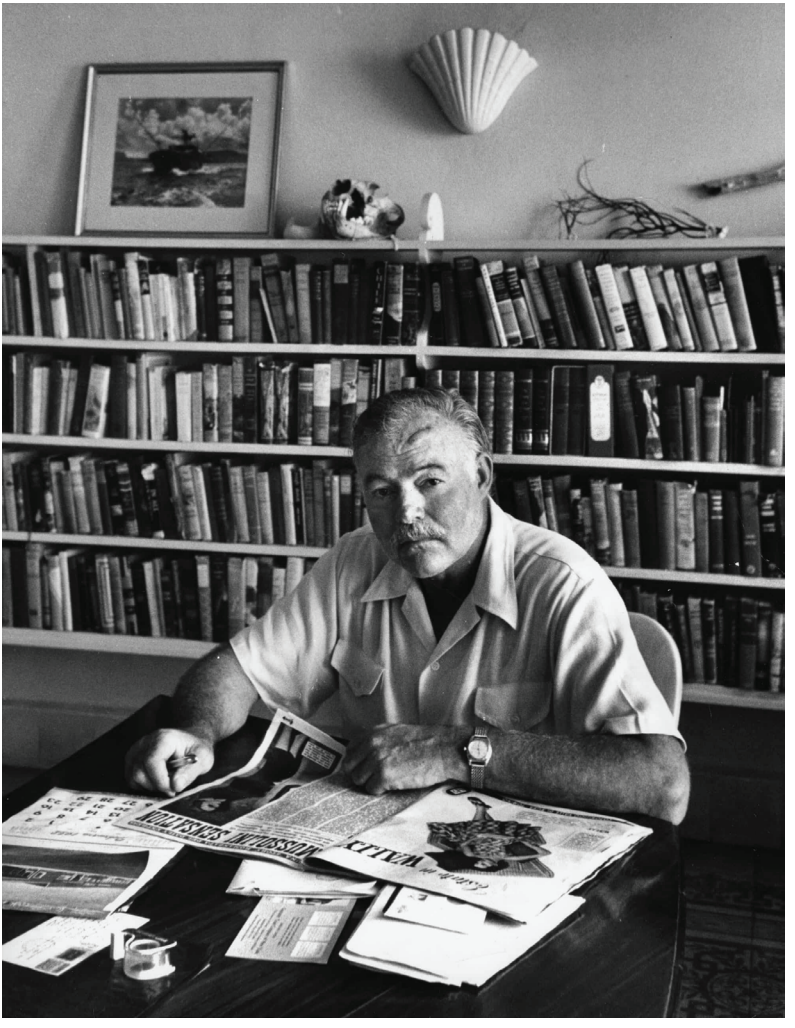

هيمنجواي يقرأ جريدة على مكتبه في غرفة المكتبة، ونلاحظ التفاصيل على الجدار خلفه هي ذاتها في الصور السابقة

الكاتب الشهير واقفًا إلى جوار زوجته الرابعة ماري وخلفهما يظهر الأسد ذو اللبدة السوداء الذي اصطادته ماري في إحدى رحلات السفاري إلى إفريقيا

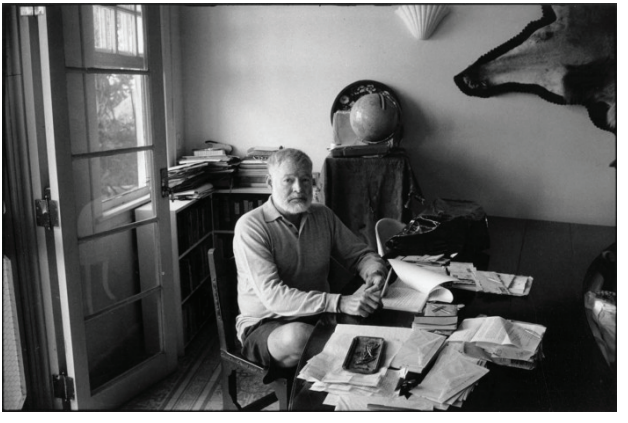

على مكتبه حيث كان يراجع مخطوطاته ويكتب رسائله كما يقول فياريال، ويظهر في الصورة كما نلاحظ سن سمكة أبو سيف الذي كان يفتح به أظرف خطاباته

غرفة العمل والقيلولة، حيث السرير يتوسط نافذتين كبيرتين

الجانب المواجه للسرير والذي يُفضي إلى غرفة المكتب الملحقة

في المواجهة خزانة الكتب، حيث توجد الآلة الكاتبة
التي كان يكتب عليها واقفًا

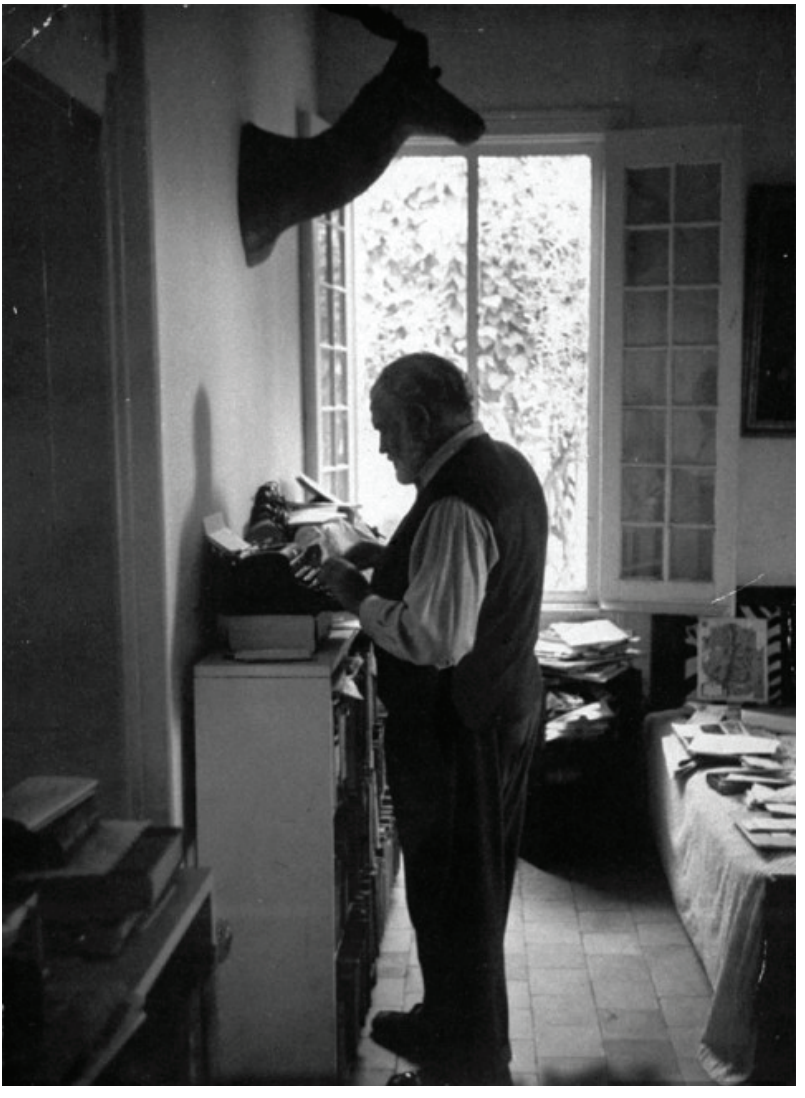

هيمنجواي يكتب على الآلة الكاتبة

أعلى: غرفة المكتب الملحقة، وفيها تظهر طاولة المكتب ورأس جاموس إفريقي، وأسفل: هيمنجواي يقف مع صديقه الصحفي كامبوامور

الحمام: أعلى يمينًا المغسلة وخزانة الكتب ويسارًا مرحاض الشطف وميزان الجسم، وأسفل الحائط الذي كان يسجل عليه وزنه

غرفة الضيوف وأسفل الصورة التي رسمها له أوسكار فياريال شقيق مدير منزله رينيه فياريال

جانب من الشرفة، حيث توجد غرفة العمل والقيلولة والحمام وعلى اليسار البرج العلوي، وأسفل هيمنجواي مع زوجته ماري وقطها المدلل في المكان ذاته قبل أكثر من ٦٠ عامًا

أعلى: هيمنجواي على السرير في غرفة النوم الرئيسة،
وأسفل: صورة من الإنترنت لهذه الغرفة غير المسموح بمشاهدتها

يقف أمام اللوحة التي رسمها له والدو بيرس، وكانت في غرفة النوم الرئيسة، وتوجد حاليًا ضمن مجموعة مقتنياته في مكتبة ومتحف جون إف كينيدي في بوسطن، الولايات المتحدة.

مع سكرتيرته فاليري دنبي سميث

مع خادمه الأمين رينيه فياريال وخطيبته.

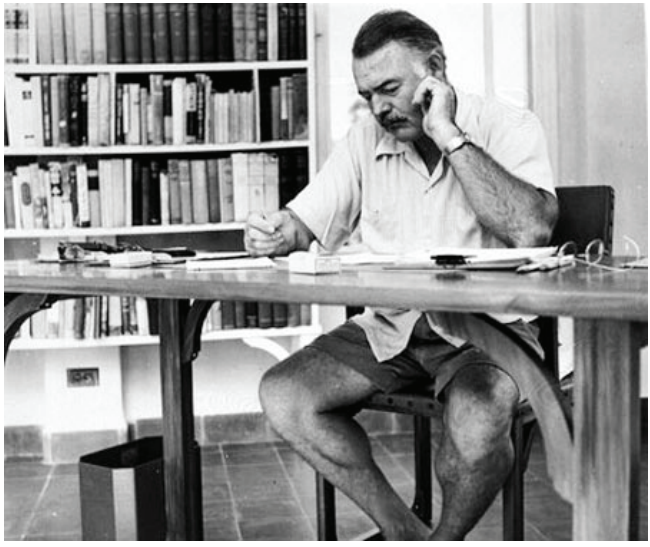

يجلس على طاولة المكتب في غرفة البرج

لقطتان من غرفة المكتب في البرج التي رسمتْ فيها أدريانا غلاف رواية «العجوز والبحر»

المنظر من أعلى التلة خلف المنـزل حيث تشاهد على السفح بيوت سان فرانسيسكو دي باولا وصولًا إلى هافانا

حمام السباحة

قبور الكلاب الأربعة

القارب بيلار يستقر مكان ملعب التنس قديمًا

تمثال صاحب البيت في الساحة أمام المنزل يرحب بضيوفه ويودعهم عند الرحيل

مطعم لا تيراثا (الشرفة)

أعلى: مطعم الشرفة يخضع للترميمات وقت زيارة المؤلفة، وأسفل: صورة من الإنترنت للمطعم من الخارج

المشرب في مطعم لا تيراثا

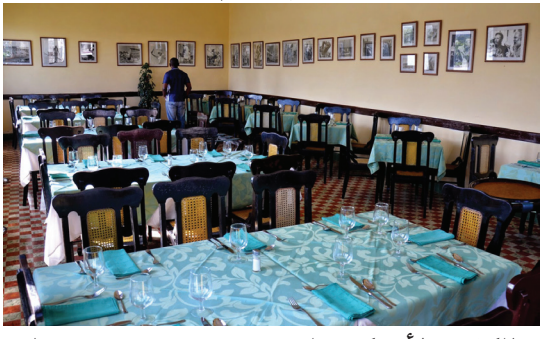

صورة متعددة للكاتب الأمريكي على جدارين من تصوير راؤول كورواليس ابن كوهيمَر الذي أصبح لاحقًا واحدًا من أشهر المصورين الفوتوغرافيين في البلاد

طاولة هيمنجواي المفضلة في المطعم، ومجسم لوجهه صنعه فنان إيطالي وأهداه إلى المطعم

كوهيمر

قلعة توريون دي كوهيمَر تطل على الخليج والميناء الذي طالما أبحر منه صاحب نوبل، وأسفل: صورة للخليج

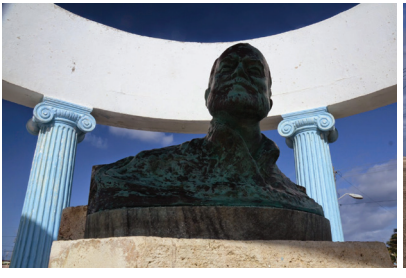

تمثال هيمنجواي يتوسط الأعمدة الرومانية في الساحة أمام القلعة

صيادي كوهيمر أمام تمثال هيمنجواي الذي صنعوه تخليدًا لذكراه بعد وفاته،
وأسفل: الكاتب الشهير مع صبية البلدة يشدون قاربه

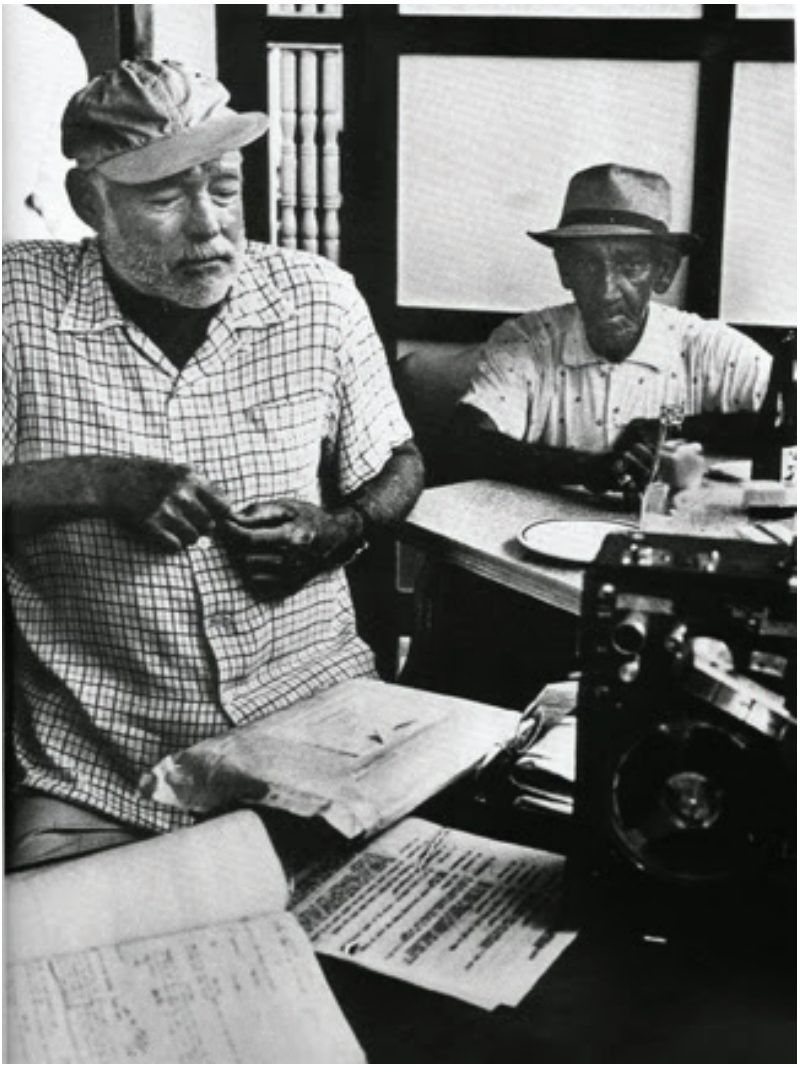

مع إنسيلمو إرنانديز أحد صيادي كوهيمَر

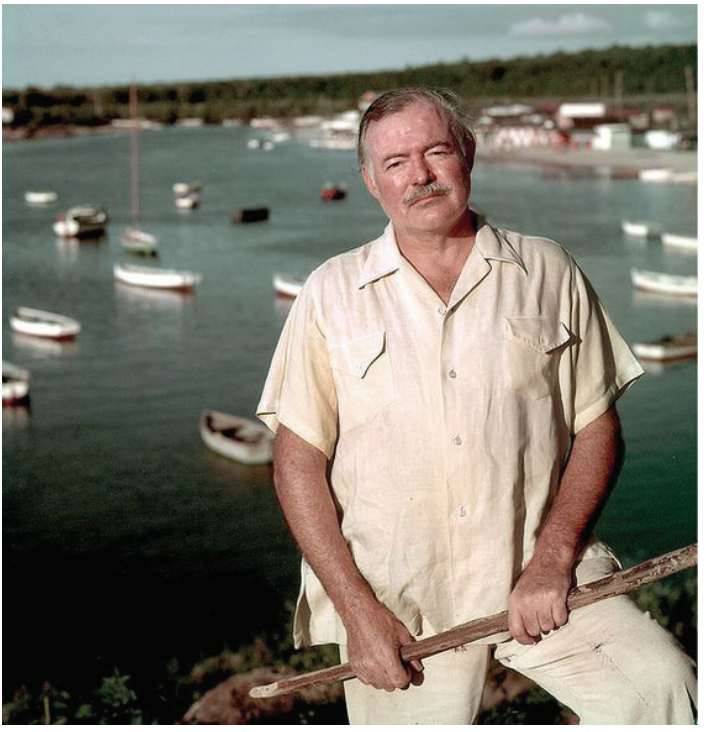

هيمنجواي أمام خليج كوهيمر وأسفل قائد قاربه وصديقه جريجوريو فوينتس

هيمنجواي البرونز الواقف في مكانه المفضل في زاوية مشرب حانته الأثيرة

زوار المكان
يشاركونه النخب
ويلتقطون الصور
التذكارية

المشرب الطويل من
خشب الماهوجني الذي
يجمع في أناقةٍ بين اللونين
البني والأحمر وكؤوس
الدايكيري أمام الزبائن

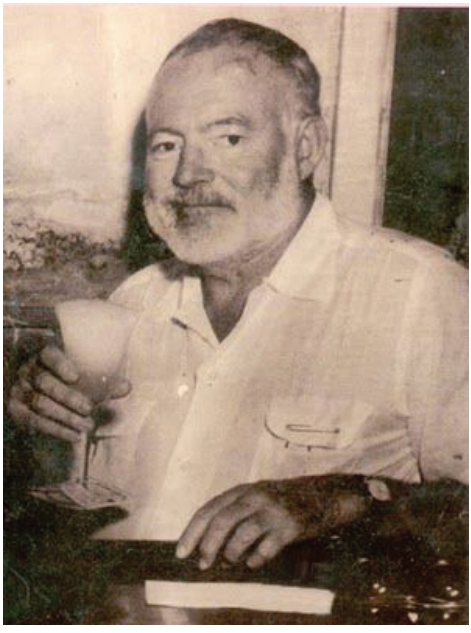

أعلى: هيمنجواي يمسك بنسخته الخاصة من مشروب الدايكيري،
وأسفل: مع زوجته ماري وأصدقائه في إحدى السهرات في فلوريديتا

الصورة الوحيدة له مع ليوبولدينا رودريجز، ويظهر واضحًا هيامُهُ بها

مع زوجته وأصدقائه في فلوريديتا وإلى جواره الحسناء الإيطالية أدريانا

دوس إرمانوس

على اليمين واجهة مطعم دوس إرمانوس من الخارج،
وعلى اليسار: المشرب واسم المطعم مدونٌ أعلاه

المؤلفة أمام مشرب المكان الذي يحتفظ بطرازه العتيق
منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم

الفرقة الموسيقية تعزف بين الطاولات

سلوبي جوز

أعلى: صورة مؤسس المكان فوق خزائن العرض الزجاجية،
وأسفل: المشرب الطويل الممتد بين بابي المكان،
ويحوي جميع أصناف المشروبات

إلى اليمين المؤلفة تجلس إلى جوار العمود الذي يضم صورة الروائي الشهير وإلى اليسار صورته في سلوبي جوز

المؤلفة أمام السيارة بونتياك شيفتين، قريبًا من حانة سلوبي وجوز، ورحلة إلى زمن هيمنجواي

المصادر

• كلمة إرنست هيمنجواي في حفل تسلم جائزة نوبل المنشورة على موقع الجائزة.

https://www.nobelprize.org/prizes/literature/1954/hemingway/speech

• شهادة لجنة نوبل المنشورة على موقع الجائزة.

https://www.nobelprize.org/prizes/literature/1954/summary

• «Hemingway's Cuban Son: Reflections on the Writer by His Longtim Majordomo», René Villarreal and Raul Villareal, The Kent State University Press (2009)

«الابن الكوبي لهيمنجواي.. تأملات عن الكاتب الشهير يرويها مدير منزله لسنوات طويلة»، رينيه وراؤول فياريال. منشورات جامعة ولاية «كنت» (٢٠٠٩).

• «Sailing to Hemingway›s Cuba», Dave Schaefer, Sheridan House, (October 1, 2000)

«الإبحار إلى هيمنجواي كوبا»، ديف شيفر، شيريدان هاوس (أكتوبر ٢٠٠٠).

• «Hemingway in Cuba», Norberto Fuentes, Lyle Stuart, Inc.; First Edition (January 1, 1984)

«هيمنجواي في كوبا» نوربيرتو فورينتس، لايل ستيورات إنك، الطبعة الأولى (يناير ١٩٨٤).

• Hemingway in Cuba, Robert Manning, The Atlantic, AUGUST 1965 ISSUE

«هيمنجواي في كوبا»، روبرت مانينج، « ذي أتلانتيك»، أغسطس ١٩٦٥.

https://www.theatlantic.com/magazine/archive/1965/08/hemingway-in-cuba/399059/

• «Ernesto: The Untold Story of Hemingway in Revolutionary Cuba», Andrew Feldman, Melville House (May 28, 2019)

«إرنستو: القصة غير المروية لحياة هيمنجواي في كوبا الثورية»، أندرو فيلدمان، ملفيل هاوس (مايو ٢٠١٩).

• «Ernest Hemingway and Enrique Serpa: A Propitious Friendship», Andrew Feldman (Hemingway Review, Spring 2013)

«إرنست هيمنجواي وإنريكِه سيربا: صداقة مفيدة»، أندرو فيلدمان، عدد ربيع ٢٠١٣ من دورية «هيمنجواي ريفيو».

• «La amistad con Enrique Serpa: una primera impresión», Armando Cristóbal.

«الصداقة مع إنريكِه سيربا: انطباعات أولى»، أرماندو كريستوبال.

http://www.lajiribilla.co.cu/2009/n425_06/425_06.html

• «To Have and Have Another—A Hemingway Cocktail Companion», Philip Greene, Penguin Publishing Group (March 2015)

«أن تحصل على واحد وعلى آخر- رفيق كوكتيل هيمنجواي»، فيليب جرين، مجموعة بنجوين للنشر (مارس ٢٠١٥).

• «Hemingway Told Me Things: Notes on a decade's correspondence.», Lillian Ross

«أشياء قالها لي هيمنجواي: ملاحظات عبر عقد من المراسلة»، ليليان روس مجلة «ذا نيويوركر».

https://www.newyorker.com/magazine/1999/05/24/hemingway-told-me-things

• «Ernest Hemingway, The Art of Fiction No. 21», Interviewed by George Plimpton, ISSUE 18, SPRING 1958

«إرنست هيمنجواي: فن الخيال رقم ٢١»، حوار أجراه جورج

بليمبتون، دورية «باريس ريفيو» العدد ١٨، ربيع ١٩٥٨.

https://www.theparisreview.org/interviews/4825/the-art-of-fiction-no-21-ernest-hemingway

• «الرسائل» الجزء الأول ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع» (مارس ٢٠٢٠).

• «الرسائل» الجزء الثاني ترجمة الشاعر عبد المقصود عبد الكريم، إصدارات «آفاق للنشر والتوزيع» (مارس ٢٠٢٠).

• «Running with the Bulls: My Years with the Hemingways», Valerie Hemingway, Ballantine Books; Illustrated edition (November 8, 2005).

«الركض وراء الثيران: سنواتي مع آل هيمنجواي»، فاليري هيمنجواي، بالانتاين بووكس، النسخة المصورة (نوفمبر ٢٠٠٥).

• «Remembering Ernest Hemingway», James Plath & Frank Simons, The Ketch & Yawl Press; 1st edition (May 18, 1999).

«تذكر إرنست هيمنجواي»، جيمس بلاث وفرانك سيمونز مطبوعات كيتش أند يول، الطبعة الأولى (مايو ١٩٩٩).

• موقع مؤسسة فينكا بيهيا.

The Finca Vigia Foundation website.

https://fincafoundation.org/

• «Cuba», Moon Travel Guide, Christopher Baker, Moon Travel; 7th edition (January 30, 2018)

«كوبا»، دليل الرحلات من مجموعة موون، كريستوفر بيكر، مون ترافيل الإصدار السابع (يناير ٢٠١٨).

• «HEMINGWAY DESCONOCIDO», (Cuatro crónicas secretas sobre el escritor en el Perú y el mundo), Omar Zevallos, DEBATE (15 August 2019).

«هيمنجواي المجهول»، (أربع حكايات غير معروفة عن الكاتب في بيرو والعالم)، عمر زيفايوس، ديبات (أغسطس ٢٠١٩).

• «THE HUNT FOR HEMINGWAY», Scott Berg, Vanity Fair, October 2011

«مطاردة هيمنجواي» سكوت بيرج، مقال منشور في مجلة «فايتي فير» عدد أكتوبر ٢٠١١.

https://archive.vanityfair.com/article/2011/10/the-hunt-for-hemingway

• La Habana de Hemingway y Campoamor, Osmar Mariño Rodríguez, Ediciones Extramuros, 2009.

«هافانا بين هيمنجواي وكامبوامور»، أوسمار مارينيو رودرجيث، إديثيونس إستراموروس ٢٠٠٩.

• «MARLIN OFF THE MORRO, A Cuban letter»,

Ernest Hemingway, «Esquire» Magazine, September 1933.

«مارلين المورو.. رسالة من كوبا»، إرنست هيمنجواي مجلة «إسكواير» سبتمبر ١٩٣٣.

https://classic.esquire.com/article/1933/9/1/marlin-off-the-morro

- «OUT IN THE STREAM , A Cuban letter», Ernest Hemingway, «Esquire» Magazine, August 1934.

«في التيار.. رسالة من كوبا»، إرنست هيمنجواي، مجلة «إسكواير» أغسطس ١٩٣٤.

https://classic.esquire.com/article/1934/8/1/out-in-the-stream.

- **«العجوز والبحر»، إرنست هيمنجواي، ترجمة د. غبريال وهبة، الدار المصرية اللبنانية، طبعة خاصة ضمن إصدارات مكتبة الأسرة عام ١٩٩٨.**

- **«تلال أفريقيا الخضراء»، «أن تملك وألا تملك»، «ولا تزال الشمس تشرق»، «جزر في التيار»، إرنست هيمنجواي (مقتطفات من ترجمة المؤلفة).**

هايدي عبد اللطيف

كاتبة ومترجمة، حاصلة على ليسانس اللغة الفرنسية وآدابها من كلية الآداب جامعة عين شمس، ودبلومة من معهد النقد الفني في أكاديمية الفنون، ودبلومة في اللغة الإسبانية كلغة أجنبية من جامعة سلامنكا في إسبانيا.

عملت في الصحافة المصرية والعربية لأكثر من ٣٠ عامًا، في مجلات «روز اليوسف» و«كل الناس» و«الأهرام العربي» وعدد من الصحف بينها جريدتي «العالم اليوم» و«الكويتية». ترجمت عددًا كبيرًا من المقالات والنصوص المعاصرة في الآداب والفكر والعلوم، نُشرت في صحف ودوريات عربية عديدة.

صدر لها كتاب مترجم بعنوان «شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت»، من تأليف مانويل كاستلز عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في أكتوبر ٢٠١٧، وجزآن من «موسوعة المشاهير» في يناير ٢٠١٨، عن دار دَّوِن للنشر والتوزيع، والتي تضمنت سيرًا ملهمة لعدد من الشخصيات العالمية المعروفة في مجالات متنوعة.